د. فرح موسى

الإمام الخميني واستراتيجيا المستقبل

ابحاث ودراسات في وصية الإمام الخميني



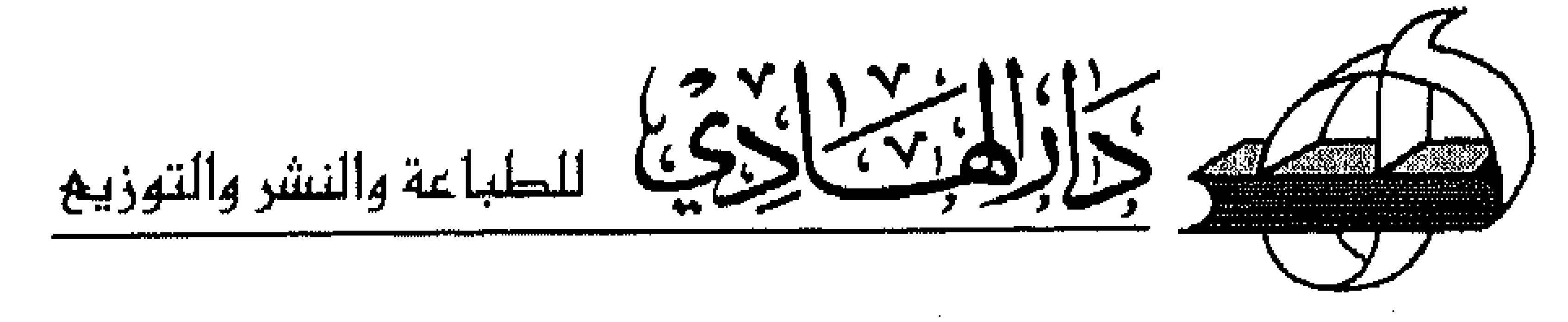


الإمام الخميني (قده) واستراتيجيا المستقبل

أبحاث ودراسات في ضوء وصية الإمام(قده)

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م



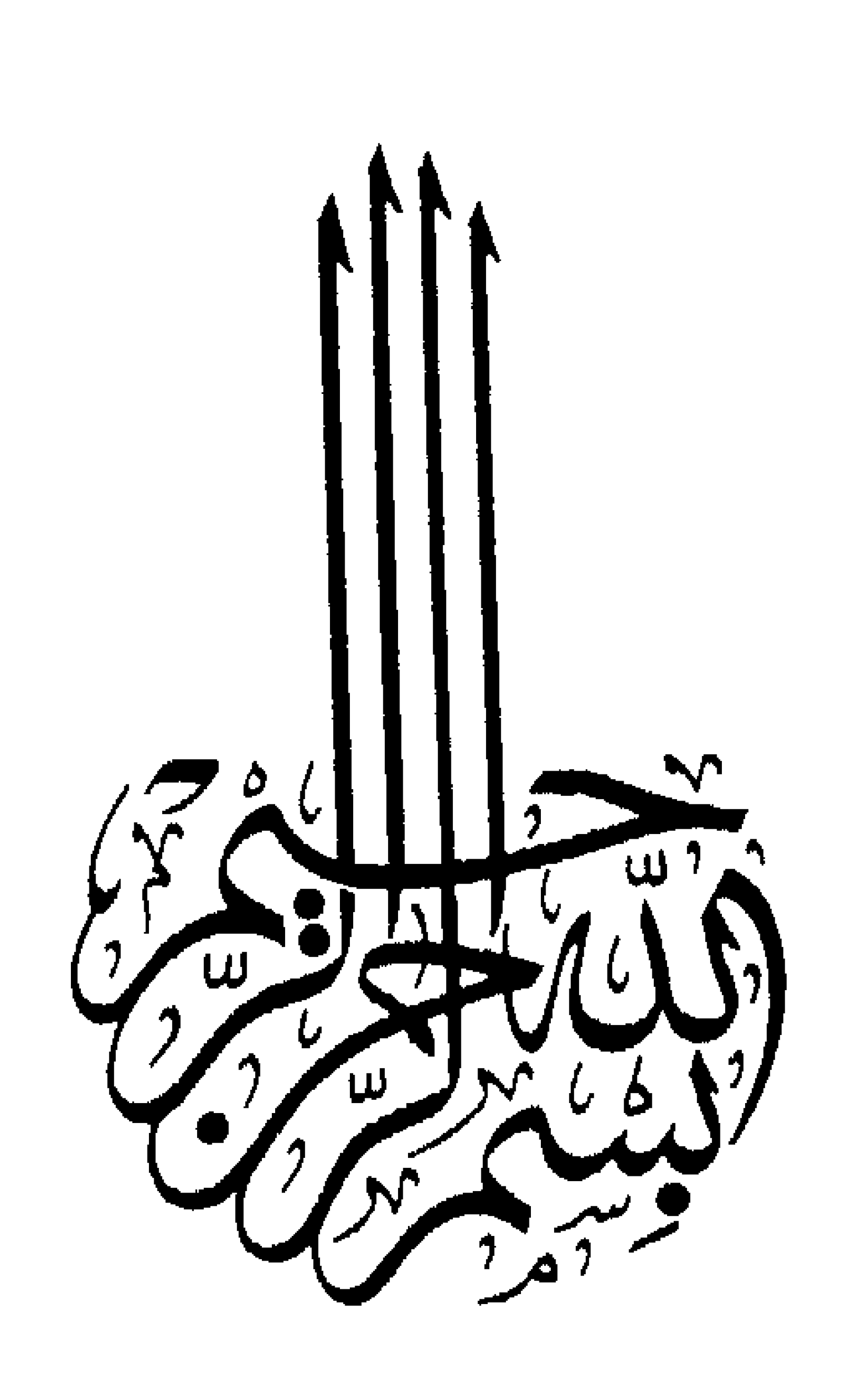
هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإمام الخميني (قده) واستراتيجيا المستقبل

أبحاث ودراسات في ضوء وصية الإمام(قده)

د. فرح موسى





الإهداء

إلى التي قرأت معي كتاب الحياة

وحملت معي صبر الأيام والمشاق

إلى التي اختارت عزلة الحياة،

لأكتب كلماتي مع أسحار الليل وعلى أعتاب الفقر والحرمان.

إلى زوجتي الصالحة الوفية: إيمان دبوق

إلى أولادي: محمد وفاطمة، وشيرين.

أقدم هذا العمل المتواضع راجياً المولى عز وجلّ التوفيق، إنه ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

إيران الإسلام والغرب: حوار أم صدام

تمهيد للبحث

في خضم مقولات العصر وتعقيداته، وفي إطار ما ترسمه حضارة الغرب من خطوط شاحبة، وتسعى إليه من عولمة وعالمية طاغية، نرى لزاماً علينا أن نطل على آفاق المستقبل، وهناك أملٌ يحدونا في أن تكون الإطلالة كاشفة عما يمكن أن تؤول إليه أوضاع الشعوب، سواء في ظل حوار الحضارات، أو في ظل صدامها، كما يحدونا الأمل أيضاً في أن تكون الإطلالة مستشرفة لكل آفاق المستقبل، بحيث يمكن لنا التعرف الى ما بثته الثورة الإسلامية في إيران من إشعاعات روحية ومعنوية باتجاه الشعوب المسلمة والمستضعفة. إضافة الى ما شكّلته هذه الثورة من منعطفات تحفز الباحث في مجال الاستراتيجيا على تعميم ذاته ونظرته، لأجل أن يستكشف طبيعة هذه المنعطفات، التي كان لها أكبر الأثر في

تحول العالم كله نحو الدينية، مما اضطر الكثيرين من المهتمين بالشأن الاستراتيجي الى إعادة الهيكلة في مجال البنى المختلفة للإجتماع البشري من جهة، والى إعادة النظر في كل ما تمت صياغته منهجياً ومعرفياً ومفهمياً في اطار دراسة المقومات والأسس التي تبتنى عليها نظرة البشر إلى الكون والحياة والإنسان من جهة اخرى، لأن مرتكزات الأبحاث الاستراتيجية في السابق، كانت من حيث يدري اصحابها أو من حيث لا يدرون، تلحظ الجوانب المادية والقدرات العقلية الهائلة في بناء منظومة الكون والحياة. أما اليوم، فإن البحث الاستراتيجي يقتضي ملاحظة الجانب المعنوي في حركة الشعوب، وخاصة بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، حيث أنه تبدّى للعالم ان المنظومة المنشودة للإنسان والحياة، والقادرة على احداث التوازن في النفس البشرية والعالم، هي المنظومة الإسلامية، الدينية بشكل عام، وقد دلت الأحداث والتجارب، بعد انتصار الثورة في إيران، وبروز العامل الديني فيها، على أن المطلوب لرسم وفهم وتحديد استراتيجيا المستقبل، هو ملاحظة، بل واستكناه الجذر الديني الضارب في اعماق التاريخ والإنسان. هذا الجذر الذي وحده تأصل في الحضارات ودل عليها، بإمكانه دائماً أن يشكل انموذجه العالمي بحسب ما ينطوي عليه كل دين من مبادىء وقوانين وتعاليم، وكما قال مالك بن نبي: «إذا أردت ان تتعرف إلى حضارة ما، فتعرّف إلى الأصل الديني الذي بعثها».

إننا في هذا البحث سنحاول التعرف الى ما آلت إليه الجمهورية الإسلامية في إيران من وضعية مركزية، ودور محوري وتشكّلات بنائية مختلفة في ضوء أطروحتها الإلهية، التي ميزتها عن سائر ما عرفه العالم من أطروحات ومنظومات. كما أننا سنحاول تقديم رؤية معينة حول طبيعة

التحولات الجوهرية التي شهدتها إيران والعالم في ضوء الانعكاسات الدينية والسياسية على مجريات الأحداث، وعودة الشعوب الإسلامية والمستضعفة الى التفاعل مع القيم المعنوية، بعد أن استبدت بها الأهواء، وضيعتها مفاتن الحضارة في دياجير الظلام.

١ ـ إيران والانبعاث الديني

إن إيـران اليـوم، ليسـت إيـران القـديمـة، أو إيـران الصفـويـة أو القاجارية، أو البهلوية، أو الدولة الملحقة بهذا القطب الدولي أو ذاك، أو التابعة لهذه المنظومة أو تلك، وإنما هي إيران الإسلام، هذا الدين الإلهي الذي تميز بها وتميزت به حتى صارت وإياه شيئاً واحداً، فلا تكاد تذكر إيران، إلا ويذكر معها الإسلام، الذي بات يشكّل جوهرها، وقوام وجودها. وقد استطاعت الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني (رض) وسائر العلماء المجاهدين أن تعيد الناس الى نبع الدين الصافي بعد أن طهّرت الثورة مجراه من ملوثات القرون الغابرة. وها هو يستمر متوهجاً متدفقاً ليعيد الحياة الى قلوب وعقول المسلمين، ويحكم فيما بينهم، كما كان في حياة الرسول ﷺ والأئمة الأطهار. وما نشاهده في العالم اليوم من انبعاث ديني، ومن أعادة اعتبار لقيم الحق والخير والعدل والحرية، هو خير دليل على عودة الحياة الدينية وتميز منظومتها. فالشعوب عادت لتتواصل مع ذاتها، وتتصارم مع كل ما يُسيء الى تدينها وأخلاقها وقيمها الأخلاقية والإنسانية. وإذا كان لهذا الانبعاث الديني من أسباب وعوامل، فلننظر الى ما كانت عليه الشعوب قبل انتصار الثورة الاسلامية، من طغيان واستبـداد واستـلاب فـي ظـل سيـادة القطبيـن، النمـوذجيـن الـرأسمـالـي والاشتراكي، لكي يتسنى لنا التعرف الى جملة الأسباب والعوامل التي

أدت الى أن يتحقق هذا الانبعاث في زمن كادت الأنفاس فيه تحبس لتتقاسم بين هذا القطب الدولي أو ذاك، وليس أدل على ذلك من ظهور منظمة دول عدم الانحياز في مؤتمر باندونغ ١٩٥٥، التي عجزت عن الاستقلال وكانت النتيجة، أن كثيراً من الدول التي كانت تسعى للانحياز، تلقّت مساعدات مالية واقتصادية في العام نفسه من الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يكن هناك متنفس للشعوب في زمن سيادة القطبين، إلا أن تكون الأنفاس باتجاه الغرب أو الشرق، وكان دلك بالنسبة لكثيرين بمثابة القدر المحتوم والقضاء اللازم، ومع بداية الثورة الإسلامية، وظهور بوادر الانتصار، بدأت الشعوب الإسلامية والمستضعفة تدرك معنى الثورة على الذات واليأس قبل الثورة على تجبّر الطواغيت وطغيانهم. والحق يقال: إن الإمام الخميني (رض) هو رائد الانبعاث الديني في هذا القرن، وفي القرون التي ستليه، ويمكن أن نشبّه ما قام به الإمام (رض) بما قام به الإمام علي عليه السلام حينما قاتل المارقين والناكثين والقاسطين بهدف إعادة الاعتبار لقيم الحق والعدل والعقل والشورى. فالطاغوت هو الطاغوت، سواء أكان مسلماً أو مسيحياً، أو يهودياً، كان الشرق أو الغرب، أو إسرائيل. وحيثما تحقق الشعوب انتصارها عليه، تكون قد انبعثت دينياً، وانتصرت ذاتياً ومعنوياً، ولو ان الشعوب أخلصت لله تعالى، لاستمرت في انبعاثها، ولما شهدت خراباً في هياكلها المادية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿**لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض. ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ (الأعراف، ٩٦).

وقال تعالى: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً**﴾ (سورة الجن، ١٦).

إن العالم الإسلامي، وسائر المستضعفين في العالم، كانوا قبل الثورة الإسلامية في إيران، يعيشون في جوّ مادي تستبد به عواصف الشهوات والملذات، وتنحسر فيه القيم والأخلاق لحساب الرغبات، ولم يكن هناك ثمة معنى للعقل، أو للعدل، أو للحرية، وأقصى ما كان يحلُم به الإنسان هو أن يكون غنياً بأفكار الغرب وسلعه، لأنها تتجاوب مع ما هو عليه الإنسان في ذات نفسه من استلاب، وتتلاقى مع جموده العقلي، وخوائه الروحي، وفقره النفسي، ومع الثورة الاسلامية عادت دورة الزمان، وبعث الإنسان جديداً في ذات نفسه، وفي علاقاته، لأن الثورة فتحت نوافذ العقول والقلوب وحركت دفائنها، وأشعرت الشعوب الاسلامية بضرورة الخروج من أنفاق الحضارة المظلمة، وإزالة الصدأ المتراكم على ذاكرتها، لتعرف مجدداً أن لها تاريخاً وحضارة ومجداً وحضوراً تجاوز بها الذات الى العالم، ومجداً استقر بها على حدود المعمورة، وكاد أن يبلغ بها حدود الملكوت.

٢ ـ الإسلام والعولمة الغربية

فالعالم اليوم، وما يعجّ به من مصطلحات ونظريات حول حقوق الإنسان، والقيم والأخلاق، والحريات السياسية والدينية، وما إلى ذلك مما تتشدق به حضارة الغرب، إضافة الى وعود النظام العالمي الجديد، والقطبية الأحدية، وحوار الحضارات أو صدامها، أو العولمة وآثارها، كل ذلك لا يزال في إطاره النظري، ولم يتجاوز بعد الى عالم التطبيق، وفي اللحظة التي يمكن أن يتبلور فيها شيء بخصوص هذه العناوين، فإنه لن يبقى إنسانٌ يتفاعل معها، أو يخضع لها، باعتبار أن العولمة التي يراد لها أن تتخطى حدود القوميات والمحليات والهويات والأديان والثقافات

لتبلغ منتهى الهيمنة والاستبداد والفرعونية سيكون من نتائجها، فيما لو تحققت، القضاء على كل أمل بالحياة، ودفع الشعوب الى حافة اليأس والفقر، بحيث لا يبقى أية إمكانية للتعايش أو للحوار. وهذه العولمة إنما يكون ممكناً تحقيقها فيما لو صح الرهان الغربي، والأمريكي خصوصاً على خلع البشرية من طبائعها وأديانها وأعرافها، ومن تاريخها أيضاً لتتشكل وفقاً لانموذج الغرب وعراقته التاريخية الزائفة. انه حلم واهٍ يرتكز في الأساس الى ذهنية التوحش، وانعدام الحس التاريخي عند مَن يطمح الى تحقيق ذلك، ويحلُم به، وقد بين لنا القرآن الكريم ملامح هذا المتكبر والساهي عن ذكر الله، حيث قال تعالى: **﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنّتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً، كلتا الجنّتين أتت أُكُلها ولم تظلِم منه شيئاً، وفجّرنا خلالهما نهراً، وكان له ثمر، فقال لصاحبه، وهو يحاوره، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدت الى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً. . .﴾** (سورة الكهف، الآيات: ٣٥ ـ ٣٨). فالآيات، كما نلاحظ، تتحدث عن الروح الطغيانية، التي قد تكون رجلاً، أو جماعة، أو مجتمعاً، أو دولة، وترسم لنا صورة واضحة عما يمكن أن تكون عليه هذه الروح من أقوال وأفعال إزاء الآخرين، فهي ترى نفسها أكثر مالاً، وأعز نفراً، ولا بد أن تكون مهيمنة على الآخرين، وقاهرة لهم، من منطلق أنها تملك القوة والمال، والأرض والسماء كما قال تعالى في وصف الطغيان الفرعوني: **﴿ونادى فرعون في قومه، قال: يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾** (٤٣ ـ ٥١).

وإذا تساءلنا عمن يقوم بهذه العولمة اليوم، ويسعى اليها، لوجدناه

الطاغوت الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة، التي سبق لها أن توحشت في التاريخ، ونافست على أكل لحوم الحمر البشرية، ودأبت على استعمار الشعوب منذ أن دخلت جنتها وهي ظالمة لنفسها. وهنا نسأل: أي نظام هذا يسعى الى أمركة العالم، وتعميم الفقر والحرمان والذل، ليفتخر في النهاية انه عالمي، وإنسان أخير يحيا خارج التاريخ كما يزعم فوكوياما!؟

ليست عولمة إيران الإسلامية، كعولمة أمريكا الفرعونية، لأن إيران عندها اعتقاد جازم بأن الساعة قائمة، وكل شيء زائل، ولا ينقصها في إطار ما تنتمي اليه من أيديولوجيا، وتحتكم اليه من قوانين إسلامية، أن تقيم نظامها العالمي الجديد على أنقاض الترهل المادي والتصحّر الروحي، أو أن تدعو الى حوار الحضارات على قاعدة **﴿لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾**، **﴿وتعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله...﴾**. انها عولمة التوحيد والروح والمبادىء والمعنويات، التي بدأ بها الأنبياء منذ فجر البشرية، وتابعها الأئمة والأولياء، واقتدى بها الإمام الخميني (رض) وشعب إيران ليكون له ما كان للنبوة من تحقق في التاريخ والزمان. وهذا الشعب يفتخر في أنه يعيد هيكلة ذاته وقيمه ومفاهيمه، ليجعل من نفسه محوراً ومرتكزاً، تملأ فضاء روحه المعنويات بعد أن أيقن العالم أنه لا يمكن للمادية أن تنقذ البشرية من أزمة الاعتقاد بالمعنويات، وهذه الأزمة، كما يرى السيد الخميني، تعدّ أهم أساس لمعاناة المجتمعات البشرية في الشرق والغرب.

إن العولمة الدينية التي تنشدها إيران، هي ذات مفاعيل عالمية، كونها ترتكز الى الفطرة الإنسانية وتعبر عنها، كما قال تعالى: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** (٣٠ ـ ٣٠)، إضافة الى أن أي شعب في العالم لا

يخلو من دين، ومن حسّ خُلقي، ومن شأن الانبعاث الديني في العالم أن يحقق حواراً حقيقياً بين الحضارات، وإذا كان البعض قد وجد أفاقاً للصدام، كما أظهرت دراسة «هانتغتون»، فإن مرتكز هذا الصدام قائم على استثناء محرك الدين في إطار ما هو منشود من عولمة مادية طاغية.

أما حوار الحضارات، فإن مرتكزه وأساس انطلاقته، هو الدين، ومهما كان هناك من تباين واختلاف بين الحضارات، فإن الدين يبقى عاملاً أساسياً في الحوار والتلاقي، كما انه يوفر أساساً للهوية والالتزام الذي يتجاوز حدود القومية ويوحد الحضارات، على حد تعبير جيل كيبل.

وكما رأينا في أبحاثنا ودراساتنا، ان الغرب يراهن على صدام الحضارات، ويعمل له، لأنه ذا طبيعة وحشية، ونزعة طغيانية عبر عنها جان ميجر رئيس وزراء بريطانيا، حينما أشار الى الإجراءات التي يتخذها الغرب ضد العراق، وسارع ميجور الى تصحيح نفسه وأشار لاحقاً الى المجتمع الدولي، ومع ذلك فقد كان محقاً عندما زلّ لسانه، لأن الغرب يدّعي بثبات لا يكاد يتغير انه يتصرف نيابة عن المجتمع الدولي.

ذلك هو معنى أن تكون عالمياً في منطوق الغرب ومفهومه. إنه يعتبر نفسه سيد العالم وسلاحه الوحيد، وإذا كان لا بد من الدين في حياة الناس، فلا بد أن يكون هذا الدين أمريكياً يتم تأويله وفقاً لمنظومة الغرب ومصالحه الحيوية، ويمكن لأي باحث في الشؤون الدينية والسياسية أن يتأمل في سياسات الغرب اتجاه الشعوب الأخرى ليكشف عن طبيعة المحاولات التي يبذلها الغرب لتأكيد ذاته عالمياً، فهو كونه يصادم الدين، ولا يعتبره محركاً أساسياً في الحوار والتلاقي، فإنه مضطر دائماً لاعتماد أسلوب القوة لا في حواره وحسب، بل في علاقاته أيضاً، وخاصة مع

الشعوب العربية والإسلامية، بدليل أننا نرى كثيراً من الشعوب المستضعفة والمقهورة قد استنصرت الغرب ومجلس الأمن للدفاع عن حقوقها، وكانت المعايير المزدوجة في سياسة الغرب سبباً رئيسياً في الامتناع عن نصرتها، لأنه يرتكز في عالميته وعولمته وفي جميع سياساته على مبدأ القوة ويربط الانتصار لأحد بالأبعاد الاستراتيجية لسياسته العسكرية والاقتصادية، وقد أجمعت الأبحاث والدراسات على أن خطاب الغرب عن حقوق الإنسان والديمقراطية مرهون دائماً باعتبارات استراتيجية، وأن الأبعاد الأخلاقية عنده تتوقف حيث تبدأ المصلحة. فالدين والأخلاق وكل القيم والمبادىء، إنما تكون قيماً ومبادىء حقيقية فيما لو حققت المصلحة المادية للغرب، أما ان يتم الارتكاز اليها والصدور عنها في تعميم الانموذج الغربي، فذلك مما لا فائدة منه ولا طائل تحته، لأنه يكون بمثابة مأسسة جديدة للأنموذج، في وقت بات ملحاً على الادارة الأمريكية أن تستكمل طريقها في إطار خياراتها الانتقائية سواء في الدائرة الخاصة، أو في دائرة مجلس الأمن الدولي.

وهكذا، فإن معنى العالمية الغربية والعولمة المادية، بما تعنيه من تعميم للفقر، أن يستمر الإنسان تابعاً، وملحقاً، ومستهلكاً، وقابلاً لكل ما تراه الأخلاقية الأمريكية مناسباً له، بحيث لا يكون له أدنى خيار أمام ذاته ووجوده، أو أمام دينه وهويته وتاريخه، وهذا كله ليس من شأنه أن يخلق حواراً إيجابياً بين الشعوب، لأنه يوفر الأرضية الصدامية، ويزيد من الهوة الثقافية، التي تفصل الحضارات عن بعضها البعض، وقد يكون ما ذهب اليه «هانتغتون» حول صدام الحضارات مبتنياً أساساً على النوايا الغربية الهادفة الى استعداء الدين، وتثبيت النظرة الحيوانية الى الإنسان، والنظرة المادية الى الكون والحياة، وهذا ما لا يمكن للحضارات الاخرى، سواء

الكونفوشية أو اليابانية، أو الهندوسية، فضلاً عن الإسلام والحضارات الأخرى، أن تتخذه خياراً، لكونه يتنافى مع مقومات وجودها، ويعارض رؤاها وتطلعاتها، ومنطلقاتها، مما يجعل من الصدام الحضاري أمراً ممكناً بنظر الساعين الى إقصاء الدين عن الحياة البشرية، والمعارضين لفكرة أو حقيقة كون الدين محركاً أساسياً في ما تنشده أي حضارة من عالمية، في إطار مفهمتها للدين، وأدلجتها للحياة.

إن الوهم الغربي بالانتصار في العولمة على خلفية الإنتصار بالحرب الباردة، هو الجرثومة القاتلة في الانموذج الغربي، وكذلك في الرؤية الغربية الاستعلائية لما ينبغي أن تكون عليه الشعوب في قرن التحولات الجيوبوليتيكية السريعة، والتعقيدات التقنية وثورة الاتصالات وتمدد الناتو. . . فالإنتصار الاستراتيجي في الحرب الباردة لم يكن الغرب سبباً رئيسياً فيه، وهنا تجدر الإشارة الى أن مقتضى الاستراتيجية يستدعي دائماً التفريق بين عوامل داخلية وأخرى خارجية تضافرت وسارعت في انحلال الاتحاد السوفياتي. ومن ثم المنظومة الاشتراكية كلها. وليس من الاستراتيجيا في شيء أن نحسب السقوط المريع للشيوعية انتصاراً للمشروع الغربي، أو تكريساً للقطبية الواحدة أو إلغاءً لتعدد الأقطاب في المجال الثقافي، أو السياسي، ولا شك في أنه مثلما استفادت أمريكا من الناحية الاستراتيجية في سقوط المنظومة الاشتراكية، فإن هناك منظومات أخرى، كالمنظومة الإسلامية، استفادت من حيث ما أبرزته من خصائص ومزايا في مواجهة الغرب والشرق.

ولسنا نبالغ في ما لو قلنا؛ إن إيران اليوم ليست مجرد حالة ثقافية أو سياسية، وإنما هي، بالاضافة الى ذلك، ذات بعد استراتيجي من شأنه أن يمنع ظهور القطبية الواحدة في العالم، ويثبت تعددية الأقطاب على نحو

مختلف تماماً عمّا كان عليه الوضع في ظل سيادة الاشتراكية والرأسمالية. إن الإمام الخميني (رض) في رسالته الى غورباتشوف ١/ ١/ ١٩٨٩، توقع انهيار الاتحاد السوفياتي وتلاشي المعسكر الشرقي، واستشرافه لهذا المستقبل وتعبيره عما ستؤول اليه الأوضاع جاء في وقت كان المحللون فيه ينظرون بتحفّظ وحذر لبداية تحولات الاتحاد السوفياتي. وهذا يمكن إدخاله في الدائرة الاستراتيجية، لأن المنظومة الاسلامية ابتنت على أساس أن لا تكون شرقية ولا غربية، في مسعى جاد لتأكيد هشاشة المنظومات القائمة وفشلها في تأمين سعادة البشرية، وغير خفي على أحد ان الامام الخميني (رض) استشرف مستقبل الغرب حينما نصح غورباتشوف وقيادته أن لا يقعوا فريسة النموذج الرأسمالي، لأنه يحمل المشاكل والعقد نفسها التي أودت بالنموذج الاشتراكي، بغض النظر عن وجود بعض التمايزات التي تجعل من نموذج ما قابلاً للحياة أكثر من نموذج آخر.

وأياً يكن الأمر، فإن التحول الجوهري في المنظومة الاشتراكية تسببت به أمور كثيرة، كان من جملتها العامل الديني الى جانب العامل الاقتصادي، فلو لم يكن هناك أمراض داخلية ونفسية، لما كان لأحد أن يتوقع انهيار الاتحاد السوفياتي، باعتبار أن الظروف والعوامل الخارجية، وتحديداً التربص الأمريكي، كانت أعجز من أن تحقق هذا الانتصار الاستراتيجي بوسائلها الخاصة.

وعموماً يمكن القول: إن المنظومة الرأسمالية ليست بأحسن حال من المنظومة الاشتراكية، فهي أيضاً كانت ولا تزال تعاني من أمراض خطيرة. والعقد العمياء تدفع بها الى المصير نفسه، لأنها تفتقر الى ما يوحّد مجتمعاتها بعد أن تحللت من كل القيم والمبادىء، ونرى أن هناك عاملاً واحداً لا يزال يشكل السبب الرئيسي في توحدها هو عامل المال، أو

الدولار، وإلا فإننا لا نستطيع أن نراهن على عوامل أخرى تنذر باستمرار هذا النموذج الى ما لا نهاية. فالغرب يخفي الكثير من مساوئه وتحلله تحت شعارات القوة والمال، وأخيراً جاءت العولمة، والنظام العالمي الجديد، ووحدة القطبية، لأجل إظهار فرادة هذا النموذج وقدرته على استيعاب العالم، وقد سهى الغرب عن حقيقة هامة جداً ألا وهي ما تعيشه شعوب العالم من مآزق سياسية واجتماعية واقتصادية، تدفع بها دائماً الى التماس الحلول لمشاكلها من داخل منظومات خاصة بها، رغم كل ما تمارسه أمريكا والغرب من ضغوط اقتصادية وسياسية وعسكرية عليها، ولم تفلح حتى الآن في التأثير على كثير من شعوب العالم. فهذه إيران، وسوريا، ولبنان، إضافة الى ما تعرضت له دول شرق آسيا من انهيارات اقتصادية، وما قامت به أمريكا من توجيه ضربات عسكرية لكل من أفغانستان وليبيا، والسودان، والعراق ويوغوسلافيا، هذا فضلاً عن حروب بالوكالة ضد إيران وسوريا ولبنان، فكل هذه الحروب المباشرة وغير المباشرة لم تفلح في إقناع الشعوب بأن هناك نظاماً عالمياً جديداً، وقطبية واحدة يجب الخضوع لها، والتكيّف مع مصالحها. إن أمريكا والغرب يستفيق يوماً بعد يوم على وهمه، ويظهر لديه تنوع حضاري وثقافي، لاتزيده الضغوط الاقتصادية، والحروب العسكرية إلا بروزاً ونصوعاً، كما أنه أدرك حقيقة انه حتى ولو كان العالم من الناحية الاستراتيجية قد أصبح عالماً غير متعدد الأقطاب، فإنه لا يزال متعدد الأقطاب في المجال الثقافي، وخطأ الغرب كما بينا، يكمن في أنه عادل الانتصار الغربي الواهي في الحرب الباردة بشكل خاطىء بانتصار النماذج السياسية والثقافية الغربية.

لقد سهى الغرب عن أمر مهم جداً، وهو افتقاره للنظرة الشاملة في

أبعاد الحياة المختلفة وتركيزه على بعد المال والسلطة، هذا فضلاً عن أنه لا يملك ثقافة حية تساعده على بلورة ذاته عالمياً، بحيث يكون له قصب السبق في مجال الهيمنة على الثقافات الأخرى، أو على الأقل استيعابها لتنشيط ذاته ثقافياً وأيديولوجياً. إن الإفلاس الغربي في إطار مفاهيم الحياة، فضلاً عن القيم والمبادىء، هو الذي يدفع بالكثيرين الى التنظير والتكهن بوجود آفاق للصدام الحضاري، تدفع اليه تباينات الحضارات واختلاف المنطلقات في الرؤى والمناهج والأهداف.

٣ ـ إيران وقيادة الحوار الحضاري

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن عالمية إيران فيما تنطلق منه من مبادىء وأسس، وفيما تسعى لتحقيقه من أهداف، هي وحدها القادرة على صناعة، بل وقيادة حوار الحضارات، لكون الحضارات كلها تمتلك مقومات وأسساً ورؤية دينية تساعدها على التكيف والتفاعل مع الانموذج الاسلامي الذي يصح القول فيه، انه كان انموذجاً عالمياً للحياة والكرامة والحرية في الوقت الذي كان لا يزال فيه الغرب متوحشاً، والعالم كله يعيش بدائية الحياة في جميع أنشطته السياسية والاجتماعية والثقافية، والاقتصادية... الخ، وإذا كانت حضارة الغرب اليوم تظهر عالميتها بالانتشار والتوسع عن طريق الطغيان ووسائل القوة، فذلك لا يمكن أن يعوّض لها خسارة الذات والروح، أو أن يجعل منها عالمية من حيث المنبع والمحتوى، كما هو شأن عالمية الإسلام.

إن إيران، وبعد مخاضات عسيرة في تاريخها الديني والسياسي، قبل الإسلام وبعده، وصولاً الى انتصار الثورة الاسلامية، عادت لتنشد الخيار الديني بكل ما ينطوي عليه من عالمية في المبادىء والقيم

والأخلاق، وبكل ما يترتب عليه من مسؤوليات إنسانية وحضارية، وهنا تجدر الإشارة الى أن الأولياء الصالحين الذين قاموا بنشر الدين، ودافعوا عنه في مواجهة الطواغيت، والذين اتخذت منهم إيران قدوة فيما رسمته من خطوط، أو عبرت عنه من مبادىء، هؤلاء الأولياء علّموا المسلمين أن لا يكونوا فراغاً تملأه ثقافات الآخرين، وأرشدوهم الى أن يكونوا عالميين بما يحملونه من أهداف، ويرسخونه من قيم، كما هو مقتضى الدين الذي ينتمون إليه ويصدرون عنه. ولهذا، فإن من أهم ما يمكن الارتكاز اليه في تأكيد عالمية الإسلام في النظرة الى الكون والحياة والإنسان، وفي بلورة المشروع الحضاري الإسلامي، هو ما أرشدنا اليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث بيّن للمسلمين طريقة التعايش مع الآخرين، وكيفية التعامل والحوار معهم، وبرأينا ان من أهم النصوص الدالة على عمق النظرة الاسلامية الى الحياة والإنسان، هو النص الذي يقول فيه الإمام علي عليه السلام لواليه على مصر مالك الأشتر، «الناس صنفان، إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق».

أليس في قول الإمام علي عليه السلام هذا، ما يدل على عالمية الإسلام فيما ينشده من حوارات وتفاعلات وعلاقات؟

أليس في قوله ما يدل على ان المقياس في العالمية والعولمة، هو كرامة الإنسان، وليس ما ينتجه، بحيث تكون قيمة الإنسان ما يحسن، وليس ما يأكل أو يلبس أو يشرب؟

أليس في قول الإمام علي عليه السلام ما يؤكد على أن المعنويات تبقى شرطاً أساسياً في التلاقي والحوار، بعيداً عن المصالح الضيقة، التي غالباً ما تفقد الإنسان إنسانيته؟

هذا هو منهاج إيران في منظومتها الجديدة العالمية، وهي بعدما قامت به من تجارب، وأثبتته من نجاحات في سياساتها الداخلية والخارجية، وفي حواراتها الإنسانية، مع الذين هم أخوة لها في الدين، أو نظراء لها في الخلق، استطاعت أن تلفت العالم الى منهجية جديدة في الحياة، وإلى قطبية الإسلام الواعدة في أطر من الحرية والاستقلال والتفاعل الحر، لأن الذي بعث الإسلام، وأراد للإنسان أن يكون جديداً وعالمياً، وشاهداً، قادر على أن يعطيه دوره العالمي الفاعل والمؤثر فيما لو استطاع هذا الإنسان تأكيد ذاته وتحقيقها على النحو الذي يبرزها كأنموذج وسطي في خضمّ ما يعيشه العالم من ثقافات وحضارات.

إن الإمام علياً عليه السلام كان رجلاً عالمياً بكل معنى الكلمة، وهو في عالميته الإنسانية، ورؤيته الحضارية كان يصدر عن الإسلام ويعبر عنه، ولهذا، فقد استطاع أن يتجاوز حدود الزمان، والمكان، وذلك من منطلق كونه الإنسان الحر والمالك لإرادة التغيير في النفس والعالم، ومما يدل على عمق هذه الشخصية العالمية، هو ان الامام عليه السلام كان ينشد الحوار حتى مع أعدائه، ويرفض البدء بأي عمل قبل التحاور بشأن ما يكون له من آثار ونتائج، وهذه هي طبيعة الإنسان المسلم، إذ أنه يجد نفسه دائماً مسؤولاً عن إدارة الحوار الحضاري، وحتى الصدام الحضاري فيما لو كان ضرورياً كما هو الحال اليوم مع الحضارة المادية، بدليل أن الأنبياء جميعاً، حاوروا الفراعنة والسلاطين. كما فعل إبراهيم مع نمرود، وموس وهارون مع فرعون، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع قريش، والامام علي عليه السلام مع أعدائه في حروب الجمل وصفين والنهروان. وهذا كله إنما كان من أجل تأكيد عالمية الإسلام وحيويته في استيعاب كل الأطر الحضارية التي كانت سائدة في أزمانهم، وقد صوّر لنا القرآن الكريم كيف تكون عواقب

الذين ظلموا واترفوا في الحياة الدنيا، وقالوا: إنا فوقهم قاهرون، وأمريكا اليوم هذا منطقها، ﴿**وقد أفلح اليوم من استعلى**﴾. ﴿**وما أظن الساعة قائمة**﴾، الى ما هنالك من مزاعم واهية، ونظريات خاوية، ونتيجة هذا الطغيان لا بد أن تكون، كما كانت نتيجة أي صراع بين النبوة والمترفين، وكم هو ملفت تعبير القرآن في تصوير مآلات النزوع الطغياني، حيث قال تعالى: ﴿**وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً**﴾ (سورة الكهف، الآيتان: ٤٢ ـ ٤٣).

لقد سبق لروسيا أن قلبت بكفّيها، وأمريكا تنتظر المصير نفسه، لأنها تحاور الآخرين من موقع الكفر بالذي خلق الكون والحياة والإنسان، وتزعم لنفسها جنة الخلد حيثما توجهت وانقلبت، كما قال تعالى: ﴿**ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً**﴾.

إن إيران اليوم تتابع مسيرة الأنبياء وتنشد الحوار الحضاري وتسعى إليه، وتراه ضرورة من ضرورات الحياة، لأن صدام الحضارات يعني أن يكون العالم ساحة فوضى ونهب وقتال وتناقض في المصالح والأهداف، خلافاً لما أمرت به رسالات السماء، وقد رأينا، كيف ان الامام الخميني حاور العالم من موقع رسالة الاسلام وما تنشده من حرية ووسطية، كما فعل حينما خاطب غورباتشوف، وأكثر زعماء العالم لأجل أن تكون الإنسانية والحضارات كلها في منأى عن الطاغوت، الذي هو على استعداد دائماً لحرق المدن والقرى، بل والعالم كله من أجل أن يشعل سراجه!

نعم، الإمام الخميني (رض) لم يكن متساهلاً مع الغرب وأمريكا خصوصاً، لأنها لم تحترم خيار الشعب، واستمرت في إعداد المؤامرات

للنيل من الثورة وشعبها. مما كان يستدعي دائماً التربص بها ومواجهتها، ولو أنها كانت تملك مقومات الحوار، لما كان الإمام ليتوانى عن مخاطبتها والتحدث اليها، هذا فضلاً عن ان أمريكا ارتكبت الجرائم الكبرى بحق الشعب الإيراني، وجمدت أمواله، وغير ذلك مما لا يحصى كثير، مما أقدمت عليه أمريكا بهدف الإساءة الى الجمهورية الإسلامية.

غاية القول: ان إيران دخلت في عالم جديد، من حيث كونها عبرت عن منظومة جديدة في إدارة المجتمع والدولة، وفي سياساتها وعلاقاتها في الداخل والخارج. ونظراً لما تعد له قوى الشر في العالم لجعل إيران على الأقل في موقع الدفاع عن نفسها، لمنعها من ترجمة رؤيتها الحضارية. فإن مما تقتضيه حقيقة الانموذج الإسلامي، أن تستمر إيران في تصدير الثورة الإسلامية عن طريق إثبات الجدارة والقدرة على التعامل مع القضايا والأحداث كافة، وهي تملك من القدرات والكفايات المادية والمعنوية ما يؤهلها لتصدير رؤيتها للحياة والكون والإنسان، وجعلها محطّ نظر وإعجاب كل الشعوب الإسلامية والمستضعفة، لأن العالم يراهن على أخطاء في التكتيك والاستراتيجيا، لأجل الاستفادة منها في طريق زعزعة النفوس والتأثير عليها حتى لا تمتلك إمكانية التفاعل مع الرؤية الإسلامية، ويضاف الى ذلك أن دور إيران اليوم يتجاوز الزمان والمكان والجغرافيا والتاريخ الخاص بها، ليضعها في مصاف الدولة المركزية والمحورية، بحيث تكون مركز جذب، دون أن يعني ذلك تحول إيران الى مركز استقطاب كما كان حال الغرب والشرق في ما عرف بالجبارين، وإنما يكون لإيران الدور والوظيفة والمسؤولية والمنطلقات الفكرية والأيديولوجية التي تساعدها على إبراز ذاتها وإنجاح تجربتها، لتكون نموذجاً حياً فاعلاً ومؤثراً، وذات دور في تعريف الشعوب الى

نفسهـا ودفعهـا الـى تشكيـل ذاتهـا ليكـون لهـا المحـوريـة والمـركـزيـة والاستقطاب الذاتي كإيران تماماً، وكما هو حال بعض الدول الإسلامية كالسودان مثلاً.

وانطلاقاً من ذلك، فإن إيران اختارت الحل الديني لجميع قضاياها الـدينيـة والسيـاسيـة، فـي المجتمـع والـدولـة، وفـي كـل جـوانـب الحيـاة الإنسانية، وخرجت من موروثها الفقهي والسياسي، الذي كان مهيمناً عليها طيلة القرون الماضية، كما انها أكدت ذاتها على نحو مختلف تماماً عما كانت عليه في تاريخها، حتى التاريخ الشيعي الخاص منه، وما كان ذلك ليتم لإيران، أو لتقدر عليه، لولا انها استطاعت إعادة قراءة الدين وتطهيره مما علق به من ملوثات سلطانية. وهنا تجدر الإشارة، الى ان هناك مسؤوليات جساماً تقع على عاتق الجمهورية الإسلامية، تستدعي منها دائماً عدم التلهي بالشؤون الداخلية والانساق الفكرية ذات الطابع الحجري، لأن عولمة الإسلام تقتضي دائماً أن تكون إيران كمركز ثقل في موقع الفعل لا في موقع الانفعال، ويضاف الى ذلك ما هو ملقى على إيران من مسؤوليات ثقافية، تحتم عليها دائماً مواجهة الثقافات المعادية للثورة الإسلامية، وذلك من منطلق ان إيران وضعت من خلال ثورتها ومنجزاتها الحضـاريـة المميـزة فـي المـوقـع الـذي يسمـح لهـا بـالكشـف عـن كـل الأطروحات الضالة، والتي تهدف الى التأثير على الشعوب الإسلامية، وتشويه صورة إيران في العالم.

فإيران ليست دولة يمكن أن تكتفي بمعالجة أوضاعها الداخلية بمعزل عما يشهده العالم من تحولات وتعقيدات في المجالات كافة، كما أنها ليست دولة ذات وظيفة اجتماعية وحسب، بل هي دولة رسالية،

مؤهلة دائماً لرصد الأحداث واستشراف المستقبل بكل ما يمكن أن يجود به من مفاجآت.

لذا، فإن إيران، كما أشرنا، هي دولة ذات وظيفة عالمية، تستدعي منها دائماً الإطلالة على العالم والتأثير فيه من خلال منظومتها الإسلامية الحية ذات السمة الحضارية المميزة، والمخالفة تماماً لكل ما هو سائد في العالم من منظومات وحضارات.

والحمد لله رب العالمين.

د. فرح موسى

الفصل الأول
الثورة الإسلامية: منطلقات وأهداف

أولاً : ماهية الثورة وعوامل الانتصار

ثانياً : نهضة المجتمع الإيراني وتميز أهدافه

ثالثاً : الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه.

أولا: ماهية الثورة وعوامل الإنتصار

لا شك في أن الثورة الإسلامية في إيران، ليست بدعاً من الثورات في التاريخ البشري، ولكنها تمتاز عن بقية الثورات في كونها انطلقت من الإسلام، واحتكمت إليه في جميع شؤونها الدينية والسياسية، وعبّرت عنه في جميع علاقاتها الداخلية والخارجية، وذلك خلافاً لكل الثورات التي شهدها العالم قديماً وحديثاً، وهذا ما أشار إليه الامام الخميني (رض) بقوله: «لا ينبغي الشك أبداً في أن الثورة الاسلامية في إيران تختلف عن جميع الثورات في التكون، وفي كيفية الصراع والمواجهة، وفي دوافع الثورة والنهضة، ولا ريب أبداً في انها تحفة إلهية، وهدية غيبية من قبل الله تعالى تلطف بها على هذا الشعب المظلوم المنهوب»[1].

إنها ثورة إسلامية متميزة فيما انطلقت منه وعبرت عنه. وسرّ الامتياز هذا يكمن، أولاً وأخيراً، في الإسلام، الذي وجد فيه الشعب المسلم في

---

(1) را: الإمام الخميني، الوصية الخالدة، النداء الأخير، م. س، ص٢٥. وقا: مع مرتضى مطهري، الحركات الاسلامية في القرن العشرين، دار الهادي، بيروت ١٩٨٤ ص٨٢. فهو يرى أيضاً: انه لا توجد نهضة في أي بلد من بلدان العالم مثل نهضة الشعب الإيراني، فهي بدأت منذ انتفاضة حزيران ١٩٦٣م، ولا تزال تتوسّع وتتعمّق.

إيران النظام والقانون وجملة المبادىء والأهداف والتعاليم القادرة على إحداث التغييرات الجذرية في حياة الناس وتوجهاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. . وغيرها.

وإذا كان هناك ثمة ثورات كبرى قد سبقت انتصار الثورة في إيران، فإن هذه الثورات غالباً ما كانت تجافي الدين، أو تقتصر به على حياتها الخاصة فقط دون أن تتعدى به الى مجالات الحياة العامة. وهناك من الثورات من ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، كثورة أكتوبر الروسية. . التي اعتبرت الدين أفيوناً للشعوب، وعاملاً من عوامل التخلّف، بسبب ما رسخ في أذهان القائمين بهذه الثورة عن القرون الوسطى، والحكومات الثيوقراطية، والدور المطلق الذي كان يقوم به رجال الدين المسيحيون في إدارة شؤون المجتمعات الأوروبية[1]، إضافة الى ما كانت عليه روسيا نفسها من تخبط واعتساف ديني وسياسي، وقد أُخِذ الإسلام بجريرة المسيحية وما كانت عليه من مبادىء ومواقف ضد العلم والعلماء[2].

(١) كانت السلطة في القرون الوسطى تقوم على أساس إلهي، وان الحاكم منفذ للمشيئة الإلهية، وقد لعبت هذه الفكرة دوراً كبيراً في معظم الحضارات القديمة، وأقرتها المسيحية في أول عهدها، وإن حاربتها فيما بعد، ثم استند اليها الملوك في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتبرير سلطاتهم المطلقة واختصاصاتهم غير المقيّدة. را: الطاغية، إمام عبد الفتاح إيمام، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، عدد١٨٣، ص٢٦.

(٢) لقد لاقَ العلماء مصاعب جمة من السلطات الدينية في القرون الوسطى. ففي الوسط المسيحي وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة، ودون الاعتماد على أي نصوص حقيقية للكتب المقدسة، بمعارضة تطور العلوم، والحكم على العلماء الذين يقومون بذلك بالنفي أو الموت ما لم يتراجعوا عن نظرياتهم ويلتمسوا العفو، وعلى سبيل المثال نذكر «جاليليو» الذي حوكم لأنه استأنف مكتشفات كوبرنيق الخاصة بدوران الأرض. أما في الاسلام، فالموقف إزاء العلم كان مختلفاً تماماً. إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي =

لقد انتصرت العلمانية، وكل الثورات المادية في أوروبا، سواء في الغرب أو الشرق، تحت شعار العلم، وبناء الحياة الإنسانية وفقاً لرغبات الإنسان وحاجياته المادية، بعيداً عن الدين وما يقتضيه من تقوى والتزمات روحية وأخلاقية. وعلى هذا الأساس قام صرح الغرب الحديث الذي يقول: «مملكتي في هذا العالم وحده»[١]، رداً على النصرانية التي نُسب فيها الى النبي عيسى عليه السلام: «إن مملكتي ليست في هذا العالم»[٢].

نلاحظ مما تقدّم، ان الموقف السلبي للثورات من الدين، كان نتيجة لما آل إليه وضع الكنيسة وطريقة تعاملها مع الإنسان الأوروبي، ولم يكن هناك أدنى اطلاع على الدين الإسلامي وما ينطوي عليه من قوانين وتعاليم

= يقول: «اطلب العلم ولو في الصين». وهذا الموقف من العلم والعلماء من قبل الكنيسة تسبب في استصدار أحكام ومفاهيم مغلوطة عن الاسلام، وهي من الكثيرة بحيث لا يمكن إحصاؤها، ويكفي أن نشير هنا الى ما ادعاه المؤرخ الفرنسي «رينان» في محاضرة له عن «الإسلام والعلم»، ألقاها في السوربون عام ١٨٨٣م، من أن الإسلام والعلم لا يتفقان، وقد دخل جمال الدين الأفغاني في نقاش معه، مثبتاً خلاف ما يدّعيه، ومؤكداً عظمة الإسلام في الحثّ على طلب العلم والاشتغال به. وكان بعض الباحثين قد أشار الى أن «رينان» كان يفكر بالكثلكة، عندما كان يكتب عن الإسلام. را: ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار للنشر، ط٤، ١٩٨٦، ص١٥٢.

(١) را: محمد أسد، الإسلام عن مفترق الطرق، الترجمة العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ ص٣٠.

(٢) يقول موريس بوكاي: «كانت البلاد المسيحية في القرون الوسطى في ركود وتزمت مطلق نتيجة لتوقف البحث العلمي... وبعد عصر النهضة في أوروبا، كان ردّ الفعل الطبيعي أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافس الأمس، وهذا الثأر مستمر حتى اليوم لدرجة أن التحدث عن الله في الغرب في الأوساط العلمية يعتبر علامة على الرغبة في التفرد. ولا شك في أنه كان لهذا الموقف تأثيره السيىء على العقول الشابة (والمسلمة منها أيضاً) التي تتلقى التعليم الجامعي في أوروبا. را: دراسة الكتب المقدسة، دار الأفكار، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص١٤١.

وقيم، وقد أدى هذا الجهل بالإسلام، عقيدة، وشريعة ونظام حكم، الى أن تنهج بعض الثورات منهج المعاداة للدين، وترفض اعتباره أساساً لحياة الجماعات البشرية، للحيلولة دون أن يكون له أدنى دور أو تأثير في حياة الناس وإدارة أمورهم، وذلك بهدف أن يكون هناك فصلاً تاماً بين الدين والسياسة. وما يؤسَف له هو تأثر بعض الشعوب الإسلامية بالدعوات العلمانية، وقبول فكرة الفصل التام بين الإسلام والواقع انسجاماً منها مع مزاعم الثورات العلمانية وما نشأ عنها من حكومات، بأن الدين، كل دين، يمكن أن يشكّل عائقاً أمام تقدّم الشعوب وازدهارها، على الرغم من أن الاسلام يمتاز عن المسيحية امتيازاً جوهرياً، سواء لجهة احتوائه على قوانين إدارة البشر، أو لجهة احتوائه على القيم والمبادىء الأخلاقية، هذا فضلاً عما يمتاز به الاسلام من حيث خلوّه عن أية ثنائية تؤدي الى التنافر، أو الى الصراع في المجتمع، كما هو الحال في المسيحية[١].

كما أنه لم يحدث في أي عصر من العصور الإسلامية أن تكوّنت جماعة طبقية تستمد وجودها الطبقي من الإسلام، وتعتمد في حكمها للناس على ادعاء الحق الإلهي المباشر، كما كان عليه الحال في القرون الوسطى[٢].

---

(١) كما هو معلوم، انه لا توجد في الاسلام كنيسة ودولة، ولا مملكة الله ومملكة قيصر، ولا روح طاهرة وجسد مخطىء، كي يؤدي ذلك الى الصراع والتنافر، بل توجد عقيدة التوحيد، التي تعطي العالم الطبيعي كله (المادي والانساني)، انسجاماً وتكاملاً رائعين... والنظام التشريعي المنبثق عن المعتقد التوحيدي الإسلامي ومتفرعاته في العقيدة كان يبلور صفة التكامل بين المادي والروحي في الطبيعة والمجتمع والإنسان، ويجعل كل واحد منها ضرورياً للآخر بدل أن يجعل منه ضداً له. را: شمس الدين، محمد مهدي، العلمانية، نقد وتحليل، دار مجد، بيروت ص١٦٤.

(٢) لا يوجد في الاسلام طبقة إسمها طبقة «رجال الدين» على غرار ما كان عليه =

إن تأثير العلمانية على الشعوب الاسلامية، كان ولا يزال كبيراً جداً، وقد حرصت دوائر الإستعمار الغربي والشرقي على تعزيز فكرة العلمانية في بلاد المسلمين من خلال البعثات التبشيرية تارة، والنخب التي تتعلم في جامعات الغرب طوراً آخر. وكان من جملة ما عادت به بعض النخب العربية والإسلامية إلى بلادها[1]، فكرة الفصل بين الدين وانسياسة، التي روّجها الاستعمار لإحكام سيطرته على بلاد المسلمين. وقد شاع هذا المنطق، منطق الفصل بين الدين والسياسة، في جامعات المسلمين وحوزاتهم العلمية لدرجة أن كثيراً من الطلبة قد أُخذ بهذا المنطق، وسلّم بعدم وجود أي فرق بين المسجد والكنيسة، وان الاسلام لا يملك أكثر من تنظيم علاقة الفرد بربه، وكما يقول السيد الخميني(رض): «إن هذا الوضع لو كتب له النجاح لآل أمر الروحانية والحوزات العلمية الى ما كانت عليه الكنائس في القرون الوسطى إلا أن الله تعالى منَّ على المسلمين والروحانية، وحفظ كيان الحوزات ومجدها الواقعي، حيث تربّى في هذه

= الحال في العالم المسيحي، ولا حكام يحكمون باسم الإله، كما كان حال ملوك أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فالفقيه والسياسي، في الاسلام، يتكاملان، ويصدران عن رؤية واحدة للكون والحياة والإنسان، وإذا كان بينهما ثمة اختلاف، فإنه ناشىء عن الاختلاف في المجال الوظيفي لكل منهما، وهذا يعني تكاملهما. وانطلاقاً من ذلك، فإنه لا يمكن التخويف من حكومة رجال الدين، لأنه لا وجود لهذه الحكومة في الاسلام على المستوى النظري. والتعبير به بـ(رجال الدين) تعبير دخيل في الثقافة الاسلامية واللغة العربية.. را: شمس الدين، العلمانية، م. س، ص١٦٥.

(١) يقول علي شريعتي: «لا يطلق الأوروبيون على الذين يصنعون في أرضهم، لقب المثقفين، بل أشباه المثقفين، أي الأفراد الذين يحاكون الأروبيين، ودور هؤلاء كان ولا يزال التشبه بأسيادهم، وحمل الرسالة التي عهد اليهم بها، ليفتحوا للأوروبيين الطريق للورود والاحتلال...» را: الأمة والإمامة، دار الأمير، بيروت، ص٦٢.

الحوزات علماء مؤمنون بالدين، ومتميزون عن الآخرين، وثورتنا الإسلامية الكبرى نشأت من هذه البارقة»[1].

إذن، الثورة الإسلامية في إيران، هي نتيجة لجهود ومساعي علماء وجماهير مؤمنة بالله تعالى. وهي وإن كانت تشترك مع ثورات كثيرة في كثير من الخصائص والمميزات، إلا أنه يبقى للثورة الإسلامية ما يميزها عن سائر الثورات، ذلك أن وجود عوامل وظروف وأوضاع سياسية وإقتصادية واجتماعية تساهم في إحداث الثورة، لا يكفي وحده للتعرّف على ماهيتها، فلا يقال مثلاً، بأننا إذا عرفنا ماهية الثورة الروسية، أو الصينية، أو الجزائرية، فإنا نتعرّف الى ماهية الثورة الإسلامية في إيران[2]. فهذه الأخيرة، كما رأينا، تمتاز عن سائر ثورات العالم من حيث كونها اعتمدت الإسلام طريقاً وهدفاً في حركتها التغييرية، وفي بلورة المشروع الإسلامي للحكم، الذي يتجاوز مجرد الدعوة الى تعديلات دستورية، وإصلاحات إقتصادية، الى إقامة الحكومة الاسلامية، وتحقيق المجتمع والدولة بالإسلام، بحيث يكون كل شيء ديني في حياة المسلمين، خلافاً لما يقال بأن هناك أموراً لله تعالى، وأخرى لقيصر، تبريراً لمنطق الفصل بين الدين والسياسة، وتأكيداً للحكم العلماني في

(١) جاء هذا الكلام للإمام في الخطاب التاريخي، الذي ألقاه بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٨٩م.

(٢) ليست النهضات والثورات في التاريخ واحدة من حيث الماهية، فهناك عدة طرق للتعرف على ماهية الثورة أية ثورة، وقد أجمل مطهري هذه الطرق بالآتي:
- عن طريق معرفة الأفراد والجماعات التي قامت بالثورة.
- عن طريق معرفة العلل والجذور التي هيّأت أرضية الثورة.
- عن طريق معرفة أهداف الثورة.
- عن طريق الشعارات التي أعطت القدرة والحيوية للثورة.

را: مطهري، الحركات الإسلامية في القرن العشرين، م. س، ص٨٤.

رعاية شؤون الناس وتدبير أمورهم. فالثورة هدفت الى أسلمة المجتمع والدولة، على قاعدة أن كل شيء لله تعالى، وما على الناس إلا أن يقوموا بأمر الله تعالى، ويحكّموا الإسلام في جميع شؤونهم، كما قال تعالى: ﴿**فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً**﴾[1].

إن الثورة الإسلامية شكّلت منذ انطلاقتها هذا الامتياز، وأكّدت على ثوريّتهاالدينية، وأهدافها الإسلامية، وأرضيتها العقائدية، وقدّمت نفسها للعالم كنموذج فريد فيما انتهجته من سياسات، وعبّرت عنه من مبادىء وأهداف، وحققته من إنجازات اقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية... الخ.

لذا، فإن قولنا بأن الثورة الإسلامية ليست بدعاً من الثورات في التاريخ البشري، إنما نعني به تجذّر هذه الثورة في التاريخ والزمان، وانتهاء جذورها الى كربلاء التي كان لها أكبر الأثر في تميّزها، شكلاً ومضموناً، هدفاً وشعاراً، قولاً وعملاً. إنها الثورة التي امتدت في التاريخ والزمان حتى بلغت الخلود، وقد استطاعت الثورة المباركة في إيران متابعة هذه الثورة بكل أبعادها وامتداداتها، والارتكاز الى مبادئها وتعاليمها، وهذا ما أكده الإمام الخميني (رض) بقوله: «إن كل ما عندنا هو من عاشوراء»[2]. وبما أن عاشوراء تعني التغيير الجذري، وتحقيق المجتمع والأمة والدولة بالإسلام، فإن أي ثورة إسلامية تقتدي بالحسين عليه السلام، في الحاضر والمستقبل، لا بدّ أن تقوم بهذه المهام، لأن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٢) الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، ترجمة كاظم ياسين، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص١٦٩.

ثورة الحسين عليه السلام رفضت أنصاف الحلول، وأبت إلا أن يكون الإسلام حاكماً لكل أنشطة الإنسان في الحياة. وإذا كان تأكيد الإمام الخميني (رض) يدل على شيء، فإنه يدل على ضرورة تجاوز كل الثورات المادية، سواء أكانت اشتراكية أو رأسمالية، وعدم الركون الى ما انطوت عليه من مباديء وتعاليم، وإلى ما رفعته من شعارات، ودعت الى تحقيقه من أهداف، لأن الثورات المادية، كما ألمح الإمام، سواء العلمانية المادية، أو تلك التي رفعت شعارات إسلامية تمويهاً وخداعاً، قد شابها الكثير من الملابسات والتمويهات، بهدف تضليل القائمين بها، واستثمارهم في مشاريع السلطة لحساب أفراد أو جماعات تستغل الشعار الثوري لتحقيق أهدافها الخاصة. في حين أن عاشوراء، كما يرى السيد الخميني (رض)، كانت ولا تزال وستبقى تمثل قمة التحرك الثوري باتجاه قضايا العدل والحرية وقيم الإنسانية، مما يحتّم دائماً الاعتبار بها واستلهام معانيها، والإلتزام بكل ما دعت الى تحقيقه من أهداف نبيلة وغايات سامية. ولا شك في أن ما حققه الشعب الإيراني المسلم من انتصارات في جميع الميادين، كان بفضل التزامه واعتباره بالثورة الحسينية[1]. ولهذا، فإن الشعب الإيراني يصلح لأن يكون قدوة لجميع الشعوب الإسلامية والمستضعفة في العالم لما حققه من إنجازات على الصعد كافة. إذ أنه يكفي هذا الشعب فخراً وعزاً، انه لا توجد لا في تاريخ إيران، ولا في تاريخ الثورات، مثل الثورة الإسلامية[2].

---

(١) يقول السيد الخميني (رض): «إن الحسين عليه السلام لو لم يكن موجوداً في هذه الثورة، لما كان لها أن تتقدم، ولا يجب التخلي عن مجالس العزاء، لأننا إنما نحيا بها...». را: الاستقامة والثبات، م. س، ص١٥٦.

(٢) م. ع، ص٢٧٣.

إن الإمام الخميني (رض) استطاع بعد قرون من الزمن، بل من الانحطاط والتشتت والسقوط أمام الغرب والشرق، أن يُدخل الشعوب الإسلامية في زمان الحسين عليه السلام، وأن يدفع بها باتجاه الثورة الحقيقية، حتى يكون لها ما كان للحسين عليه السلام في حياته ومماته، وحتى لا يكون لها قدوة غير الحسين عليه السلام، ولا مدرسة غير مدرسة الحسين عليه السلام.

لقد انطلق الشعب الإيراني في أجواء عاشوراء وتعاليمها، مستفيداً من كل الظروف والمعطيات لتحقيق الانتصار، وعلى الرغم من كل العوامل التي ساعدت على ذلك، وبمعزل عما كان يسود العالم من توازنات مختلفة، فقد بقي العامل الأساسي في الانتصار، هو العامل الديني، باعتبار أن المجتمع الإيراني متميز فيما هو عليه من التزام بالاسلام، عقيدة وشريعة، إضافة الى تشبّعه بتعاليم ومبادىء الثورة الحسينية، التي كانت ولا تزال، وستبقى من أهم تعابير حركة الإسلام في الاجتماع البشري، وهذا كله ساهم، وبشكل ملفت للنظر، في بلورة مشروع الدولة والحكومة الاسلامية، الذي كان ميئوساً منه، أو غير مبرر شرعاً في كثير من النظريات، طالما ان الامام المعصوم مغيّب، الى ما هنالك من نظريات تدعو الى تعليق المسألة السياسية وعدم إقامة الحكومة[1]، وهذا ما رفضه الإمام الخميني (رض) بشدة، مؤكداً على ضرورة إقامة الدولة ونصب الحكومة، «باعتبارها الفلسفة العملية لجميع الفقه في جميع زوايا حياة البشرية، إضافة الى كونها تبلور البعد العملي

(١) الى جانب شعار فصل الدين عن السياسة، ظهر شعار آخر، وهو أكثر خطورة، يدعو الى عدم تحمّل المسؤولية، وترك الأمور الى صاحب الزمان عليه السلام، باعتبار أن الحكم قبل ظهوره باطل. انظر: الإمام الخميني، الخطاب التاريخي، ٢٢ شباط ١٩٨٩م.

للفقه في التعامل مع جميع المعضلات الاجتماعية والسياسية والعسكرية، والثقافية...»[1].

وإذا كان تبلور مشروع الحكومة الإسلامية قد تأخر في الظهور الى زمن الامام الخميني (رض)، فإن ذلك لم يكن بسبب أن المجتمع الإيراني غير مدرك لطبيعة النظام السياسي في الإسلام، أو غير مؤهّل لإقامة الحكومة الإسلامية والدفاع عنها، وإنما كان بسبب ظهور دعوات تقلّل من شأن الإسلام، وتحصر دور الفقهاء في حدود بيان المسائل الشرعية، وتقديم المواعظ والإرشادات، وهذه الدعوات غالباً ما كانت تصدر عن الاستعمار وعملائه في الداخل لإدامة النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية، وكان يوجد من بين العملاء مَن تزيَّ بزيّ القداسة البلهاء بهدف منع الشعب من التعرف على ماهية قوانين الإسلام، ولكي يحولوا دون وصول الروحانية الحقة الى السلطة[2]. وقد ذكر السيد الخميني (رض) انه كان من جملة دعوات هؤلاء، أن الدين لا يلتقي مع السياسة، وليس على الروحانية ان تتدخّل في الشؤون الاجتماعية، وليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأمة[3].

---

(١) م.ع، ص٨٢٢

(٢) يقول الإمام الخميني (رض): «ذات مرة اجتمع في منزلي: المرحوم آية الله البروجردي، والمرحوم آية الله الحجة، والمرحوم آية الله الصدر، والمرحوم آية الله الخونساري، (وهم من كابر مراجع الشيعة) للتداول في أمر سياسي مهم، وتقدّمت إليهم أن يحددوا موقفهم من المتظاهرين بالقداسة البلهاء، وان يعتبروهم أعداء من الداخل، لأن هؤلاء لا يهتمون بما يجري، ويحولون بين العلماء الحقيقيين وبين تسلم السلطة والأخذ بزمام الأمور...». را: كتاب الحكومة الاسلامية، ط النجف، ١٣٨٩هـ، ص١٣٩. وقا: أيضاً مع الخطاب التاريخي للإمام الخميني، تاريخ ٢٢ شباط ١٩٨٩.

(٣) م.ع، ص١٣٨.

إن عظمة السيد الخميني (رض) تكمن في أنه تابع مسيرة الفقهاء الأعلام، واجتهد في إقامة الدليل على شرعية إقامة الدولة والحكومة الاسلامية على أساس ولاية الفقيه العادل، وكشف عن مضمون الإسلام بكل أبعاده، نافياً أن يكون معنى الفقاهة الإكثار من الصمت!، مؤكداً على دور الفقيه والاجتهاد في الشؤون الاجتماعية والسياسية، وفي تقرير مصير الأمة، لكون ما قرره القرآن والسنّة من أحكام في شؤون الحكم والسياسة يربو على ما قرره في الشؤون الاخرى، بل إن الكثير من الأحكام العبادية في الاسلام، هي عبادية سياسية أدت الغفلة عنها الى كثير من المآسي[1].

ومثلما كان للإمام (رض) دور كبير في الكشف عن طبيعة الظروف والملابسات والتمويهات الخدّاعة في زمنه، فكذلك كان له جملة آراء ومواقف مما كانت تشهده العهود السالفة من ملابسات ومماحكات دينية وسياسية، وتحديداً في العهد الدستوري، الذي شهد صراعاً حاداً بين العلماء، وفي أوساط الشعب الإيراني أيضاً، وكانت النتيجة تعثّر المشروع الإسلامي على مستوى النظرية والتطبيق معاً، ومزيداً من الإرباك للشعب الإيراني الى حدّ انه اختار الدستور لمجرد انه يخفف من وطأة الاستبداد، ويقيّد سلطات الحاكم، في حين ان المطلوب آنذاك كان، بحسب رؤية السيد الخميني (قده)، اختيار الإسلام، والاستمرار في التعبير عنه، لأنه الأقوى حضوراً وفعالية، وينطوي على كل محاسن النظام الدستوري الحقيقي، هذا فضلاً عن أن يحول دون أن تُستغل شعارات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان للسيطرة على البلاد وثرواتها، كونه أريد للشعب في كثير من الأحيان أن يتلهّى بالشعارات وأن يختلف حولها،

---

(١) م. ع، ص٩.

بهدف صرفه عن مبادئه وأهدافه الإسلامية، وتقييده بالدستور، بدلاً من تقييد الحاكم الجائر به.

وهذا ما كشف عنه السيد الخميني (رض)، بتأكيده على أن الهدف من الدستور لم يكن حرية الشعب، وتحقيق العدالة، وتحكيم القانون، حتى يختلف العلماء والناس حوله، وانما كان يهدف الإنكليز من وراء وضعه الى أمرين: أحدهما: دحر نفوذ روسيا القيصرية في إيران. والآخر: إخراج الإسلام وطرده من ميدان التطبيق تزامناً مع استيراد القوانين الغربية وإحلالها محل قوانين الإسلام[1].

غاية القول: إن الثورة الإسلامية في إيران انتصرت وتوسعت وتعمّقت بسبب تجذّر عامل الإيمان في نفوس أبنائها، وإذا كانت هذه الثورة، فيما حققته من أهداف، قد تجاوزت ذاتها لتكون قدوة لكل الحركات والشعوب الإسلامية والمستضعفة في العالم، فإن ذلك ما كان ليتم لولا تبلور المشروع الإسلامي المتكامل على يد الإمام الخميني (رض)، الذي أزاح جانباً كل ما كانت تحفل به الساحة الإيرانية من نظريات وأيديولوجيات منافية لطبيعة التشكل الثقافي والسياسي للشعب الإيراني. فهو التزم بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم، وطمح دائماً الى أن تكون روح الإسلام سارية في المجتمع والدولة على حد سواء.

وإذا كان هناك في تاريخ الفقه الشيعي ما يمنع من إقامة الدولة ونصب الحكومة الإسلامية لما تعنيه من مصادرة لدور المعصوم ووظائفه، أو مَن يقول بحرمة إقامة الدولة لما تؤدي اليه من تأخير في ظهور صاحب

(١) را: كتاب الحكومة الإسلامية، طبعة النجف، لا ت، ص١٦.

الزمان، فإن الإمام الخميني (رض) قد تجاوز ذلك الى القول بوجوب إقامة الدولة ونصب الحكومة تأسّياً بالرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام، اللذين شكّلا الحكومة، وتزعّما إدارة المجتمع[١].

لقد صرّح الامام الخميني (قده) انه كان بالامكان إقامة الحكومة الإسلامية في أكثر من مرحلة تاريخية، باعتبار أن الظروف والأوضاع كانت مؤاتية لذلك، وخاصة في بداية حكم محمد رضا، بدليل ما أظهره الامام من تحسّر على تأخر وقوع الثورة الى زمانه، يقول الإمام (رض): «وحسرة وألف حسرة، ان هذه الثورة تحققت متأخرة، وعلى انها لم تنفجر إلا في بداية، في الأقل، حكم محمد رضا الخبيث، ولو كانت قد وقعت لما كانت إيران، «إيران المنهوبة»»[٢].

وقول الإمام (رض): «في الأقل» إشارة دقيقة الى إمكانية قيام الثورة، قبل محمد رضا أيضاً، وتحديداً في زمان انتفاضة الدستور، وثورة التنباك، ولكن كما بينّا، في أبحاثنا عن الثورة الإسلامية وقائدها[٣]، حال دون ذلك انعدام المساعي الفقهية الجادة في سبيل إقامة الحكومة، ولا شك في ان انعدام المساعي الفقهية والسياسية كان له مبرراته، التي ترتكز أساساً الى الحذر الشديد من إقامة الدولة في عصر الغيبة، والقلق الذي كان يساور أكثرية العلماء من الدخول في العمل السياسي والتصدي له،

(١) يقول الامام الخميني: «إن الرسول ﷺ استخلف بأمر من الله من يقوم بعده، وهذا الاستخلاف يدل بوضوح على ضرورة استمرار الحكومة وأجهزتها، كل ذلك بأمر من الله أيضاً. را: حديث الشمس، منظمة الاعلام الاسلامي، ترجمة رعد جبارة، ١٩٩٢، ص٢٧.

(٢) را: وصية الوداع، نشر مجلة العهد اللبنانية.

(٣) را: كتابنا فقهاء السلطة وسلطة الفقهاء عند الإمام الخميني، دار الوسيلة، بيروت، ١٩٩٧، ص١١٠ وما بعدها.

على الرغم من أن الحكم الحكومي الذي أصدره المرجع الشيرازي ضد امتياز التنباك كان كافياً لاستثمار حركة الشعب باتجاه إقامة الحكومة الاسلامية، لأن حكمه، كما يرى السيد الخميني، كان صادراً عن موقف ولاية الفقيه العامة على الناس والفقهاء الآخرين[1].

وانطلاقاً مما تقدّم، فإنا نرى ضرورة للإجابة على العديد من التساؤلات حول انتصار الثورة الإسلامية في إيران، طالما عرفنا، فيما سبق من تقديم، ان لهذه الثورة ما يميزها عن سائر الثورات في العالم، سواء من حيث الإلتزام الديني الذي قامت عليه الثورة، أو من حيث الأهداف الإلهية لهذه الثورة، أو من حيث الشعارات، أو من حيث فئات الشعب التي شاركت فيها. ومن جملة ما يثار حول إيران والثورة الإسلامية الأسئلة التالية، وهي:

ماذا كان ينشد المجتمع الإيراني من نهضته، وما الذي ميّز أهدافه عمّا كان سائداً في العالم من قيم وثقافات؟

لماذا اختار المجتمع الإيراني الحل الديني؟

كيف تمّ توعية المجتمع الإيراني بجدوى الحل الديني؟

وما هو الفارق بين الدعوة الدينية للثورة، والدعوة الدينية التقليدية السائدة؟

لماذا لم يتوقع أحد حدوث ثورة بهذه السمات والخصائص، ولماذا لم يتسنّ السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟

إن أي باحث في الشؤون الإسلامية، لا بد أن يطرح هذه الأسئلة

---

(١) را: الإمام الخميني (رض)، كتاب الحكومة الاسلامية، م. س، ص١١٦.

حول الثورة الإسلامية، ونظراً لأهمية هذه الأسئلة، فإنا سنعرض لها تباعاً، لنرى ما إذا كانت الثورة قد تجاوزت ذاتها وحققت أهدافها على النحو الذي يجعل منها ثورة متميزة في الخصائص والمميزات.

كما انه مما تقتضيه طبيعة البحث أيضاً حول الثورة ومميزاتها، أن يسلّط الضوء على بعض الحقائق التاريخية، التي لا بدّ من الإشارة اليها في سياق الحديث عن نهضة المجتمع الإيراني وتميّز أهدافه وقيمه، باعتبار أن الثورة لا تأتي من فراغ، وانما لها جذورها الإسلامية الأصيلة. ومن جملة هذه الحقائق، ان نهضة المجتمع الإيراني ليست حديثة، وإنما قديمة نسبياً فيما لو قورنت ببعض الثورات والنهضات التي قامت بها الشعوب في القرون الخالية، وهذا ما سنعرض له في أبحاثنا اللاحقة.

ثانيا: نهضة المجتمع الإيراني وتميز أهدافه

رأينا، فيما سبق، ان المجتمع الإيراني يختلف عن سائر المجتمعات فيما هو عليه من التزام ديني وخلقي. وهذه حقيقة لا يختلف عليها الباحثون في شؤون الثورة الإسلامية، والمتابعون للأوضاع الدينية والسياسية في العالم الإسلامي. ولعل من أبرز ما يمكن ذكره في هذا المجال هو دور المؤسسة الدينية في الحياة الإيرانية، منذ أن دخل الإسلام الى المجتمع الإيراني، وأخرج من ذهن الإيراني فكرة اختصاص روحانية الدين بطبقة خاصة، وكذلك فكرة الحكم الأرستقراطي أو الاشرافي[(١)]، وقد ازداد دور المؤسسة الدينية فعلاً وتأثيراً مع اتخاذ قرار التشيع والتحول

---

(١) انظر: مطهري، مرتضى، الاسلام وإيران، بيروت، دار الحق، ١٩٨٢، ص٢٣٨. ومما يذكر في هذا المجال أيضاً، ملاحظة الباحثين للعلاقة الحميمة بين الدين والسياسة في تاريخ إيران، فهذه الأخيرة قبل الإسلام تقدم صورة بارزة عن هذه العلاقة، وتحديداً في العهد الساساني، حيث كان الدين إما حام للسلطة، وإما أداة للإنقلاب عليها، ومع دخول الإيرانيين في الاسلام استمرت هذه العلاقة الحميمة، بل توطدت أكثر نظراً لما ينطوي عليه الإسلام من مميزات وخصائص جعلت من هذه العلاقة أكثر بروزاً. را: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، دار الراشد، بيروت، ١٩٨٩، ص١٢٩.

الجذري نحو المذهب الجعفري، حيث برز عامل التقليد للمجتهدين، وتنامى دور فقهاء الشيعة، وأصبحت المرجعية الدينية هي الممثلة الوحيدة للمسلم الإيراني[1]، ومما يدل على هذه الحقيقة، هو ما وصلت اليه المؤسسة الدينية في إيران من قوة واستقلال في إدارة شؤون الناس وتوجيه المجتمع ليس فقط من النواحي العقيدية والثقافية، ولكن في النواحي السياسية أيضاً.

وإذا كانت هذه المؤسسة الدينية قد تأخرت للوصول الى السلطة وحكم البلاد، فإن ذلك لم يكن نتيجة لضعفها فيما تمارسه من دور توجيهي، وانما كان نتيجة لعوامل كثيرة[2]، ولم يكن السلطان الحاكم من جملتها، لأن هذا الأخير لم يكن قادراً على مواجهتها، أو ان يحول بينها وبين الشعب، وكان دائماً يتطلع الى أن يكون في مأمن من أي قرار أو فتوى صادرة عن هذه المؤسسة، ويكفي هنا أن نشير الى حقيقة هامة جداً، ألا وهي انسجام المجتمع الإيراني مع المؤسسة الدينية لدرجة أنه كان من غير الممكن التوجه بالخطاب إلا إليها، خلافاً لما كان يجري في سائر أنحاء العالم الإسلامي من التوجه بالخطاب الى السلاطين الحاكمة. ففي الوقت الذي كان يخاطب فيه الإنسان المسلم خارج إيران من خلال السلطة والمؤسسات السياسية القائمة، كان الإنسان الإيراني يخاطب من خلال المؤسسة الدينية، بدليل ان جمال الدين الأفغاني غالباً ما كان يضطر

---

(١) يرى فهمي هويدي انه منذ تشيع إيران رسمياً في بداية القرن السادس عشر الميلادي، قدّر لها أن تصبح «مختبراً» تبلور فيه الفكر السياسي الشيعي، بحيث انتقل من حيّز الدعوة الى صيغة المؤسسة الدينية أو المرجعية، وأخيراً الى الدولة. را: فهمي هويدي، إيران من الداخل، ط٣، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٨٨، ص٥٧.

(٢) كنا قد أشرنا الى بعض هذه العوامل في مقدمة البحث.

لمخاطبة السلطان في الدولة العثمانية لتحقيق أمر ما، لما كانت عليه المؤسسة الدينية من وفاق تام ومستمر مع الدولة والسلطان، بينما هو كان يخاطب في إيران والعراق المؤسسة الدينية، كما فعل تماماً حينما خاطب المرجع الشيرازي، طالباً منه التدخل لإيقاف المؤامرة التي كانت تستهدف إيران وثرواتها[1].

إن نهضة المجتمع الإيراني، وإن كانت قد بلغت ذروتها مع انتصار الثورة الإسلامية، إلا أنها كانت قديمة، وتمكنت في أكثر من مرحلة تاريخية مرّت بها إيران، ونذكر في هذا المجال ثلاثة مراحل كان المجتمع الإيراني يعبر فيها عن انتمائه الحقيقي للإسلام، وهذه المراحل، هي المرحلة الصفوية (١٥٠١ ـ ١٧٢٢م)، والمرحلة القاجارية (١٧٩٥ ـ ١٩٢٥م)، والمرحلة البهلوية (١٩٢٥ ـ ١٩٧٨م). وفي بعض هذه المراحل كان الصراع على أشدة بين المؤسسة الدينية والسلطان الحاكم، والحق يقال: إنه لشدة ما كانت تمثله المؤسسة الدينية من حضور، وتمارسه من ضغوط على السلاطين، كان يقوم هؤلاء بالانحناء أمامها، وذلك إما خوفاً منها، وإما بدافع الحاجة إليها، كما هو الحال بالنسبة للصفويين الذين استعانوا بالعلماء الشيعة من جبل عامل وغيره لتوحيد الداخل، وتعزيز الملكية المطلقة في مواجهة ضغوط الخارج، ظناً منهم

---

(١) يقول الأفغاني في رسالته الى مراجع الشيعة، وتحديداً الى المرجع الشيرازي، «وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمنزلة الرفيعة علّة فاعلة في نفوس الناس... وإن كلمة منك تأتي بوحدانية تامة يحق لها أن تدفع الشرّ المحدق بالبلاد وتحفظ حوزة الدين... فالكل منك وبك وإليك... وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس... وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمراً...». انظر: جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق عمارة، محمد، ج٢، ص٢٧٤.

بأن ذلك يعزّز المناخ الصوفي الذي اختلط بالتشيع، ولكن، كما يقول الشيبي، ما إن وقعت الصوفية تحت تأثير فقهاء الشيعة، حتى تحولت الى تشيّع فقهي معتاد[1]، وبغض النظر عما كان يهدف إليه الصفويون من وراء ذلك، فإن فقهاء الشيعة قاموا بدورهم في نشر العلوم الإسلامية، وتحقيق المجتمع الإيراني بالاسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً، بعيداً عن التصوّف الصفوي وما يعنيه من طرائف حلولية، دون أن يسمحوا للسلطة باستثمارهم في مشروعها السياسي الخاص. وإذا كان بعض الفقهاء قد اطلع بدور خاص في الدولة الصفوية، كالمحقق الكركي، وغيره، فإن ذلك لم يكن منهم بهدف تعزيز البعد الصوفي للدولة الصفوية، أو دعم التوجه السياسي لها[2]، وانما كانت بهدف أبراز الوجه الحقيقي للتشيع، وترجمته على النحو الذي يؤدي به الى أن يكون حاكماً في المجتمع والدولة معاً[3].

---

(١) را: كامل الشيبي، الصفويون، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣، ص٢٢١.

(٢) صحيح ان المحقق الكركي قد أقرّ عملياً بسلطان الدولة الصفوية وتعامل معها بما يوحي بالاعتراف بشرعيتها، لكن ذلك لا يصلح لأن يكون معياراً للحكم السلبي على الفقهاء في تعاملهم مع الدولة القائمة، لأن الموقف الفقهي الشرعي، كما يرى شمس الدين، من هذه الدول هو عدم شرعيتها، باعتبار انها مماثلة لكل الحكومات التي قامت في التاريخ الإسلامي خلافاً لإرادة المعصوم، ولا يجوز الاعتراف بشرعيتها، وغاية الأمر في الفرق بين الحكومات التي ادّعت التشيّع وبين غيرها من الحكومات المخالفة للتشيّع، هو في درجة التعامل، وليس في طبيعته، فطبيعة التعامل واحدة، إلا أن الحكومات الشيعية كانت لا تضطهد الشيعة، فكان التعامل معها أيسر والانفتاح عليها أكبر. را: الشيخ شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي، المؤسسة الدولية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٥٤.

(٣) يشير كوثراني الى انه بقي دور الفقهاء الشيعة الذين استعانت بهم الدولة الصفوية أساسياً في نشر المذهب الشيعي في أنحاء إيران ومعهم تحولت الطريقة الصفوية الى دولة، ولم يكن ذلك ممكناً دون الاستعانة بالفقهاء الشيعة، باعتبار أن إيران =

لا شك في أن تتابع الأحداث في العهود الإيرانية الثلاثة، (الصفوي، القاجاري، البهلوي) قد أوصل الشعب الإيراني الى ذروة الوعي الديني والسياسي، ودفع به الى أن يلتمس الحلول لمشاكله الخاصة والعامة من الإسلام، وليس مما كان سائداً من نظريات غريبة عنه، أو مفروضة عليه. كما أدى به هذا الوعي الى صياغة مفردات وشعارات خاصة به تبلورت شيئاً فشيئاً الى أن بلغت تمام التميز مع الثورة الإسلامية. وإذا كان الشعب الإيراني قد وعى ما للإسلام من دور في تحقيق أهدافه، وتعزيز وحدته، فإنه لم يدّخر جهداً إلا بذله لترجمة الإسلام بكل مضامينه وأبعاده، بحيث يكون نشدان الحق والعدل والحرية والاستقلال من خلاله، وليس من خلال شعارات واهية ومزيفة تلجأ إليها الحكومات والسلاطين لإيهام الشعب بأنهم ينشدون ذلك، وقد كان الفقهاء ـ في العهود الثلاثة ـ يرشدون الناس الى زيف ادعاءات السلطة، ويحكمون عليها بعدم الكفاءة. وغالباً ما كانت تصل الأمور الى حدّ المواجهة مع السلطان، كما حصل حينما اصطدم المقدس الأردبيلي مع الشاه عباس[1]، والمرجع الشيرازي مع الشاه ناصر الدين[2]، وغير ذلك كثير

= في ظل الظاهرة الصوفية الصفوية كانت تعاني من نقص كبير في الثقافة الفقهية. را: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م. س، ص١٤٢.

(١) يذكر الشهيد مطهري ان الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩م) كان يصرّ إصراراً شديداً على مجيء المقدس الاردبيلي الى اصفهان، ولكن هذا الأخير كان يرفض دائماً، وذات مرة اصطدم به وذكره بأن قوته وعرشه لا يقومان على حق إلهي، ولا على كفاءة من جانب ملوك أسرته، كما انه كان يخاطب الشاه عباس بصاحب الملوكية العارية عباس. را: مطهري، مرتضى، الاسلام وإيران، م. س، ص٣٢٣، وقا: مع تفصيل أكثر مع فهمي الهويدي، إيران من الداخل، مؤسسة الأهرام، مصر، ص٦٠.

(٢) لقد وقع الشاه ناصر الدين عام ١٨٩٠م مع أحد البريطانيين على امتياز يعطي =

مما حفلت به الساحة الإيرانية من صراعات وصدامات بين الفقيه والسلطان[1].

إن نهضة الشعب الإيراني، وما كان ينشده من حق وعدل وحرية واستقلال، استمرت في النمو والتصاعد الى أن بلغت ذروتها مع الإمام الخميني (قده)، ولو لم يكن المجتمع الإيراني على وعي كبير بقدرة الدين والروحانية الحقة على الإصلاح، لما كان لأحد أن يتوقع أن تصل الأمور الى ذروة الإنتصار الكبير، الذي تجلّى بإقامة الحكومة الاسلامية.. مع الإشارة إلى أن ما كان ينشده المجتمع الإيراني في نهضته من حقوق وتطلعات، يمكن أن يجاب عليه من انتصار الثورة الإسلامية ذاته، لأن هذا الانتصار جسّد كل قيم الحق والخير والعدالة والحرية، وأكد لكل أصحاب الشعارات المزيّفة، ان الاسلام والعمل بمضامينه، هو وحده الذي يضمن الحرية ويحقق الاستقلال. وأدنى تأمل فيما هي عليه إيران اليوم، قياساً الى ما كانت عليه في السابق، يُظهر مدى ما للإسلام من قوة في تحقيق النهضة ضد الظلم والجور والطغيان.

لقد جسّد المجتمع الإيراني نهضته لقضايا الحق والحرية والعدل، بما هي الإسلام كله، في نموذج نهضة الإمام الحسين عليه السلام سائراً على هدى ثورته المقدسة، وتعاليمها التي كانت ولا تزال تشكل حجر الزاوية

= بموجبه حق استثمار التبغ لمدة ٥٠ عاماً مقابل ١٥ ألف جنيه استرلبني للحكومة الإيرانية، ونتيجة لنقمة الفلاحين على هذا الامتياز المجحف بحقهم أرسل الميرزا الشيرازي برقية إلى الشاه يحذّره من الاستمرار في العمل بالاتفاقية المجحفة بحقوق المسلمين، ولما لم يلقَ تحذيره أذناً صاغية أصدر فتواه التاريخية وحكمه الحكومي بتحريم التبغ، وكانت النتيجة أن أذعن الشاه وألغى الاتفاق عام ١٨٩٢م.

(١) انظر: دراسة كوثراني، الفقيه والسلطان، م. س، ص١٨٠.

في انتصار الثورة الإسلامية، وما دام الشعب على ارتباطه الوثيق مع هذه الثورة، فإنه يستمر في نهضته حتى تبلغ مداها بحيث تعمّ كل المجتمعات التي تعاني من الظلم والاضطهاد، سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية، لأنها نهضة الإنسان الطامح الى الحرية، والمؤمن بضرورة أن يتحول العالم كله الى ساحة أمن وسلام وخلاص من شرور الطواغيت.

وإذا كانت نهضة المجتمع الإيراني قد تعززت بإقامة الحكومة الإسلامية، فإن على المجتمع، كما يرى السيد الخميني (رض)، أن يتابع انتصاره بحفظ ما كان منه من التزام حقيقي بالدافع الإلهي، الذي هو ـ الى جانب الهدف السامي للحكومة الإسلامية ـ سر انتصار الثورة، وسرّ ديمومتها[1].

وانطلاقاً من هذا الدافع الإلهي، فإنه من الطبيعي جداً أن يستمر الشعب الإيراني على تميّزه في الأهداف والقيم عمّا هو سائد في العالم من أهداف وقيم وثقافات، ذلك ان ارتباط المجتمع الإيراني بالإسلام وعلاقته الوثيقة به، وانسجامه التام مع حركة النبوة والولاية في التاريخ البشري، من شأنه أن يبقي على هذه التميّز في الأهداف والقيم. وهنا تجدر الاشارة الى أن المجتمع الإيراني، رغم أنه عايش تجارب سياسية كثيرة، واطلع على ما هو سائد في العالم من قيم وثقافات، وخبر بدقة ما شهده العالم من ثورات وتحولات، وما رفع من شعارات، ورغم ما تعرّض له من محن ومظالم وآلام، فإنه استمر على ارتباطه الوثيق بأهداف الإسلام وقيمه، ولم تستهوه مفاتن الحضارات، ومخادع السلاطين، بل استمر على أهدافه المعلنة، وقيمه المعاشة، متخذاً من الإسلام نظاماً لحياته الخاصة

(١) انظر: وصية الإمام الخميني (رض)، النداء الأخير، مؤسسة الإمام الخميني(قده) الثقافية، طهران، ط١، ١٩٩٢، ص٢٨.

والعامة، ومن الأئمة الأطهار عليهم السلام نموذجاً وقدوة في القول والعمل، وهذا أمرٌ من الوضوح بمكان.

ولما كان المجتمع الإيراني قد شهد تحولات كبيرة، وصراعات دامية تراوحت بين أن يكون المهيمن على البلاد الانكليز تارة، والروس طوراً، والأميركيين، تارة ثالثة.

ولما كان الصراع على أشده بين المؤسسة الدينية والسلاطين، ولما كانت الشعارات والنظريات تتراوح بين أن تكون دستورية تارة، واستبدادية طوراً، وإسلامية ثالثة، فإن هذا التجاذب كله لم يحل دون استمرار الشعب على أهدافه المعلنة، التي تستبطن ضرورة أن يكون الإسلام هو البديل لكل ما يتشدّق به الغرب والشرق من نظريات وأيديولوجيات ما أنزل الله بها من سلطان.

وإذا كان المجتمع الإيراني في مرحلة ما قد أسقطت عليه شعارات الدستورية والديمقراطية من فوق بطريقة تكتيكية من قبل سياسيين وعلماء دين، فإن تاريخ تلك المرحلة يطلعنا على الطريقة التي تعامل بها المجتمع الإيراني مع تلك الشعارات، ويُظهر لنا ان الشعب، رغم انقسامه بين مؤيد ومعارض للدستور، استمر في تساؤله عمّا تعنيه الديمقراطية والدستورية، وما يمكن أن تحققه من تقدم؟ الى ما هنالك من تساؤلات كان الهدف منها ليس الاحتكام اليها والأخذ بها، وانما اكتشاف مضامينها ومعرفة مدى مطابقتها لقوانين الإسلام[1].

---

(١) يذكر الشهيد مطهري حول الحركة الدستورية، «ان الذي كان يعمل لأجلها لم يكن يدرك مغزاها، وكذلك الذي كان يعارضها، فلم يكن يعي ما عليه أن يعمل» وهذا ان كان يدل على شيء، فإنه يدل على عدم استعداد الشعب للتجاوب مع شعارات ونظريات تخبىء وراءها الكثير من السياسات المشبوهة، فالشعب =

إن ارتباط المجتمع الإيراني بأهداف وقيم الإسلام كان يدفع به دائماً الى الشك في كل ما كان يطرحه الاستعمار وأعوانه في الداخل من شعارات ونظريات حول العدالة، وحقوق الإنسان، ومحاربة الظلم، وهذه كلها أهداف تسعى أية ثورة صادقة لتحقيقها، لكن، كما أشرنا، وعي المجتمع الإيراني بالاسلام، واحتكامه إليه في جميع شؤون حياته، كان يجعله دائماً في حالة من عدم الاطمئنان الى طبيعة تلك الأهداف والشعارات، وقد أوضح السيد الخميني (رض) ان المجتمع سيبتلى بكثير من الألفاظ ذات المظهر الجميل من أمثال الديمقراطية والحرية وغيرها، والتي لم تتجسد في أي مكان من العالم حتى الآن[١].

وكيف كان، فإن الشعب الإيراني لم يخلو يوماً من الروحانية الحقة، التي تأخذ على عاتقها مهمة الكشف عن زيف ادعاءات الغرب والشرق في مجتمعات المسلمين، وخصوصاً إذا كانت هذه الادعاءات تترافق مع شعار الفصل بين الدين والسياسة[٢]. وبما أن الشعب الإيراني

= الإيراني سبق له أن قام بثورة التنباك سنة ١٨٩٥م بقيادة علماء الدين، وكان للحكم الحكومي الذي أعلنه الشيرازي أثره البالغ، فما معنى أن تقوم ثورة الدستور عام ١٩٠٥م، وبقيادة علماء الدين أيضاً على أساس معايير أخرى، غير ما ذكره الإمام الخميني (رض) من ان الانتفاضة الدستورية لم تسر في الطريق السليم بشكل كامل، لأنها انتهت الى تحييد العلماء، بينما كان المطلوب أن يستمر العلماء بالثورة لتكون متواصلة مع ثورة التنباك، ولهذا نلاحظ ان الامام الخميني تواصل مع ثورة التنباك ولم يتواصل مع ثورة الدستور خشية أن تصاب إيران بنكسة المؤيد والمعارض لهذا القطب أو ذاك، أو ان يتهلى الشعب بالألفاظ الجميلة الوافدة من الغرب والشرق، فكان الاسلام هو البديل والحل.

(١) انظر: الامام الخميني، حديث الشمس، منظمة الاعلام الاسلامي، ترجمة: رعد جبارة، ١٩٩٢م. ص٧٦.

(٢) يقول الإمام الخميني (رض): إن علماءنا على مرّ التاريخ لم يكونوا منعزلين عن السياسة وكانت قضية الدستور (المشروطة) قضية سياسية وتدخل فيها أكابر علمائنا=

يدرك تماماً العلاقة الوثيقة بين الدين والسياسة، فقد استحال على المستعمرين وأعوانهم في داخل إيران، إستمالة الشعب اليها، لأنه متشبع بالاسلام، عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وقادر على أن يصيغ حياته وفقاً لهذا الدين، الذي كان له أكبر الأثر في انبعاثه وتحرره، مما يعني انه لم تكن تنقص الشعب الإيراني ثقافة ان الإسلام دين كامل ومتميز فميا ينطوي عليه من أحكام وتشريعات. ولا شك في ان هذه الثقافة حالت دون تشتت الشعب الإيراني، ومكنته من بلورة مشروعه الإسلامي بعيداً عن كل نظريات وشعارات الغرب والشرق معاً.

وهذا الشعب، بمقتضىء الدافع الإلهي الحيّ، وحاكمية الفطرة السليمة لحياته الخاصة والعامة، وتحققه الدائم بالشعور الإلهي، فقد استطاع التميز فيما أعلنه من شعارات وفيما حققه من مبادىء وأهداف، كما أنه بفضل ذلك استطاع التحرر من عبودية الأشخاص، والخروج من دائرة التبعية لهذا القطب أو ذاك، ليتحول في النهاية الى مركز استقطاب وجذب بما حققه من وسطية في سياساته، ومن توازن في علاقاته الداخلية والخارجية.

إذن، المجتمع الإيراني من خلال نهضته، وما عزم على تحقيقه من أهداف، وترسيخه من قيم إسلامية، استطاع أن يتجاوز ذاته، وأن ينطلق في حدود ما يملك من طاقات وقدرات ومعارف ووضوح في الرؤية والهدف باتجاه قضايا العدل والحرية، لا في إيران وحسب، وإنما في

= وأسسوها، وكذلك قضية تحريم التنباك، وفي الفترات الأخيرة، كان السيد حسن المدرسي، والسيد الكاشاني من العلماء السياسيين. فالساحة الإيرانية لم تخل يوماً من العلماء العاملين، والهادفين الى تحكيم الإسلام في شؤون الناس الدينية والدنيوية. را: م. ع، ص٢٢.

العالم كله، لأن الروحية التي حرّكت هذا المجتمع، وجعلته في صراع دائم مع قوى الشر، لم يكن ممكناً احتواء مفاعيلها، أو الحد من انتشارها. وقد شاء الله تعالى أن تكون إيران مركز إشعاعها، ومصدر انبعاثها نحو الشعوب الاسلامية وسائر المستضعفين في العالم[1].

لقد أيقن الامام الخميني (رض) ان التجربة الثورية في إيران سيكون من آثارها الكشف عن زيف المبادىء والقيم السائدة في الغرب والشرق، هذا فضلاً عمّا ستكشف عنه هذه التجربة من محاسن ومزايا الانبعاث الإسلامي في زمن تكاد تنحسر فيه المعنويات، وتنعدم فيه الأخلاق والقيم الإنسانية، أو على الأقل تتحول الى مادة اجترار لدى الحكام والسلاطين. يرفعونها لتبرير مسلكهم العدواني اتجاه الشعب، كما كان يفعل رضا خان وخليفته محمد رضا حينما استغلاّ شعارات القيم والأخلاق والحرية «والمدنية الكبرى»، لإحكام السيطرة الاستعمارية على البلاد وثرواتها[2].

ومما لا شك فيه، ان تميز المجتمع الإيراني وثورته في الأهداف والقيم، وفي الثقافة أيضاً، ساهم، ولا يزال يساهم في إيجاد الرؤية الموحدة والواضحة حول طبيعة الصراع الدائر بين الحق والباطل، وبين الإسلام والكفر، إذ انه لم تعد هناك غشاوات تحول دون التعرف على

---

(١) انظر: وصية الإمام (رض)، النداء الأخير، م. س، ص٤٩. ورا: أيضاً الامام الخميني، في الاستقامة والثبات، م. ع ص٢٩٥.

(٢) يقول الامام الخميني: «إن النمط الذي دخل إيران من الديمقراطية والحرية والاستقلال، وكل الأمور التي وردت إيران حتى الآن من النوع الذي كان الشاه المقبور يرفع به عقيرته ويردده باسم المدنية الكبرى، فكانت مدنيته تلك التي رأيتموها، والتي دمّرت الشعب وأذاقته الأمرّين.». را: حديث الشمس، م. س، ص٧٧.

هوية المبادىء والقوانين، وكذلك القيم والثقافات والمشاريع التي يراد لها أن تتحكم بالشعوب الاسلامية لتسير وفقها وتعمل بمقتضاها بعيداً عن الروحية والمعنوية والدينية وغير ذلك مما يشكل قوام وجوهر ومضمون النهضة الدينية في إيران والعالم.

فالمجتمع الإيراني أثبت في نهضته القدرة الفائقة على الانبعاث الديني في وسط وخضمّ صراعات القيم والثقافات المادية، كما انه استطاع من مكان معيّن في الجغرافيا، ومن خلال لحظات معينة في الزمان، لا تقاس بشيء في زمان الانبعاث المادي، والتصحّر المعرفي والقيمي والروحي، أن يوجه نفسه وسائر الشعوب الاسلامية والمستضعفة، باتجاه هدف وحدوي توحيدي، هو تثبيت واستقرار القيم الإسلامية وحدها. هذه القيم التي عمل الاستعمار قديماً وحديثاً من أجل نفيها، إما مباشرة، وإما من خلال أعوانه في الداخل، لتعميم نماذجه الأخلاقية والحضارية والقيمية لتكون بديلاً للإسلام في حياة المسلمين.

لكن الشعب الإيراني في نهضته، كان على قناعة تامة بأن نجاح الشعوب الاسلامية في تحقيق الهدف الوحدوي التوحيدي في مجال الأهداف والقيم من شأنه أن يخلق الأجواء المناسبة للتحرر من قيود الاستعمار القيمية والمعرفية والثقافية المادية، مما يساعد مجتمعات المسلمين في ظل أهدافها السامية، وقيمها الروحية والمعنوية على التحول لتكون جزءاً من إدارة الصراع ضد الباطل، بدلاً من أن تكون وقوداً في صراع الباطل ضد الحق. ولهذا، فإن ما استطاع المجتمع الإيراني تحقيقه وتقديمه للشعوب الاسلامية والمستضعفة، هو انه قدم النموذج الحيّ لهذا التحرر والاستقلال عن كل تبعية واستغلال، رغم كل ما أبداه المستعمرون من استياء وتذمّر وخوف وعناد في مواجهة الانبعاث الديني للمجتمع

الإيراني، وهم لم يدّخروا جهداً إلا بذلوه للحيلولة دون انتصار هذا المجتمع، مقدمين كل وسائل الدعم لأدواتهم في الداخل الإيراني وخارجه لافتعال الأزمات المختلفة، للحد من نفوذ وامتداد هذا النموذج بكل أهدافه وقيمه، إلا أن جهودهم لم تثمر في منع هذا النموذج من التبلور ليشكل نقطة ارتكاز وجذب عن طريق تقديم نموذج للحياة الإنسانية بكل ما تزخر به من قيم وأهداف، وبريء من مساوىء الجاهلية الحديثة، وحافل بخيرات الحضارة الإنسانية التي يطمح اليها، إضافة الى انسجامه التام مع الوضعية الإنسانية الأخلاقية والروحية، وفضلاً عن ذلك كله تقديم النموذج الإسلامي للحكم، والذي لم يسبق للمسلمين أن تعرّفوا الى مثله منذ مئات السنين.

ثالثاً: الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه

وهذا العنوان يفرض علينا الإجابة على السؤال التالي:

هل يتيسر تحقيق الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه؟

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل لا بدّ من الإشارة الى شيء من تتابع الأحداث في إيران، فنقول:

إن الحديث عن النهضة الاسلامية في إيران يستدعي دائماً الأخذ بعين الاعتبار ما كانت تشهده تلك البلاد من صراعات بين الفقهاء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم إيران.

وإذا كانت المؤسسة الدينية ممثلة بالفقهاء قد ظهرت بمظهر التوافق مع السلطان، وتحديداً في العصر الصفوي، فإن كثيراً من الباحثين والمؤرخين لتلك المرحلة قد أجمعوا على أن السر الكامن وراء هذا التوافق هو الحاجة الى الفقهاء الشيعة من قبل الحكام الصفويين، لبلورة مشروع للحكم كان الصفويون عاجزين عن بلورته لما كانوا عليه من صوفية وتعبيرات شعرية وحلولية. وقد جاءت الاستعانة بالفقهاء، بحسب ما

نرى، لا لتحقيق الأهداف الاسلامية في الدولة والمجتمع، بحيث يكون دور السلطان ثانوياً أو تابعاً للمؤسسة الدينية، وانما لأجل تمتين قواعد الدولة الصفوية في مواجهة الأحداث والضغوط الداخلية والخارجية(١)، وبالتأكيد، فإنه لم يكن خافياً على الفقها الشيعة هذا الأمر، وهم إنما لبّوا الدعوة تحملاً للمسؤولية، وحرصاً على الاستفادة من فرصة كانت مؤاتية جداً لنشر العلوم الإسلامية الصحيحة وبلورتها على النحو الذي يجعلها متميزة عن الصوفية الصفوية التي كانت تسود إيران في تلك الفترة.

وانطلاقاً من ذلك، فإنه يمكن القول، بأن التعامل مع السلطان كان محكوماً لهذا الهدف، ألا وهو تعميق الوعي الديني، وإرشاد الناس الى ما ينبغي أن يكونوا عليه في الدين والدنيا، دون أن يتعدى ذلك الى الاعتراف بشرعية الحكم الصفوي، إلا بالمقدار الذي يحفظ النظام العام، ويؤمن حقوق الناس، ويحقق العدالة، ويوفر الأمن والإستقرار في المجتمع الإسلامي(٢).

---

(١) يذكر المؤرخون ان الشاه اسماعيل حاول الاستفادة من التشيّع للثورة على السلطنة العثمانية.

(٢) هناك نصوص كثيرة تظهر ان التعامل مع السلطان لم يكن يعني الاعتراف الكامل بشرعيته، بدليل انه حينما اصطدم المقدس الاردبيلي مع الشاه عباس الكبير، ذكّره بأن قوته وعرشه لا يقومان على حق إلهي، ولا على كفاءة من جانب ملوك أسرته، ولكنها تستند الى نيابة عن الإمام الغائب. وإذا أخلّ بشروط الثقة المطلوب توافرها فيمن يباشر تلك النيابة، فللعلماء حق تنحيته عن منصبه. وكذا الحال بالنسبة للشيخ الكركي، فهو لم يكن عاملاً لدى السلطة الصفوية ليكون، رهن أمرها ونهيها، وإنما كان تعامله معها واعترافه بها مرتكزاً الى مباني فقهية. وقد أشار المؤرخون الى ان الشيخ في زمن الشاه اسماعيل الصفوي نأى جانباً، وغادر إيران عام ١٥٢١م الى النجف، ولم يعد الى إيران إلا في عهد ابن الشاه اسماعيل طهماسب وفقاً لشروط اشترطها، ومع عودته نشر طهماسب أمراً ملكياً، يأمر فيه بطاعة الشيخ ويحذر من مخالفته، وقد صبغ أمره بلغة فقهية، مما يحمل =

ومع أفول العهد الصفوي، إثر غزو الأفغان لإيران عام ١٧٢٢م، ودخول إيران في زمن الفراغ[١]، ومن ثم في أزمنة التردي، التي تمثلت بالقاجار والحكم البهلوي، بدأت الأهداف تتمايز بين الفقهاء والسلاطين لتصل الى حد التناقض في كثير من الرؤى والأهداف، فبعد أن كانت هذه الأهداف تتلاقى نوعاً ما في العهد الصفوي، أصبحت في العهود الأخرى متضاربة، وذلك انما كان نتيجة لعوامل وأسباب كثيرة، منها: ازدياد التبعية للغرب، أو للشرق، مما كان يحول دون توافق السلطة مع الفقهاء في كثير من الأمور المتعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية. ويمكن أن نذكر في هذا السياق ما كانت عليه المؤسسة الدينية والفقهاء من قوة في مواجهة السلطان في العهد القاجاري، عندما احتل الروس المقاطعات الشمالية من إيران واستسلم القاجار لهم، فتحرك الفقهاء إثر ذلك بقيادة السيد محمد المجاهد، ونظموا في سنة ١٨٢٦م، حركة لمقاومة الاحتلال الروسي، وكانت النتيجة إنتصار الفقهاء على السلطان، نظراً لما كانوا يشكلونه من ثقل في الساحة الإيرانية[٢]. وإذا كنّا نحن بصدد الإجابة على

= على الظن بأن الأمر كان من وضع الكركي نفسه.. را: الشيخ جعفر المهاجر، ستة فقهاء أبطال، ط١، ١٩٩٤، ص١٢٤.

(١) لقد عاشت إيران، بعد سقوط الصفويين، أكثر من نصف قرن في ظل الفوضى والحروب المحلية حتى استولى القاجار على السلطة في عام ١٧٩٥م، وبدأوا عهداً جديداً شهد الدور السياسي الفعّال للمؤسسة الرئيسية. را: هويدي، فهمي، إيران من الداخل، م. س، ص٦١.

(٢) إن إعلان المقاومة من جانب الفقهاء، والتهديد بخلع الشاه، دفع بالروس آنذاك الى التحدث مع الفقهاء لإقناعهم بوقف المقاومة. وهذا يبين لنا مدى الثقل الذي كانت عليه المؤسسة الدينية في عهد الشاه فتح علي (القاجاري). ولئن كانت المعركة مع الروس قد أدت الى الخسارة العسكرية، وتوقيع معاهدة (تركمانشاي) سنة ١٨٢٨م، التي كرّست الاحتلال الروسي لعدة مقاطعات إيرانية، فذلك، كما يستفاد من تاريخ تلك المرحلة، إنما كانت له أسبابه الداخلية، لأن السلطان =

ما يمكن تحقيقه من أهداف في ظل نظام الشاه، فإن تاريخ إيران وما شهدته من صراعات وصدامات وثورات ضد السلاطين والأجانب، يدلل بوضوح على أن الشعب الإيراني كان دائماً يملك القدرة على التحرك بقيادة العلماء لتحقيق الكثير من الأهداف.

كما أن توالي الأحداث في ثورة التنباك، وفي ثورة الدستور؛ وانتهاءً بالثورة الإسلامية، كل ذلك يؤكد أن شعب إيران، حينما كانت تتوفر له القيادة الحكيمة، والظروف المؤاتية كان يتحرك باتجاه الثورة والتغيير والتحرر من التبعية للغرب أو الشرق، وهذا ما دلّلت عليه الأحداث، وأثبتته الوقائع في التاريخ الإيراني[1].

لقد وعى الاستعمار وأعوانه في الداخل، مدى أهمية وخطورة الدور الذي يلعبه الفقهاء في حياة الشعب الإيراني، فعمد منذ انقلاب رضا خان عام ١٩٢٤م، الى اعتماد أساليب ووسائل جديدة للتأثير على الشعب، وتشويه مبادئه. وقد تراوحت وسائل الاستعمار بين الدعم المطلق للسلطان في كل ما يحتاج إليه من أجهزة وأموال وأبواق دعائية، وبين استثمار بعض المقدسين المزيفين في ضبط إيقاع التحرك الشعبي تحت شعارات واهية ومزيفة لا تمتّ بصلة الى الاسلام ومبادئه. وهؤلاء، كما يقول الامام الخميني (رض): «تراوح وضعهم بين أن يكونوا من البطالين من عديمي الهمم، أو من الكسالى الذين يكتفون بالدعاء والثناء

= القاجاري كان متواطئاً مع الروس في المعركة. أنظر: رسالة السلطان القاجاري الى الروس. في كتاب: إيران من الداخل، م. س، ص٦٢.

(١) لا شك ان تاريخ إيران هو تاريخ الفقهاء، فثورة التنباك والدستور كانت بقيادتهم، والثورة الإسلامية المباركة، كانت بقيادتهم، مما يدلل بوضوح تام ان التاريخ الإيراني هو تاريخ الفقهاء وليس تاريخ السلاطين.

والتحدث في بعض المسائل الشرعية، أو من الداعين الى عدم التدخل في السياسة بحجة أن ذلك يتنافى ومقام المجتهد. . . »[١]، الى ما هنالك من دعوات توّجت بمقولة ان الحكم قبل ظهور صاحب الزمان باطل[٢]، وبأنه ليس علينا نصب الإمام أو اختياره، لأن ذلك مما اختص الله تعالى به.

فكلام الإمام (رض) يكشف عن انه كان يراقب الأحداث والوقائع بدقة، ويشهد الآثار السلبية لكثير من الدعوات الضالة والمضلّلة، ويرى مواطن الخلل في إدارة الأزمات في الواقع الإيراني، وفي العالم أيضاً، وهو حينما يسلّط الضوء على المراكز الدينية، وعلى فقهاء السلاطين، وعلى مَن تزيَّ بزيّ القداسة البلهاء[٣]، إنما يريد أن يبيّن لنا ان الخلل ناشىء من كون هذه الدعوات قد شقّت طريقها الى قلوب الكثيرين من الناس وعقولهم، ومن عدم تبلور مشروع إسلامي للحكم في عصر الغيبة، مما أدى الى تأرجح الشعب الإيراني خاصة، والشعوب الاسلامية عامة، بين نظريات وأفكار وشعارات مختلفة، وافدة من الغرب تارة، ومن الشرق طوراً. ولهذا، فإنا نجد الإمام (رض) يقف دائماً في مقام الثناء والشكر للشعب الإيراني لما يتمتع به من وعي وإرادة وحيوية وصبر، مبرئاً إياه من كل الاخفاقات التي شهدتها الساحة الإيرانية على مستوى الدين والسياسة معاً.

فالشعب الإيراني، شعب مفطور على التديّن، ومدرك تماماً لطبيعة المهام الإسلامية الملقاة على عاتقه. وقد أثبت في ثورات كثيرة ومتواصلة انه قادر على تحقيق أهدافه، وليس أدلّ على ذلك من تجلّي هذه المقدرة

---

(١) را: الإمام الخميني، كتاب الحكومة الاسلامية م. س، ص١٣٨.
(٢) را: الخطاب التاريخي للإمام الخميني، م. س، تاريخ ٢٢ شباط، ١٩٨٩م.
(٣) را: الإمام الخميني، الحكومة الاسلامية، م. س، ص١٣٩.

فـي تمـامهـا فـي انتصـار الثـورة الإسـلاميـة المبـاركـة بقيـادة الإمـام الخميني (رض)، رغم كل ما كان يعيشه العالم من توازنات ومحاور استقطاب كادت في زمن انتصار الثورة أن تحبس الهواء لتتقاسمه بين هذا القطب وذاك.

فالخلل لم يكن في وعي الشعب أو في إرادته، كما يستفاد من كلام الإمام، وإنما كان ناشئاً من طبيعة النظريات والأفكار والأوضاع السائدة في المراكز العلمية والدينية وغيرها، ولما تصححت هذه الأوضاع، وتبلور المشروع الإسلامي للحكم، وكشف عن زيف الدعاوى والنظريات التي عززها الاستعمار وأعوانه يوماً ما، ودعاياته، من خلال القيادة الدينية الحكيمة وعلى رأسها الإمام الخميني (رض)، خرج الشعب الإيراني ليقول كلمته الأخيرة، ويقيم الحكومة الاسلامية لأنه وعى تماماً ان التدين والأخلاق الفاضلة والمناقبية العالية التي يتمتع بها، لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا في ظل حكومة عادلة تعبر عنه في جميع شؤون حياته. وهذا ما سبق للإمام الخميني(رض) أن أكده قبل انتصار الثورة، ويوم كان منفياً الى العراق، حيث قال: «إن المسلمين في أي وقت لا يصلون الى ما يريدون من العدل، والأمن والاستقرار إلا بعد تحلّيهم بالإيمان الكامل والأخلاق الفاضلة، في ظل حكومة عادلة تتبع قوانين الإسلام، وتستغني عمّا سواه»[1].

ومن هنا، نرى ان تحقيق الأهداف السامية في ظل أنظمة الجور، لن يكون ممكناً ما دام هناك ضياع على مستوى صياغة النظرية، وتأقلم تام مع دعاة الفصل بين الدين والسياسة، كما أنه لن يكون ممكناً فيما لو تمتع الاستعمار بنفوذ قوي داخل إيران والبلاد الاسلامية.

---

(١) م. ع، ص١٤٩.

وإذا كانت هناك مساعي كثيرة، في ظل نظام الشاه في إيران، قد أخفقت في الوصول الى الهدف المنشود، فقد عزى ذلك الإمام الخميني (رض) الى تلبس الاستعمار بكل دوائر الدولة، وانتشار جهاز العمالة له في إيران على نحو أدى الى أن تكون كل جوانب وأوضاع الحياة الإيرانية مراقبة، ويضاف الى ذلك إحكام الطوق على المدارس الدينية والعلمية من داخلها وإثارة النفاق والعداوات بين الجامعيين وعلماء الدين. . وهذا الوضع، كما أسلفنا، بدأ العمل به منذ قرون، وتميّز تميّزاً شديداً في عهد رضا خان، وعهد محمد رضا[1] حيث بدأ العمل بقوة لإفساد الحياة الدينية للناس على نحو لم يسبق له مثيل، يقول الامام الخميني (رض): «لقد مرّت قرون وعملاء الاستعمار وأجهزة التربية التابعة له ودوائر السياسية تنفث السموم في أفكار الناس وأخلاقهم حتى أفسدوها. . .»[2]. وهذا ما أدى الى أن تكون المؤسسة الدينية بما تمثله من روحانية حقيقية، عاجزة عن تحقيق بعض الأهداف الإسلامية، لأن قوة السلطان في الحياة الإيرانية دفعته الى الإعلان عن جملة من الأهداف والسياسات الفاسدة لتطويع الشعب وصرفه عن مبادئه الإسلامية.

ولا شك في أنه حينما يصل الأمر الى حدّ التقاطع والتصارم بين الفقيه والسلطان، فإن أهداف احدهمالن تكون نفسها هي أهداف الآخر،

---

(١) يقول الإمام الخمني: «إن عزل علماء الدين هو من المخططات الشيطانية التي تنفذها القوى الاستعمارية منذ أمد بعيد، وفي إيران بلغت ذروتها على عهد رضا خان، وتوبعت في عهد محمد رضا بأساليب أخرى، فعلى عهد الأول كانت تنفذ على صور العنف والقمع ونزع الزي، والسجن. . اما في عهد محمد رضا، فقد كانت تنفذ بإثارة العداوات بين الجامعيين وعلماء الدين. . . را: الوصية، في كتاب، النداء الأخير، م. س، ص٥٠.

(٢) را: الامام الخميني (رض)، كتاب الحكومة الاسلامية، م. س، ص١٤٩.

وكذلك السياسات ستكون هي أيضاً مختلفة بحسب منطلقات كل منهما، ففي الوقت الذي يسعى فيه الفقيه الى تحقيق العدالة في المجتمع، وضمان الحرية للناس، واتباع سياسة الوسط في العلاقات الداخلية، والخارجية، يسعى السلطان الى خلاف ذلك، لأن حكمه وقوته وسياساته لا تنشد شيئاً من ذلك، هذا فضلاً عن أنه يكره ان تتنّور الرعية بنور العلم، وهذا ما أشار إليه الكواكبي في حديثه عن الاستبداد والعلم، إذ هو يشبه المستبد بالوصي الخائن، يقول: «ما أشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما انه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بنور العلم»[1].

وهذا الكلام يكشف عن طبيعة السلطان الجائر المستبد، ودوره الفعّال في مواجهة حركة الإصلاح في المجتمع، وقد كشفت السنن التاريخية أيضاً، عن طبيعة هذه العلاقة، بين المترفين والمستبدين من جهة، وبين الأنبياء والأولياء والصالحين من جهة أخرى، وما دام هناك حياة فإن هذا الصراع سيستمر الى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وغير خفي على أحد ان الامام الخميني (رض) سجن وعذب ونفي من إيران من قبل الشاه، لا لشيء إلا لأنه ينشد العدالة والحرية والمساواة للشعب الإيراني.

إن ميزة الإمام الخميني (رض): هي انه لم يكن بينه وبين الشاه نقاط تواصل وافتراق، كما كان الحال بالنسبة لكثير من الفقهاء مع سلاطين

---

(١) انظر: الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الإستبداد،... دار النفائس، بيروت، ١٩٨٤، ص٥٠.

زمانهم، فهو اختار القطيعة المطلقة مع السلطان، لأن هذا الأخير أعلن عن عدائه للشعب، وتواطأ مع الأعداء للهيمنة على إيران وثرواتها، هذا نضلاً عن تعامله مع أعداء الدين وتهاونه بمقدسات المسلمين، وتحديداً الكيان الغاصب لفلسطين. كما أنه تميز عن أسلافه الفقهاء بوضوح الرؤية والأهداف، فلم يقبل بأنصاف الحلول، وأبى إلا أن تكون الثورة إسلامية في جميع وسائلها وأهدافها؛ عملاً بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقيم أمر الله إلا مَن لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع»[1].

فالسؤال عما يمكن تحقيقه من أهداف وتطلعات سامية في ظل الشاه أو أي حاكم مستبد، تبقى الإجابة عليه رهن تجاوب قطاعات الشعب كافة مع الدعوة الإصلاحية للعلماء، ورهن وضوح الاهداف والخيارات الممكنة، سواء في مجال التكتيك أو في مجال الاستراتيجيا، وهذا ما حصل بالفعل مع الامام الخميني (رض) الذي استطاع، من منطلقاته وأهدافه الواضحة، ان يجمع كل فئات الشعب بمختلف طوائفه ومذاهبه وتياراته السياسية في مشروع واحد لإسقاط نظام الشاه، وغالباً ما يكون ذلك ممكناً، كما أسلفنا، فيما لو توفرت للشعب قيادات حكيمة وواعية وقادرة على كشف مواطن الخلل والضعف في حركة السلطان وأجهزته القمعية. ومن هنا، فإن ما يمكن تحقيقه من أهداف إسلامية يبقى شرطه الأساسي والضروري الى جانب القيادة الحكيمة والشجاعة، توحّد الشعب حول قضاياه وحقوقه المشروعة باعتبار أن ذلك يشرف به على النيل من الحكومة الجائرة وإلحاق الأذى بها، وهذا ما دعا إليه الإمام الخميني، حينما أكد على ضرورة ترك التعاون مع الشاه والابتعاد عن كل عمل يعود بالنفع على حكومته، على ان يقابل ذلك كله اهتماماً زائداً بالمسائل

---

(١) الإمام علي، نهج البلاغة، قصار الحكم: ١١٠.

الأخلاقية والثقافية، وبكل القيم الإنسانية لدى قطاعات الشعب باعتبارها الأساس في حركة النهضات وانتصارها[1].

إن تحكم الديكتاتورية العنيفة، وانعدام أنواع الحرية، ونمو الاستعمار في جميع جوانب الحياة الإنسانية، وخصوصاً السياسية والاقتصادية والثقافية، إضافة الى أبواق الدعاية المأجورة الداعية الى الفصل بين الدين والسياسة، الى ما هنالك من أساليب ووسائل تعتمدها الحكومات الجائرة لإظهار عدم جدوى الحل الديني. كل ذلك من شأنه ان يمنع من تحقيق الأهداف الاسلامية السامية، فيما لو انعدمت من المجتمع وسائل الرد والمواجهة، وتم القبول بها تحت عنوان مسايرة التقدم ومواكبة العصر!

ولا شك أيضاً في أنه بمقدار ما يتوحد الشعب، ويكون على وعي بأهدافه، بمقدار ما يكون قادراً على تحقيقها، وذلك كله يبقى ناقصاً وغير مجدي فيما لو لم تتوفر القيادة الحكيمة التي يبقى لها الفضل الأكبر في توجيه الشعب وإرشاده، وتحديد مراحل نهوضه، وبالتالي، في الوصول الى الانتصار الكبير، لأن الثورة، أية ثورة، وتحقيق الهدف، أي هدف، لا يكون كيفما اتفق، بل لا بد من ملاحظة الظروف والمعطيات الواقعية، إضافة الى معرفة درجة تهييء الشعب وتجاوبه مع الهدف المعلن. وهذا ما تمّ فعلاً في نهضة المجتمع الإيراني التي بلغت ذروتها في انتصار الثورة وإقامة الحكومة الاسلامية.

إن نهضة المجتمع الإيراني في مواجهة الشاه من أجل تحقيق الأهداف الاسلامية السامية، كانت تقوى وتزداد كلما كان الشاه يقدم على

(١) انظر: الإمام الخميني، كتاب الحكومة، م. س، ص١٤٥.

اتخاذ أي قرار بشأن الهوية والثقافة والتاريخ والمصير، ومما يدل على ذلك، هو أنه حاول مراراً إرجاع إيران الى عهد جاهلية ما قبل الإسلام وإحياء الشعائر المجوسية، وإماتة الشعائر الإسلامية الأصيلة، وقد كان تغيير التاريخ الهجري المحمدي الى التاريخ المجوسي مثالاً واحداً لذلك، ولكنه أخفق في التلاعب على أوتار القومية والعصبية والعنصرية، وكانت النتيجة مزيداً من التمسك بتعاليم الإسلام وقيمه[١].

كما أنه حاول تحريف الثقافة الإسلامية، وتسميتها بتسمية وهمية، هي الثقافة الإيرانية، وكان مصير محاولته الفشل أيضاً، بسبب ما أبداه الشعب الإيراني من التزام وتلاحم مع ثقافة الإسلام[٢].

لقد تيسّر للشعب الإيراني تحقيق الكثير من الأهداف السامية في ظل نظام الشاه، وكان أقل ذلك، هو أنه حال دون تمكن الشاه من تحقيق أهدافه، وهذا بحد ذاته يشكل إنجازاً مميزاً في ظل أجهزة الشاه القمعية، ووعوده الزاهية بالثورة البيضاء والمدنية الكبرى!؟

وهكذا، فقد استمر الشعب في نهضته، مقدماً أغلى ما عنده في سبيل الإسلام، الى أن وصلت الثورة الى قمة التحرك الثوري، الذي نتج عنه في النهاية وعياً شاملاً، وحرصاً شديداً على ضرورة تحقيق الانقلاب، وتحكيم الاسلام في جميع شؤون الدين والدنيا، وهذا ما أشار إليه الشهيد مطهري واصفاً حالة النهوض الشعبي العارم، بقوله: «لقد انتشرت الشعارات الاسلامية في كل إيران، ابتداءً من العاصمة وحتى أبعد قرية حدودية، ولم يطرح أحد هذه الشعارات الإسلامية على الشعب، وإنما

(١) را: مطهري، مرتضى، الحركات الإسلامية في القرن العشرين، م. س، ص٨٨.

(٢) را: م. ع، ص٨٩.

استطاع هو بنفسه أن يستوحيها من أعماق ضميره الإسلامي»[١].

وعموماً يمكن القول: إن أي مجتمع يمكنه تحقيق الأهداف وحماية القيم المعنوية في مجتمع ما، في ظل نظام طاغوتي متجبّر، لكن ذلك، كما أشرنا سابقاً، يبقى مشروطاً بوعي الشعب ومدى استعداده وقابليته لتقديم نفسه قرباناً على منحر العشق الإلهي، كما فعل الشعب الإيراني في نهضته، وكما تفعل اليوم المقاومة الإسلامية في لبنان. وما لم تكن هناك وحدة إسلامية، ووعي شامل بقضايا الحياة وبجميع الشؤون الدينية والسياسية، وبما يقوم عليه العالم من علاقات وتوازنات، فإنه لن يكون ممكناً تحقيق الهدف المنشود، لأن السلطان المستبد سيكون أقوى بكثير من مساعي الشعب، وهنا تجدر الإشارة الى أن الحكومات الجائرة، كان ولا يزال من جملة مساعيها، العمل على شرذمة الشعب وتجزئته الى مذاهب وطوائف وتيارات متناقضة لا تلتقي على هدف، لكي تحول دون اجتماع عناصر قوته، وحتى لا يكون لديه المقدرة الكافية لتحقيق النهضة المطلوبة، ومما يدل على هذه الحقيقة هو تعثر الشعوب الاسلامية، وغربتها في أوطانها، وشدة التحكم الاستعماري بها ثقافياً وسياسياً واقتصادياً، وعسكرياً أيضاً من خلال القواعد العسكرية المنتشرة في أكثر من مكان في العالم الإسلامي، وتحديداً الكيان الصهيوني في فلسطين المستغل أشد الاستغلال في تقطيع أوصال المنطقة العربية، والمؤثر على كثير من توجهاتهاالسياسية والاقتصادية والثقافية. . . الخ.

وكيف كان، فإن تحقيق بعض الأهداف في ظل نظام الشاه وإن كان له بعض الآثار الإيجابية على مستوى الحياة الإيرانية الخاصة، ولكنه لم يعط إيران دورها المميّز، لكي تكون نقطة جذب لشعوب العالم

---

(١) م. ع، ص٩٢.

المستضعف عامة والإسلامية خاصة، باعتبار أن أنموذج العدالة والحرية والاستقلال، واتخاذ الموقع الوسط في العلاقات، وغير ذلك مما تطلعت الثورة الإسلامية الى تحقيقه من مبادىء وأهداف سامية، ما كان ليعرف إلا بإقامة الحكومة الاسلامية التي ساهم تبلور مشروعها في حالة الانبعاث نحو العالم وفي تحقق الذات الاسلامية بكل أبعادها المعنوية والمادية.
وقد كان من غير الممكن بل من المستحيل على شعب إيران أن يبلغ الى هذه المرتبة الرفيعة، والدرجة السامية، والى هذا الدور الكبير في التأثير والحضور وفي رسم سياسات الوسط، فيما لو كانت إيران محكومة من قبل الشاه أو غيره، أو في ظل حكومة غير إسلامية. انها بلغت الى تلك المرتبة، ووصلت الى هذا المستوى والحضور والفاعلية بفعل الاسلام والروحانية الحقة، ولذلك يتعيّن على شعب إيران خاصة، وعلى المسلمين عموماً، كما يرى السيد الخميني (رض) بعد تأسيس الجمهورية الاسلامية بذل كامل الوسع لحفظ الأمانة الإلهية التي أعلن رسمياً حكمها في إيران[1]، لأنها امتداد لحركة النبوة والرسالة المقدسة في هذا العالم، ومن خلالها سيتم التعرف على طبيعة القيم والأهداف النبيلة التي يتضمنها الإسلام ويدعو الى تحقيقها[2].

وبما ان هذه الأهداف والقيم قد تمّ التعرّف اليها من خلال الثورة الاسلامية، رغم كل ما بذله الاستعمار من جهود لحرمان (الثورة) والدولة الاسلامية من ثمار نهضتها، فإنه يبقى على الشعوب الإسلامية أن تتماهى مع هذه الثورة، وتقتدي بشعبها ليكون لها من الحرية والعدالة، والاستقلال، ما كان للثورة الإيرانية من ذلك. إذ أنه من الطبيعي جداً أن

---

(١) را: الوصية، أو النداء الأخير، م. س، ص٢٧.
(٢) م. ع، ص٢٧.

تأخذ الشعوب وكل الحركات الإصلاحية في العالم، وبغض النظر، عما تنتمي اليه من دين، وتأخذ به من سياسات، بكل الخيوط التي تساعدها على تحقيق ذاتها، والتخلص من كل القيود والاغلال التي وضعها الاستعمار ليحول بينها وبين تحقيق أهدافها في الحرية والاستقلال. ولهذا، فإنا نجد الإمام الخميني (رض) ينصح الشعوب الاسلامية وسائر الشعوب المستضعفة، ان تتخذ إيران والجمهورية الاسلامية، والشعب الإيراني المجاهد نموذجاً وقدوة، وأن تضع حداً لممارسات الحكومات الجائرة، كما نصح الشعوب الإسلامية أيضاً بأن لا تصغي لدعايات أبواق أعداء الإسلام والجمهورية الإسلامية، فهم جميعاً، بحسب رأيه، يسعون لعزل الاسلام وإخراجه من ساحة الصراع خدمة لمصالح القوى الكبرى[1].

---

(١) م.ع، ص٤٩.

الفصل الثاني
المجتمع الإيراني وخيار الحل الديني

أولاً: معنى الدين في اللغة والإصطلاح

ثانياً: الدين في الحياة الإيرانية القديمة

ثالثاً: إيران الإسلام وخيار الحل الديني

أولاً: معنى الدين في اللغة والإصطلاح

قبل أن نتحدث عن الأسباب والظروف والعوامل التي حملت الشعب الإيراني على القناعة التامة بجدوى الحل الديني لجميع مشاكله الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. . الخ. لا بدّ من التعرف الى ما تعنيه كلمة دين، سواء من حيث اللغة أو من حيث الاصطلاح، فنقول: إن الدين في اللغة يأتي بمعانٍ عدة، تارة يأتي بمعنى الحكم والقهر، وأخرى بمعنى الخضوع والطاعة والانقياد[1]، وقد استعير، كما يقول الراغب الاصفهاني، للشريعة، ويقال اعتباراً للطاعة والانقياد للشريعة[2]، قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[3].

وإذا كان الدين يقال اعتباراً بالطاعة والخضوع والانقياد للشريعة، فإن ذلك لا يصرف الدين الى معنى خاص بعينه، بل يجعله لفظاً يدل على

---

(١) را: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، دار التعارف، القاهرة، (لا ـ ت)، مادة دين، ص١٤٦٧.

(٢) را: الراغب الاصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ـ ت)، ص١٧٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

«الشريعة» بصفة عامة، ويشهد لهذا المعنى العام في كتاب الله تعالى، قوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾[2].

إذاً، الدين هو الشريعة وطريقة الحياة المتبعة، وهذا ما كان معروفاً عن الدين في عصر ما قبل الإسلام[3]، ويرى المفسرون ان الدين في عرف القرآن يطلق على الآداب والقوانين والسنن المتبعة بصورة عامة، باعتبار أن المؤمنين والكافرين، وحتى المنكرين لله تعالى لا يخلون من دين ما، لأن كل إنسان يتبع قوانين خاصة في أعماله، سواء أكانت هذه القوانين مستندة الى نبي، أو موضوعة من قبل شخص أو جماعة ما، قال تعالى في أعداء الدين: ﴿الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾[4].

وانطلاقاً مما تعنيه كلمة دين من طاعة وخضوع وانقياد لسنن معينة في الحياة، فإننا لا نجد شعباً أو أمة، أو حضارة إنسانية، إلا وكان لها سننها وتقاليدها وأعرافها وقوانينها الخاصة بها. ومما لا شك فيه ان كل ما كانت تنتجه الشعوب والحضارات في تاريخها، كان يعبر عنه بالدين، سواء أكان حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً، وهذا ما أشار إليه القرآن حول ما زعمه فرعون لملئه من أنه على دين الحق، قال تعالى: ﴿إني أخاف أن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الكافرون، آية: ٦.

(٣) يقول الشاعر الجاهلي على لسان ناقته المتبرمة من رحيله الدائم، ومن عدم قراره في مكان:

تقول وقد درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حل وارتحال ... أما يُبقي علي ولا يقيني

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٥.

يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد[1]﴾. فالآية ناظرة الى ما كان عليه الناس من سنن وأعراف وتقاليد ومناهج حياتية متبعة في زمن فرعون. . .

وهكذا، فإن الحضارات القديمة، وكل الشعوب البسيطة كانت لها أديانها وعباداتها المختلفة، وهي إنما تمتاز عن بعضها البعض بما تقدمه كل حضارة الى سابقتها من رؤى وأفكار حول طبيعة الأرض والسماء، ومن ثم حول طبيعة الإنسان والكون والحياة والمصير، وما إلى ذلك مما يستهوي الإنسان ويجعله أكثر حيرة وارتباكاً إزاء ما يراه من مظاهر الكون والطبيعة والحياة. . . فالإنسان منذ أن انتقل من طور البداوة الى طور التحضّر، وهو يساهم بشكل فردي أو جماعي في بناء الحضارة، وإقامة أسسها، وهو من خلال بناء حضارته كان يصنع حقه وباطله، ويتعبّد بما كان يصنعه في ضوء أهوائه وغرائزه ومخاوفه، ولا شك في أنه ما كان ليفعل ذلك لولا أنه مسكون بالغيب والقدرة الخفية التي تقلب العالم من حوله، وتدفع به الى أن يلتمس الخلاص من خارج العالم الذي يعيش فيه، وقد قيل: «انه لا توجد جماعة بشرية، مهما كانت بدائية، ليس لديها أفكار عن موجودات تعلو على الطبيعة يعتمد الإنسان في وجوده عليها»[2].

ومن هنا يمكن القول: إن الدين كان ولا يزال نقطة ارتكاز أساسية في حياة الإنسان، سواء في طور البداوة أو في طور الحضارة، وإن كان هناك ثمة اختلاف بين الطورين، فإنه يعود الى تفتح ذهنية الإنسان على

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) را: دراز، محمد عبدالله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان، دار القلم، الكويت، ١٩٨٠م، ص٣٢.

معارف جديدة كانت ولا تزال تساهم في تبلور الحقيقة الدينية الثابتة.

«وإذا سلّمنا بأن الحس الديني جزء أساسي في تكوين الإنسان وانه موجود بدرجات متفاوتة عند الناس جميعاً. . . . فلا بدّ أن نسلّم بالتالي ان تفسير هذا الحس الديني قد خضع لنفس التطور الذي خضع له الإنسان، فاختلف وفقاً لمراحل كثيرة لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالإطار الثقافي الذي وجد فيه»[1].

(١) را: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، عدد١٧٣، ص٧.

ثانيا: الدين في الحياة الإيرانية القديمة

لم تكن إيران، أو فارس، كما كانت تدعي في يوم من الأيام، بدعاً من الشعوب والحضارات والدول، وانما كانت، كغيرها من البلاد القديمة، مسرحاً للتجاذبات الدينية والسياسية، وذلك نظراً لطبيعة موقعها وجغرافيتها، وقد سمح لها ذلك بأن تكون أرض تقابلات عظيمة، فهي من جهة كانت تخضع لتأثيرات بلاد ما بين النهرين واليونان، ومن جهة أخرى كانت تخضع لتأثيرات الهند والصين، وهذا ما حمل المؤرخون على القول بأن إيران تقف كجسر بين الشرق والغرب، وهي حقيقة لم تؤثر في دياناتها وثقافاتها المختلفة فحسب، بل جعلت من إيران أيضاً ملتقى روافد تاريخية عديدة[١].

فإيران دولة مترامية الأطراف، سادتها، في تاريخها، ديانات كثيرة. وكان للدين فيها، بما هو منهج وطريقة متبعة في الحياة الإيرانية، وبما هو تقاليد وأعراف وقوانين سائدة، دوراً كبيراً وأساسياً فيها، بمعنى أنه لم تكن هناك حياة سياسية أو اجتماعية، أو ثقافية منفصلة عن أعراف وتقاليد

(١) را: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، م. س، ص١١٥.

وقوانين، وقبل ذلك كله، عن طقوس دينية كان لا بد أن تتوّج أي عمل سياسي أو اجتماعي أو ثقافي يقوم به الفرد، أو المجتمع، أو الدولة في إيران القديمة.

«وكما يلاحظ الباحثون في تاريخ إيران، ان العلاقات بين الدين والسياسة كانت بارزة دائماً فيها، على الرغم من أن ظاهرة العلاقات هذه هي عامة في تاريخ الحضارات الانسانية جميعها، بيد أنها في إيران تكتسب صفة الاستمرارية والعمق عبر العصور القديمة والحديثة، فإيران، قبل الإسلام، كما يقول المؤرخون: تقدم صورة بارزة عن العلاقة الحميمة بين الدين والسياسة، فالدين كحليف وحامٍ للسلطة أو على العكس كمعارض وخصم لها، كان دائماً إما دعامة للنظام القائم أو أداة للإنقلاب عليه»[١].

ففي العهد الساساني، كانت الزرادشتية الدين الرسمي للدولة، وهذه الديانة، كما يرى مطهري، كانت تنتظم الحياة بكاملها، وترتكز اليها سياسات المجتمع والدولة كافة، ومثلها مثل سائر الديانات والحضارات الأخرى، فقد أعطت الدولة والسلطان امتيازاً إلهياً في الحكم، وأظهرته بمظهر القداسة، ووفقاً لما تميز به الحاكم الساساني من امتيازات، فقد اعتبر نفسه من عنصر سماوي، ولم يكن يرضى من الشعب بأقل من السجود خضوعاً له»[٢].

لقد تجاذبت إيران القديمة فرقاً ومذاهب دينية كثيرة، فكانت فيها إضافة الى الزرادشتية، اليهودية والمسيحية، والمزدكية، والبوذانية،

---

(١) انظر: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م. س، ص١١٥.
(٢) انظر: مطهري، مرتضى، إيران والإسلام، م. س، ص٢٢٣.

ويرى بعض المؤرخين أن تنازع الأديان والمذاهب فيما بينها قبل دخول الإسلام الى إيران، دفع بالإنسان الإيراني الى حدّ اليأس مما بلغته إيران آنذاك من تعسف ديني وسياسي، وخصوصاً بعد أن نشط فيها صراع المذاهب الدينية، وخاصة بين الزرادشتية والمسيحية على اكتساب الأكثرية الساحقة من الناس[١]. ومما يلفت النظر، ويسترعي الانتباه في إيران القديمة، أن المسيحية كانت أكثر انتشاراً من الزرادشتية فيها، وقد تعزز هذا الانتشار أكثر مع تحول الامبراطور قسطنطين من الوثنية الى المسيحية، مما كان يدفع دائماً بالدولة الساسانية الى التوحد ضد روما المسيحية لما كانت تشكله من تهديد لها[٢]. وهنا تجدر الإشارة الى أن اضطراب الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية في إيران القديمة، وعجز الفرق والمذاهب عن إيجاد الحلول المناسبة لتدهور الأوضاع، ساهم الى درجة كبيرة في تحول البلاد نحو الإسلام نجاة، وتحرراً وشوقاً وبحثاً عن دين يضمن السعادة في الدنيا والآخرة[٣]. ولعل

---

(١) يقول مطهري: «إن الدين الزرادشتي كان الدين الرسمي للدولة على عهد الساسان، ومع ذلك فإن الدولة رغم أجهزتها العظيمة لم تستطع أن تحول أكثرية الشعب باتجاه الزرادشتية، لأن المسيحية لم تكن وحدها منافسة الزرادشتية، بل كانت اليهودية والبوذية في تقدم وانتشار أيضاً...» را: الاسلام وإيران، م. س، ص١٣٦.

(٢) نشير هنا الى ما ذكره بعض المؤرخين من أنه لو لم يدخل الإسلام الى إيران، لكانت المسيحية هي السباقة الى الدخول، لتكون بديلاً عن الزرادشتية. ولا شك انه مع دخول الاسلام، خسرت الأديان الأخرى، وخاصة المسيحية، فرصتها المؤاتية للإنتشار في إيران. انظر: مطهري، الإسلام وإيران، م. س، ص٨٦.

(٣) يشير مطهري أيضاً الى أن سيرة وتعسف الزرادشتيين بالنسبة الى اتباع سائر الأديان والمذاهب تسبب في بعث الشعور بالبغض في قلوب الناس، وهذا أدى الى أن يعُدوا استيلاء المسلمين عليهم نجاة وتحرراً. ومن المسلّم به ان أكثر الذين غيّروا عقيدتهم من المجوسية الى الإسلام، كانوا قد أقدموا على ذلك بإرادتهم =

من أبرز الحقائق التاريخية والثابتة في تاريخ هذا الشعب، هو انه كان يبحث دائماً عن دين يجد فيه هويته، ويعزز من خلاله وجوده، ولم تكن تدفع به الأحداث والصراعات الدينية والسياسية بكل ما كانت تفرزه من يأس وحرمان ومآسي اجتماعية وحياتية شاملة، الى اتخاذ موقف سلبي من الدين، كل دين، لأن الشعب الإيراني، كما يستفاد من تجاربه الدينية والسياسية، كان يتحرك بدافع من فطرته، وحيثما كانت هذه الفطرة تجد نفسها، وتعبر عن مكنونها، كانت تظهر وتتلاقى وتتفاعل حتى تتشكل وتتكيّف مع المناخ الذي يسمح لها بالتشبع بالعقائد الصحيحة. وهذا ما لم تجده فطرة الشعب الإيران في الزرادشتية، ولا في المسيحية، ولا في اليهودية، ووجدته في الإسلام، وإلا كيف نستطيع أن نفسّر اكتساب الاسلام للأكثرية الساحقة من الناس تدريجياً، «بحيث اقتلع على مدى قرنين أو ثلاثة، مذاهب ماني ومزدك وبوذا من مشرق إيران وأفغانستان، وجعل المسيحية واليهودية والزرادشتية في أقلية ضئيلة»[1]؟

إن الظواهر الدينية والتحولات العميقة في تاريخ الشعوب، لا يمكن أن تفهم بمعزل عن الخلفيات النفسية والروحية والشعورية للشعوب، باعتبار أن هذه الخلفيات هي بمثابة القواعد والأسس لكل تحوّل جذري في المجتمع البشري[2]. وإذا كانت إيران القديمة قد تحولت تدريجياً وجذرياً نحو الإسلام، في وقت كانت فيه أديان أخرى أكثر حضوراً وانتشاراً، فإن ذلك يحتاج تفسيره الى الكشف عن عاملين أساسيين ساهما

= واختيارهم... را: مطهري، م. س، ص٨٧.

(١) را: مطهري، مرتضى، الاسلام وإيرن، م. س، ص١٣٦.

(٢) لقد أرشد القرآن الكريم الى هذه الحقيقة، حيث قال تعالى: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.

مساهمة فعّالة في تبلور الحياة الإيرانية بكل ما كانت تزخر به من أديان وأفكار واعتقادات. وهذان العاملان، هما:

أولاً: العامل الفطري، النفسي، الروحي، الذي كان يعيشه الإنسان الإيراني ويحثه على اكتشاف ذاته.

الثاني: ما قدمه الاسلام من نظام فكري واعتقادي جديد.

فالعامل النفسي الروحي كان دائماً موجوداً، ولكنه كان يصاب بالإخفاق ويتوارى خلف الحجب بسبب ما كانت تشهده الحياة الإيرانية القديمة من رموز وأسرار وطقوس عبادية وتحكمات استبدادية. ومع مجيء الإسلام استطاع الإنسان الإيراني أن ينطلق في البحث عن ذاته، وان يكشف عن مكامن فطرته، وكانت النتيجة دخوله في الإسلام على نحو مذهل فعلاً. وما كان ليحصل ذلك صدفة أو بطريقة عشوائية، وإنما حصل بفعل تدبّر واضح في ما جاء به الإسلام، عقيدة وشريعة ونظام حكم، وبفعل مثابرة الفطرة الإنسانية الثابتة على اكتشاف ذاتها وأبعادها، باعتبار أن الإنسان مفطور على التدين، وليس أمامه إلا تعبيرات الفطرة وتجلياتها في كل ما كان يتفاعل معه من قضايا الدين والسياسة؛ مما يعني أنه لم يكن غريباً أبداً عن الحياة الإيرانية هذا التواصل الحقيقي مع الإسلام، وهذا الربط المحكم عموماً بين الدين والسياسة قديماً وحديثاً، والذي تجلّى بقول الشاعر الإيراني:

الدين والدولة فيما أرى كخيمة قائمة بالعماد
لا الدين دون الحكم يبقى ولا حكم بلا دين يسود البلاد[1]

---

(١) انظر: مطهري، مرتضى، م. س، ص١٣٧.

ثالثا: إيران الإسلام وخيار الحل الديني

كان لا بد من التعريف بالدين، والتعرض لما كانت عليه إيران من أديان وعبادات وطقوس مجوسية، قبل أن نجيب على تساؤلات عديدة، منها: لماذا اختار الشعب الإيراني المسلم الحل الديني؟

ولماذا لم يتوقع أحد حدوث ثورة بهذه السمات والخصوصيات؟

ولماذا لم يتسنّ السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟

أسئلة كثيرة طرحها الكثيرون من الدارسين والمراقبين لهذه الثورة منذ انطلاقتها وحتى انتصارها.

ونحن في إجابتنا هذه سنركّز على السؤال الأول لما له من علاقة وثيقة مع ما تمّ بحثه سابقاً، حيث كنّا قد أشرنا الى ان الإنسان مفطور على التديّن[١]، وان أي جماعة لم تخلو في تاريخ البشرية من دين[٢]، وان الانسان على حد تعبير الفلاسفة حيوان متديّن[٣]، وان الدين من الفطرة

(١) انظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، م. س، ص٧.

(٢) دراز، محمد عبدالله، الدين، بحوث ممهدة، م. س، ص٨٢.

(٣) ذهب هيغل الى القول: بأن الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون له دين، وان =

على حد تعبير السيد الخميني (رض)[1] وطبيعة أصيلة على حد تعبير السيد موسى الصدر[2]، الى ما هنالك مما يميز حالة التدين الفطرية، عن الدين بما هو منهج وطريقة متبعة في الحياة، باعتبار أن كلمة الدين التي تستعمل في تاريخ الأديان لها معنيان لا غير.

أحدهما: هذه القوة النفسية التي نسميها التدين.

والآخر: هو تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها، أو الآثار الخالدة والروايات المأثورة، ومعناها جملة المبادىء التي تدين بها أمة من الأمم اعتقاداً وعملاً، وهذا المعنى، كما يرى الباحثون، أكثر وأغلب[3].

فالشعب الإيراني، كما أشرنا سابقاً، شعب متميز عن سائر الشعوب في العالم، وهو كان دائماً يحتكم الى فطرته، ويميل الى التعبير عنها، بعيداً عما كانت تحفل به حياته من روايات وآثار وطقوس دينية، لأن الفطرة السليمة، أو ما يمكن أن نسميه بحالة التديّن، لا بدّ أن لها دوراً

= الحيوانات تفتقر الى الدين بمقدار ما تفتقر الى القانون والأخلاق. را: هيغل، موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٤٧ ـ ٤٨.

(١) را: الإمام الخميني(قده)، الأربعون حديثاً، تعريب محمد الغروي، دار التعارف، بيروت، ط٤ ١٩٩٢، ص٢١١.

(٢) يرى الإمام موسى الصدر، ان الدين حسب رأي كبار علماء تاريخ الأديان طبيعة أصيلة في الإنسان، وليس عقدة نفسية حصلت لخوف الانسان أو عجزه أو ضعفه أو عوامل أخرى، بل تؤكد دراسات تاريخية وأثرية ان الشعور الديني يعمّ المجتمعات البشرية على مختلف أنواعها، ويمتد الى أسبق تجمعات الإنسان... را: منبر ومحراب، الدين والعلم، دار الحوراء، بيروت، ص١٤٣.

(٣) را: دراز، محمد عبدالله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان، م. س، ص١٨٢.

كبيراً في التأثير على الرؤى والتطلعات والأهداف، بدليل ان هذا الشعب في تاريخه كان دائماً يعيش حالة القلق والاضطراب، ويبحث عمّا يوفر له السعادة في حياته. ولا شك في أنه من أسرار هذا الشعب وتميزاته عن شعوب أخرى، اننا لم نشهد ولم يذكر المؤرخون أن حصل تحولٌ جذري في حياته، كما حصل لهذا الشعب مع الإسلام[1]، الذي دخل فيه أفواجاً أفواجاً دون قهر أو إجبار، بل بملىء إرادته واختياره. وقد ذكر مطهري فيما أرخ له من تاريخ إيران، انه كان لهذا الشعب قصب السبق في نشر الاسلام في بقاع عديدة من العالم عن طريق التجارة والتواصل، يقول مطهري: «إن انتشار الإسلام في الدول الشرقية والجنوبية الشرقية كشبه القارة الهندية وباكستان وكشمير وبنغلادش وتركيا وضاجكستان، والأفغان والصين، وماليزيا، وأندونيسيا، كل ذلك كان من آثار النشاط الإسلامي للإيرانيين الذين حملوا الإسلام معهم عن طريق التجارة الى أقصى نقاط آسيا وعرّفوا الأمم بالإسلام إرشاداً وتبليغاً»[2].

لقد سادت إيران القديمة، كما رأينا سابقاً، أديان ومذاهب وعبادات كثيرة من مجوسية ويهودية ونصرانية... الخ، ولم يذكر لنا المؤرخون ان الشعب الإيراني تحول جذرياً باتجاه أي دين كان، وكما ذكرنا ان الصراعات كانت على أشدها بين النصرانية والزرادشتية بهدف تحويل الشعب، بحيث تكون الأكثرية الساحقة منه تابعة لهذه الديانة، أو تلك. وهذه نقطة بارزة في التاريخ الإيراني القديم.

---

(١) يقول المستشرق المعروف «دوزي»: «إن أعظم الأمم التي غيرت دينها القديم الى الاسلام، هي الأمة الإيرانية...». را: مطهري، مرتضى، الاسلام وإيران، م. س، ص١٣٣.

(٢) م. ع، ص٨٧.

ومع مجيء الإسلام، حصل هذا التغيير الجذري باتجاه الإسلام، مما يؤكد ان الفطرة، فطرة الشعب الإيراني كان لها الدور الأساسي في هذا التحول[1]، وإلا كيف يمكن للمؤرخ أو للباحث أياً كان، وإلى أي دين انتمى، أن يفسّر هذا التحول الجذري باتجاه الإسلام؟

فالسؤال لماذا اختار الشعب الإيراني الحل الديني، سؤال قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، ولكن تنجلي غرابته حينما يتسنّى للمرء التعرف على حقيقة ومكانة الدين في الحياة الإيرانية. إذ ان الشعب الإيراني باعتراف المؤرخين أنفسهم، له امتياز عن سائر الشعوب والحضارات، لا من جهة انه شعب متدين وحسب، وإنما من جهة انه لا يرى تصادماً بين الدين والسياسة، أو بين الدين والأخلاق. وهذا الشعب ما كان لينطلق بالإسلام نحو العالم، كما أشرنا سابقاً، في التبليغ والإرشاد، لولا تيقّنه التام، بأن الإسلام ينطوي على كل ما يحتاج اليه البشر في حياتهم الخاصة والعامة. إن تشبع فطرة الشعب الإيراني بتعاليم الإسلام، جعل الأكثرية الساحقة من الإيرانيين تذوب في هذا الدين. وإذا كان الشعب الإيراني قد انطوى قلبه على هذا الحب والعشق والمعرفة للإسلام، في ظل سيادة الحياة الصوفية والشعرية وجملة الطرائق الحلولية التي كانت معاشة آنذاك، فإن هذا

---

(١) ان المطلوب في البحث التاريخي الاجتماعي والديني، هو أن نتصفّح تاريخ إيران المقارن لظهور الإسلام، وان نحقق في الأنظمة الفكرية والاعتقادية والاجتماعية والسياسية والعائلية والأخلاقية في ذلك العهد، فنقيس ذلك بما جاء به الاسلام وقدمه للأمم المسلمة ومنها إيران، كي نصل بالدراسة الى النتيجة الصحيحة. وقد رأينا، ان السبب في التحول لم يكن الغزوات أو حروب العرب المسلمين، وانما كان العامل الأصيل في ذلك نفس الجماهير الكادحة المحرومة والمتعطشة الى العدالة الحقيقية، وكما يقول تقي زاده: «إن الإسلام جاء بأصول عادلة وقوانين منتظمة» را: مطهري، م. ع، ص١٣٣.

الشعب ازداد ارتباطاً بالاسلام مع دخول التشيّع الى الحياة الإيرانية، الذي كـان مـن جملـة آثـاره إغنـاء الشعـب الإيـرانـي بـالفقـه والكـلام والفلسفـة والعرفان، والى جانب ذلك كله، بل وفي سياقه، إغناء الحياة السياسية للإيرانيين، الذين كانوا أسارى الحياة الصوفية والشعرية. وكل ذلك، بحسب ما نرى، تعود أسبابه الى تشبع الفطرة بالإسلام، والحرص الشديد لدى الشعب على ترجمتها والصدور عنها في التعامل مع جميع القضايا والأحداث، وكما يقول الإمام الخميني (قده): «عودوا الى كتاب الفطرة وتصفحوا ذاتكم لتروا ان قلم قدرة الفطرة الإلهية قد كتب فيه: ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض**﴾[1]. إنها فطرة التوجه نحو المحبوب المطلق. . . »[2].

لذا، فإن اختيار الشعب الإيراني الحل الديني لمواصلة نهضته، وتحقيق تطلعاته، هو اختيار لذاته ووجوده، وتاريخه الإسلامي الحافل بالعطاءات النورانية.

فالإسلام في الحياة الإيرانية، ليس مجرد أثر أو رواية مأثورة، وانما هو رسالة إلهية تشبّعت بها الفطرة، فأنتجت وعياً شاملاً، وبلورت مشروعاً متكاملاً، وحققت وجوداً متفانياً في طريق العشق نحو المحبوب المطلق والدائم الأزلي.

كما أنها ليست المرة الأولى التي يختار الشعب الإيراني فيها الحل الديني لتحقيق أهدافه وتطلعاته، فهناك خيار الشعب في ثورة التنباك عام ١٨٩٥م، وثورة الدستور عام ١٩٠٥م إضافة الى انتفاضات شعبية كثيرة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

(٢) را: الإمام الخميني(قد): «الأربعون حديثاً، م. س، ص٢١٤.

بقيادة رجال الدين، ومنها انتفاضة اصفهان، وتبريز، ومشهد، وكل هذه الثورات، كما نعلم، كانت تنشد الحل الديني، ولا ترى له بديلاً على الرغم مما كان يسود إيران في كل مرحلة من نظريات وايديولوجيات وضعية، هادفة الى صرف الشعب عن مبادئه وأهدافه وقيمه الإسلامية. ومما لا شك فيه ان الإسلام والتشيّع كان ولا يزال وسيبقى رحم وربيب كل الثورات على مدى التاريخ، لأن كربلاء، كما ترى الشعوب الإسلامية عامة والشعب الإيراني خاصة، هي أساس وجوهر كل تبلور وتشكّل ثوري في حاضر البشرية ومستقبلها. وبمقدار ما يتم التواصل معها، والأخذ بتعاليمها، بمقدار ما تتجلّى الشعوب وتتجوهر في التاريخ والزمان والوجود.

إن نشدان الحل الديني في حياة الشعب المسلم في إيران حقيقة ثابتة ودائمة، مهما حاول أعداء الإسلام والمسلمين أن يقللوا من أهميتها، أو التلاعب في شأنها، لأن حالة التدين، والفطرة التي فطر الإنسان عليها، هي في حالة توهج وتنوّر دائم، ولم تتمكن كل النظريات والايديولوجيات الوافدة من الغرب أو الشرق الى إيران من أن تنفذ اليها، وقد بذل السلاطين الكثير من المساعي، وقدموا الكثير من المغريات، واستوعبوا ما لا بأس به من الطاقات، الإيرانية في سبيل الحد من حالة التدين، أو على الأقل لتشويهها، ولكن مساعيهم كلها ذهبت هباءً منثوراً عند أول نداء وجهته القيادة الروحانية. وهذا إن كان يدل على شيء، فإنه يدل على مدى ما لهذه الحالة الدينية من تجذّر في الحياة الإيرانية، الخاصة والعامة.

والحق يقال: انه ليست إيران وحدها هي التي نشدت الحل الديني واقتنعت بجدواه، وانما كل شعوب الأرض اليوم، في ظل ما تعاني منه من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، تتجه نحو هذا الخيار، وقد

لحظ «صموئيل هانتغتون» هذه المسألة مؤكداً على ان زمن العلمنة بدأ ينحسر لصالح الدين[1] منذ مطلع هذا القرن، وان العالم بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، وانهيار جدار برلين، عاد ليتشكل وفق النظرية الدينية سواء أكانت إسلامية أو مسيحية، أو يهودية، أو هندوسية، ودليل هانتغتون على ما يذهب إليه، هو أن أغلب الديمقراطيات الجديدة منذ ١٩٧٠ كانت بلداناً كاثوليكية. مما يدل بطريقة ما، على ان الدين ليس عائقاً، بل محرك للدقرطة[2]. ومن جملة ما لحظه أيضاً في تبيان هذه الحقيقة، ما أشار إليه «جورج فايجل» من أن الغاء علمنة العالم، هي إحدى الحقائق الإجتماعية المهيمنة على الحياة في أواخر القرن العشرين. فإحياء الدين، كما يسميه جيل كيبل يوفر أساساً للهوية والإلتزام الذي يتجاوز حدود القومية ويوحد الحضارات[3].

والى مثل هذا ذهب الأمير تشارلز في محاضرة له تحت عنوان الاسلام والغرب، حيث أكد على ضرورة الحفاظ على الطابع القدسي والروحي للعالم من حولنا، يقول: «لقد أصبحت الحضارة الغربية مولعة بالكسب واستغلاله على نحو متزايد بما يتنافى مع مسؤولياتنا البيئية. . .

(١) صموئيل هانتغتون، صدام الحضارات، مطبعة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص١١. من جملة الأسباب التي ذكرها «هانتغون» لوقوع الصدام بين الحضارات، السبب التالي: إن عملية التحديث الإقتصادي والتغيير الإجتماعي في مختلف أنحاء العالم تنزع الناس من هوياتهم المحلية طويلة الأمد، كما أنها تضعف الدولة القومية كمصدر للهوية. وفي معظم أرجاء العالم تقدم الدين ليسد هذه الفجوة وغالباً في شكل حركات توصف «بالأصولية»، وتوجد مثل هذه الحركات في المسيحية الغربية واليهودية والبوذية، والهندوسية والإسلام.

(٢) انظر: هانتغتون، نقلاً عن: فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الاتحاد القومي، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٠٧.

(٣) را: هانتغون، صموئيل، م. ع، ص١٣.

فما أدعو إليه هو فهم أوسع وأعمق ومتأنٍّ أكثر لعالمنا. . انني أدعو الى إيجاد بُعد غيبي بالإضافة الى البعد المادي لحياتنا بغية استعادة التوازن الذي تخلّينا عنه، والذي اعتقد أن غيابه سيثبت انه مدمر في الأمد الطويل، وهذا الشعور الهام بالوحدانية والوصاية على الطابع القدسي والروحي للعالم من حولنا شيء مهم يمكن أن نتعلمه من جديد من الإسلام»[1].

انها عودة حقيقية للعالم الى الخيار الديني، لا بدافع اليأس من الأوضاع السائدة في المجتمع البشري، وانما بدافع القناعة بأن الروحانية المرتكزة الى إيمان حقيقي، هي وحدها التي تضمن خلاص البشرية، وهذا الأمر تأكد أكثر فأكثر مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وما أحدثته من تحولات في بنى المجتمع المختلفة، ومن صدى في عالم الأديان، وخاصة بعد رسالة الإمام الخميني الى غورباتشوف وتبشيره إياه بتحول الشيوعية الى متاحف التاريخ. فالثورة الإسلامية لم تخاطب المسلمين وحسب، بل توجهت الى المسيحية أيضاً[2]، ودعتهم الى النهوض الديني في مواجهة الحضارة المادية المهيمنة على غرب أوروبا وشرقها، وقد لاقت دعوة الثورة الإسلامية رواجاً واسعاً في أوروبا والعالم المسيحي، فانطلق بروحية الخير والتسامح، وإن ببطىء شديد، باتجاه قضاياه العادلة، وهذا ما أكده جيل كيبل المتخصص في شؤون الحركات

---

(١) را: الأمير تشارلز، الاسلام والغرب، ولي العهد البريطاني، ط١، ١٩٩٣، طبع في لندن، مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ص٢٠.

(٢) يقول الإمام الخميني(رض) في خطاب للشعب المسيحي: «أيها الشعب المسيحي، ويا أتباع عيسى روح الله، انهضوا ودافعوا عن شرف عيسى المسيح والشعب المسيحي، ولا تسمحوا لأعداءَ التعاليم السماوية ومخالفي الأحكام الإلهية أن يعرّفوا أمة المسيح وقساوسة عيسى لشعب العالم المستضعف بشكل سيىء». انظر: الاستقامة والثبات، م. س، ص٣٢٣.

الدينية، فيما ذهب إليه من أنه بعد سقوط جدار برلين، عاد العنصر الديني بديلاً من الشيوعية، وكانت بولونيا نموذجاً لإعادة تنصير أوروبا. . . ومن هنا، فإن إعادة التنصير هيكلت مفاهيمها حول رفض النظام الاجتماعي الظالم بالنسبة الى الفقراء، والتطلع نحو نظام جديد، أي الى مجتمع يجسد العدالة، وهذه الانطلاقة المسيحية في العالم، بعدما شهده من تحولات، جاءت نتيجة لتقييم متشائم لتقدم العلوم واستلاب الإنسان. والمسؤول هو هيمنة العقل على الإيمان، ولا بد من محاكمته كما كان يفعل اللاهوت دائماً[١].

نحن لسنا في قلق مما يثار عن إمبراطورية الشرّ الجديدة[٢]، التي يزعم البعض انها متمثلة بالحركات الإسلامية، لأنه من الطبيعي جداً أن يعاد النظر فيما تمتّ هيكلته في ظل التوازنات السابقة، والأحلاف الاستراتيجية. هذا إضافة الى ما أحدثته العلمنة من تصدعات في البنى الإجتماعية والاقتصادية والثقافية، وخاصة في البلاد العربية والاسلامية. وإذا كانت المسيحية قد ألغت ذاتها بعلمنة أهدافها قبل أن تتمكن الليبرالية من الظهور، كما يرى فوكوياما[٣]، فإنها اليوم تعود بكل قوتها لمحاكمة

---

(١) انظر: جيل كيبيل، مستقبل الأصولية، المركز العربي للمعلومات، عدد ٣، ١٩٩٣، ص٢٤.

(٢) الغرب المادي ينظر الى الحركات الاسلامية تحديداً على انها إمبراطورية الشرّ الجديدة بعد سقوط جدار برلين. وهذه ليست حقيقة، بمقدار ما هي محاولة لخلق توهم جديد يندفع الغرب وراءه لمحاربة العالم الإسلامي. فالغرب يخلق عدوه لتبرير عدوانيته ضد الإسلام والمسلمين، وكما قلنا: ان هذا المعنى لا يثير فينا القلق؛ طالما ان العالم الإسلامي يدري تماماً ما يمكن أن تسببه إعادة التشكل من مأزق، وخير دليل على هذا، هو إيران وما تعانيه من حصار إقتصادي ومن تآمر دولي.

(٣) انظر: فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ. . م. س، ص٢٠٧.

العلمنة والعولمة معاً تبعاً لمفهمة جديدة عن الدين يقوم بها العالم المسيحي، تبعاً لأشكال وصيغ مختلفة، أولها التصدي للتأويلات التقدمية التي قام بها أنصار لاهوت التحرر[1].

إذن، هناك إمبراطورية دينية جديدة تطل برأسها من كل زاوية في العالم، فلا الشنتوية اليابانية ساهية عن الطغيان الأمريكي، ولا البوذية أو الهندوسية، أو الكنفوشية، فضلاً عن المسيحية، واليهودية، والإسلام، ساهين عن استلاب الإنسان، فكل هذه الديانات نجدها غير متسامحة مع العلمنة، ولا مع العولمة المادية، خلافاً لما زعمه فوكوياما من أن بعض هذه الديانات قد تطابقت تماماً مع العديد من النشاطات العلمانية[2]؛ فهو لم يفرق بين التطابق والانحناء أمام ضغوط السياسة والقهر وحق القوة في الممارسات، واكتفي بالتأكيد على الطابع التسامحي للدين دون أن يُظهر مساوىء الاستلاب التي تفرزها الديمقراطية في العالم[3]. وقول

---

(١) را: جيل كيبيل، مستطيل الأصولية، م. س، ص٣٤.

(٢) يزعم فوكوياما ان الدين بذاته لا ينشيء مجتمعات حرة، كما أنه كان المسؤول، أي الدين، عن حركة العلمنة في الغرب، إشارة منه الى المذهب البروتستاني، ويزعم أيضاً ان الاسلام الأصولي يمكنه أن يتطابق مع الديمقراطية، ولكن يستحيل تقريباً أن يتلاءم مع الليبرالية والاعتراف بالحقوق الشمولية، لأن تأسيس الديمقراطية الليبرالية هو فعل سياسي جد عقلاني. ومن هنا نفهم، لماذا لا يراد توظيف الدين فيما يعمل على إنشائه من نظام عالمي جديد، يقوم على محركات ثلاثة وهي: التقنية والاقتصاد، والنفس الإمبراطوري فقط، دون أن يكون للدين أي أثر في حركة العولمة الجديدة. را: فوكوياما، م. ع، ص٢٠٨.

(٣) إذا كانت المسيحية قد مهدت الطريق أمام الثورة الفرنسية من خلال وضعها لمبدأ المساواة بين كل الناس على أساس مقدرتهم على القيام بخيار أخلاقي كما يرى هيغل، وأظهرت تسامحها مع العلمانية، فإن ذلك لا يبرر تحول الديمقراطية الى دين يلغي القدرة تماماً على القيام بخيار أخلاقي، وما أفرزته الديمقراطية في حياة الشعوب لا يدلل على أن الدين هو محرك الدقرطة. وإذا كان هناك ثمة بلدان =

فوكوياما: «إن أغلب الديمقراطيات الحالية تعيش من خلال موروث ديني سليل المسيحية»[1]، هو دليل ساطع على قدرة المسيحية على إعادة بلورة ذاتها لتكون جديداً، لا موروثاً، وخاصة بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، وتعثّر المشروع الرأسمالي في تحقيق الحد الأدنى من الأمن والاستقرار، إضافة الى ازدياد معدلات البطالة، وانتشار الأمراض، وغير ذلك مما تسببت به الحضارة المادية والرأسمالية من كوارث في الأنفس والآفاق.

إن نشدان الحل الديني، والاقتناع بجواه، كما رأينا، ليس حكراً على الشعب الإيراني، وإنما هو مطلب كل البشر، بمختلف أديانهم وطوائفهم، وقد تكون إيران الإسلامية، هي الباعثة على نشدان هذا الحل عند كل الشعوب الإسلامية والمستضعفة، وهي كذلك فعلاً، إذ انها أثبتت للعالم، ان الدين والتحقق به على مستوى المجتمع والدولة، لا يحول دون أن يكون هناك تطور وتقدم وازدهار[2]، بل يسمح بإقامة حالة من التوازن في حياة البشر، بحيث تبقى هناك قيم معنوية تعزز مسيرة الإنسان نحو التكامل، فلا يكون هناك طغيان للمادة على الروح، ولا للروح على

= مسيحية قد شهدت ظهور ديمقراطيات في وسطها، فذلك لا يعني ان المسيحية قد سلّمت بإلغاء نفسها نهائياً، وأعطت مقاليد أمرها للديمقراطية. وعودة المسيحية للتدخل، وممارسة النقد خير ما يدل على عدم استمرار التسامح لا مع العلمنة، ولا مع العولمة الاستلابية.

(١) انظر: فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ، م. س، ص٢٠٧.

(٢) يقول الخميني (رض): «فإذا كان المقصود من مظاهر التمدن والتطور الاختراعات والإبداع والصناعات المتطورة التي ساهمت في تقدم المدنية الإنسانية، فلا الإسلام ولا أي دين توحيدي، رفض أو سيرفض ذلك... أما إذا كان المراد من التمدن والتطور هو إطلاق الحرية لممارسة كافة الرذائل... فهذا ما ترفضه كافة الأديان السماوية... رغم ان المتغربين والمتشرقين ولانقيادهم الأعمى يروجون لذلك». انظر: الوصية الخالدة، النداء الأخير، م. س، ص١٧.

المادة بحيث يتحول الإنسان نحو الصوفية المهلكة.

لذا، فإن ما يزعمه الغرب اليوم من نظام عالمي جديد، ومن عولمة صاعدة لتفكيك ما عقدته الأديان في مجال السياسة والإجتماع والثقافة... الخ، هو زعم ليس له أي إطار منهجي أو معرفي[1]، هذا فضلاً عن كونه معارض بما تفرزه الحياة الغربية ونظمها من مساوىء في المجالات كافة. وقد يكون الخلل والتأزم في المنظومة الغربية وما تدعيه من مزاعم فارغة، ناشئاً من كون الغرب يفتقر الى محرك الدين في عولمة ذاته، وهذا ما يدفعه دائماً الى إبراز عامل القوة في علاقاته، وأنشطته لتعويض ما يفوته في مجال تأكيد الذات وتعميم انموذجه الحضاري المادي في العالم[2].

لقد نتج عن خيار الحل الديني في إيران، وما أفرزه في العالم من انبعاثات روحية ودينية، ان وضع إيران والجمهورية الإسلامية في إطار عولمة خاصة بها ترتكز الى الدين ولا تعادي الانموذج الغربي فيما انتهى اليه من إيجابيات. ومثلما نجحت الولايات المتحدة في توظيف محركات التقنية، والاقتصاد، والنفس الامبراطوري لأجل إبراز عولمتها ونظامها

(١) ان الإطار الوحيد الذي يضع فوكوياما الإسلام فيه، ويرفضه على أساسه، دعماً منه للديمقراطية الليبرالية، هو ان الاسلام يعقّد الحياة البشرية، ويتدخل في السياسة، وينظر نظرة شمولية، وهو بتعبيره دين كلياني شمولي (Totalitaire). انظر: نهاية التاريخ، م. س، ص٢٠٧.

(٢) يرى علي مزروعي ان محركات العولمة عبر الزمن أربعة، وهي: الدين، التقنية، الاقتصاد، الامبراطوريات، وقد نجحت الولايات المتحدة في توظيف المحركات الثلاثة الأخيرة، ولا يبدو أنها في وارد توظيف الأول عبر نشر دين خاص، مع العلم انها ساعدت في سيادة فكرة العلمنة، ويعتبر مزروعي ان الأمركة، على العموم، مضرة للقيم الدينية سواء وعت الأمركة ذلك أم لا. را: جريدة الحياة، ٢٤ نيسان ١٩٩٩.

الجديد، فإن إيران نجحت في توظيف محرك الدين بكل ما ينطوي عليه من أهداف وقيم وأخلاق وقوانين، لإبراز عولمتها الدينية والأخلاقية دون أن تعادي أي محرك آخر من شأنه أن يساعد على بلورة مشروعها وتحقيق ذاتها في عالم تزداد فيه التعقيدات الاجتماعية والاقتصادية... الخ.

وهكذا، فإن إيران وما اختارته من حلول دينية وأخلاقية بعد مخاضات عسيرة وأحداث دامية، يجعلها في موقع الند للعولمة المادية، التي تقطع نفسها من أسوأ مراحل التاريخ البشري لتبرز روح العدوان ضد الإنسان والإنسانية.

ليس المطلوب وفاقاً للعولمة الإسلامية توحيد الاقتصاد العالمي عن طريق إزالة الاقتصاديات والظواهر والحدود المحلية، أو عولمة الروح الاستهلاكية المبتذلة، أو الفحشاء والمنكر والبغي، وإنما المطلوب، بحسب العولمة الإسلامية التي تقودها إيران، هو تعميم تعاليم الأنبياء والأوصياء وجميع الصالحين، بحيث يكون هناك عدل وحرية ومساواة وقوانين حاكمة، وقد سبق للإسلام أن حقق هذه العولمة منذ اللحظة الأولى لظهوره على هذه الأرض، يقول الامام الخميني (رض): في تلك الأيام التي كان الظلام مخيماً فيها على الغرب وكان سكانه في أدنى مستويات الانحطاط والتوحش، وكانت أمريكا ما تزال أرض الهنود الحمر، وهي نصف متوحشة، وكانتا دولتا إيران والروم تحكمهما حكومتان مستبدتان وينتشر فيهما التمييز وانعدام المساواة وتسلّط الأقوياء... في تلك الأيام أنزل الله تعالى على نبيه جملة من القوانين التي يذهل الإنسان ويحار لعظمتها...»[1].

(١) را: الامام الخميني (قده)، كتاب الحكومة الاسلامية، م. س، ص١٣. وقا: مع ولي العهد البريطاني، الأمير تشارلز، الذي اعترف بأن الإسلام جزء من ماضي =

فإيران كانت ولا تزال تتواصل مع عالمية الإسلام في القيم والمبادىء والأهداف، وهي أخذت على عاتقها منذ البداية صياغة الأفكار الملائمة للعصر، وتأليف النظرية السياسية، التي تؤمن الحرية والاستقلال والتفاعل مع الآخر والحوار معه، هذا فضلاً عما قامت به من تقديم أفكار ومفاهيم حول ماهية الدين والدولة، وما هو ثابت ومتغير فيهما حتى لا يكون الدين مطية لأحد، وحتى لا يُتهم بأنه يعقّد كل مظاهر الحياة الإنسانية العامة والخاصة، بما في ذلك في مجال السياسة، كما ادعى فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ[1]. وكذلك الأمر بالنسبة للغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، فهو عاد ليتواصل ويتشكل وفق سوابقه المتخلفة، ونفسيته المتوحشة، كما كان في الماضي، وأدنى تأمل في أفكار الغرب ومسلكياته اتجاه الشعوب وثرواتها، وفيما هو عليه في ذات نفسه من تدهور قيمي وأخلاقي، يُظهر بوضوح تام أن هذا الغرب لا يصلح لأن يكون مركزاً أو هدفاً لأنظار الشعوب، أو معقداً لآمالها، لأن مقتضى عولمته والاقتداء بها ان تكون الأطراف كلها صورة عنه، وهذا ما لا يصلح له إلا الإسلام، كونه سبق لهذا الدين أن علّم البشرية طرق التعايش والتفاهم، وقدّم لها رؤيته العالمية، وهذا هو مفاد ما ذكره ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز في كلامه عن الإسلام والغرب، حيث رأى ان الاسلام علّمنا طريقة التعايش والتفاهم مع العالم، وهذا ما فقدته المسيحية مما أدى الى ضعفها، وفي جوهره يكمن الحفاظ على تلك النظرة المتكاملة للكون. فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، وبين

= أوروبا وحاضرها في جميع مجالات البحث الإنساني، وقد ساهم في إنشاء أوروبا المعاصرة. . . الاسلام والغرب، م. س، ص١٩ .

(١) انظر: فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ، م. س، ص٢٠٧ .

الدين والعلم، وبين العقل والمادة كما انه يحافظ على نظرة غيبية وموحدة للبشر وللعالم من حولهم[1].

إن الاسلام وحده هو الذي يصلح لأن يكون مركزاً للعولمة، ومصدراً لها، وحركة الاسلام في التطبيق التاريخي أثبتت ذلك، رغم كل السلبيات السلطانية التي أحاطت به في القرون الوسطى الإسلامية. لقد أعلنت السنّة الشريفة ان الأرض كلها مسجد، وهكذا مبدأ، كما يقول العلواني، يزيل القدسية أو الشعور بالتفوّق والعلوّ في أي مكان من كوكبنا، تجاه أي مكان آخر[2]. فهو دين المساواة والحرية والعدالة، والقانون، ومقتضى عولمته ان تتحول البشرية الى مظاهر قيميّة، وتعبيرات روحية، تتوازن في ظلها الحياة الإنسانية، وتبتني على أساسها ثقافات الشعوب وحضاراتها.

(١) را: انظر: الأمير تشارلز، الاسلام والغرب، م. س، ص٨١٩

(٢) را: جابر العلواني، المركزة والعولمة، ملخص محاضرة، جريدة الحياة، تاريخ ٢٤ نيسان ١٩٩٩.

الفصل الثالث
الإمام الخميني وثقافة عاشوراء

تمهيد:

أولاً: دور الإمام الخميني في إحياء ثقافة عاشوراء

ثانياً: الإمام الخميني والموقف من الثقافة المضادة

ثالثاً: دور الأئمة عليهم السلام وامتداد عاشوراء

تمهيد للبحث

من العلامات المضيئة والدامية في تاريخ الإسلام والمسلمين ثورة كربلاء، التي هي خط ومنهج وأسلوب لا بدّ للأمة أن تعتمده في سبيل تحرير نفسها من أنظمة الجور، ولا أحد يدري ماذا كان سيحصل لو لم تقع هذه المعركة غير المتكافئة بين الإمام الحسين عليه السلام والنظام الأموى، بل ندري ان عدم وقوعها كان سيمنع الأمة من أن تكون حيّة في تاريخها وحركتها من أجل الحياة الحرّة، بعد أن ذاقت طعم الحياة والحرية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. انها محطة في تاريخ هذه الأمة، ومدرسة لا بد من التعلم فيها، وعدم الوقوف عندها يستدعي حتماً التخلف عن مسيرة الحياة والحيرة والاضطراب، كما انه يُفضى الى مزيد من التشرذم والضعف والانحلال، ويوقع الأمة فيما لا تحمد عقباه، ويمنعها من تحديد مصلحتها الدنيوية فضلاً عما تبحث عنه من خلود وتحقق في الدار الآخرة.
فالإمام الحسين عليه السلام لم يقم بهذه الثورة من أجل الخلود فقط وتحقيق نفسه على مستوى الشهادة ليكون سيد شباب أهل الجنة، بل هدف من وراء ثورته إيقاظ الأمة من سباتها وتعريفها بنفسها، وهدايتها الى السبل التي تنتهي بها الى الفوز بالدارين في الدنيا والآخرة. فالخيار كان خياراً للأمة

وإن لم تكن واعية له وعارفة به، وهذا ما دفع بها في النهاية الى تبنّي الثورة والقيام بها.

إن الإمام الحسين أحيا الأمة في لحظة موتها، وعليها أن تعمل من أجل إحياء نفسها في جميع لحظات حياتها من خلال تلك اللحظة التي ندمت على الغفلة فيها، لحظة ترك الحسين عليه السلام وحيداً مع قلة قليلة في مواجهة الباطل، بحيث تتذكر دائماً ان ما قاتل الإمام عليه السلام من أجله، ونعني الإسلام، هو في الزمان، وعلى الأمة أن تكون دائماً جاهزة وواعية ومستعدة للقتال من أجله، باعتباره مشروعاً إلهياً يحمل الحياة للناس أجمعين. ومما لا شك فيه ان الامام الخميني (قده) ما كان ليقدر على التحرك والانتصار لولا أنه تيقن من قدرة الأمة ووعيها وحضور الحسين عليه السلام وفاعلية ثورته في حياتها، لقد عرف كيف يستثمر استعداد الشعب المسلم لإقامة حكم إسلامي واقعي في عصر الغيبة، بعد أن أخفق من سبقه في هذا الأمر تحت شعارات شتى كان ولا يزال من جملتها عدم السعي لإقامة حكم إسلامي في عصر الغيبة من منطلق ان إقامة هذا الحكم تجعل من ظهور الامام الحجّة عليه السلام أمراً عبثياً لا قيمة له.

لقد برهن الإمام الخميني (قده) من خلال ثورته ان شعباً يعيش الإسلام في حياته الخاصة والعامة، ويعي حقيقة الرسالة وتاريخ الأنبياء والرسل، لا بد أن يترشح عن وعيه ومعرفته الحكم الاسلامي الذي يقضي بأن يكون الحكم لكتاب الله وليس للقوانين الوضعية التي تفضي في النهاية الى أن يكون القانون في خدمة أصحاب السلطة والمال. وبرهن الإمام أيضاً أن الاقتداء بالإمام الحسين عليه السلام واستلهام معاني ثورته وتعاليم مدرسته، هو وحده الذي يجعل الأمة متواصلة مع تاريخها وتاريخ الأنبياء والرسل. وقد رأى الإمام الخميني (قده) أن الذين يدعون الأمة إلى عدم

الخروج على أنظمة الجور، وعدم السعي لإقامة حكم الإسلام في الأرض، هم بذلك يعملون على إخراج الأمة من تاريخها، ويمنعونها من استلهام معاني الثورة على نحو يمكن الأمة من ترجمتها والاستفادة منها في مواجهة الباطل وأهله.

إن الإمام الخميني (قده) خاطب الأمة بلغة عاشوراء، ودفع بها الى تحقيق نفسها من خلال هذه الثورة على جميع المستويات، وهذا ما أعطى الأمة حيويتها وجميع أبعادها. والحق يقال: ان ما حصلت عليه إيران هو بمثابة جائزة على وعيها وشعورها وحقيقة التزامها بالثورة الحسينية ومبادئها وتعاليمها الحية، وكما يقول الإمام الخميني (قده): إن عاشوراء هي علة كل ما يبحث عنه الإنسان من حرية وكرامة وقداسة واستقلال، كالإمام الحسين عليه السلام الذي هو علة بقاء الإسلام حياً ومتحركاً وفاعلاً في حياة الشعوب الى يومنا هذا. ومهما بلغ الوعي الشعبي وتبلور، فإن أية ثورة لا يمكن أن تنجح إذا لم يكن للأمة علة تحركها، ومبادىء تستلهمها وتدفع بها الى التحرك باتجاه الهدف، وهذا ما يمتاز به المذهب الإمامي عن غيره من المذاهب. إذ انه يعتقد بوجود العلة الحية والفاعلة التي هي سبب كل انتصار وتحرر، ومما يدل على هذه الحقيقة ان الشعب المسلم في إيران لما استوفى شروط الثورة، وتعمق فهمه للثورة الحسينية، واتخذ منها دليلاً ونبراساً، استطاع أن يتحرك وينتصر على الطاغوت، قناعة منه بأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن ثورة في الخيال، أو نزوة يدفع اليها حب السلطة والجاه فقط، بل كانت سبيلاً للتحرر والحياة، ودليلاً في وسط الظلمات.

فما قام به الإمام الخميني (قده) وانتهى إليه، أثبت ان مبادىء الثورة الحسينية ليست خارج الزمان، ولم تكن طفرة أنتجتها ظروف خاصة، بل

هي شيء في الزمان تحيا وتتفاعل مع الروحانية الممثلة للرسالة والأمينة عليها في عصر الغيبة، وبناء على ذلك، فإن الدعوة الى عدم ترجمة هذه الثورة حيث يمكن ذلك، هي في الحقيقة دعوة الى تجاهل مبادئها وتعاليمها وإفساح المجال أمام أئمة الباطل كي يفسدوا في الأرض، وما حققه الإمام الخميني في إيران والعالم هو أمل المعصوم وجميع أنبياء الله ورسله، خلافاً لما يذهب اليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية بعدم جواز الخروج على الجائر وإقامة الحكومة الاسلامية. وسنرى في هذا البحث كيف خرج الإمام (قده) على المواقف الفقهية القديمة الداعية الى ذلك، والمبررة لحكم الطاغوت أثناء غيبة الإمام الحجة عليه السلام.

أولاً: دور الإمام الخميني في إحياء ثقافة عاشوراء

مما ينبغي الإشارة اليه هو ان الامام الحسين عليه السلام لم تكن ثورته لحظة زمانية منقطعة عن اللحظات التي سبقتها أو التي ستلحق بها، بل هي امتداد لثورات الأنبياء عليهم السلام، ومثلما ان حركة الأنبياء كانت من أجل نشر الدعوة وهداية العباد، فكذلك حركة الإمام الحسين عليه السلام الذي لم يتوانَ عن حماية العقيدة والشريعة من سوء التأويل والتحريف على الرغم من تخلّف الأمة عنه، وهذا ما أعطى الثورة أبعادها في الزمان والمكان، وجعل منها محطة ومدرسة تعلم الناس معنى ان يكون عباداً لله تعالى وأحراراً في دنياهم. انها ثورة لها أثرها وقيمتها ووقعها على مطلق الزمن، وكونها كذلك لا يمكن اعتبارها ماضياً لا قيمة له، وانما هي متحققة في مطلق الزمان لما تمثله في جوهرها، ولما تعنيه في حركتها لجهة ان الذين قاموا بها لم يكونوا أناساً عاديين حتى تكون ثورة عادية، وقد علمنا الأئمة عليهم السلام ان عاشوراء حدث لا يمكن استحضاره لذكرى فقط بمعزل عن آثارها العملية وأبعادها الوجودية والروحية، بدليل ان فعل المعصوم يرسم خطوطاً عامة، وأحياناً تفصيلية توجه حركة الإنسان وتمنعه من أن

يكون مرشداً لنفسه في خضم الأحداث المظلمة التي لا قدرة له على الولوج اليها أو التحكم بها. فالإمام الحسين عليه السلام هو أحد الأئمة الذين ثاروا ضد الظلم، ومن أجل كرامة الإنسان وحريته، وهذا الأخير ملزم بقراءة التاريخ بكل ما فيه من تجارب واحداث حتى يتمكن من إيجاد الشروط الملائمة والمناسبة لحركته؛ وإلا كان كمن يخبط خبط عشواء لا يدري ما يفعل أمام أي حدث سواء أكان صغيراً أم كبيراً.

إن الإنسان الذي يدفع به الحدث الى أن يكون منفعلاً به، وامامه، لا يمكنه الوصول الى الهدف الذي ينشده. ومن هنا كان لا بد من قراءة الواقع بدقة ورصد المستقبل والإحاطة بالحدث من كل جوانبه للإلمام بطبيعته ومعرفة الوسائل التي يمكن اللجوء اليها لاحتوائه والاستمرار به، بمعنى آخر نقول: إن الإمام الخميني (قده) عرف كيف يقرأ الواقع ويرصد المستقبل، قراءة مكنته من إحياء ثقافة عاشوراء، ومن إحداث تحولات تاريخية ظن البعض انها مستحيلة، ولا قدرة لأحد على إحداث هذا التحول لما كان يحيط بالمنطقة من أعداء يسعون الى السيطرة على إيران والمنطقة العربية والإسلامية بكاملها. لقد تجاهل البعض حقيقة الشعب المسلم في إيران، وحاول ابتداع ثقافة جديدة بديلة لثقافة عاشوراء تمكن الأعداء من الوصول الى أهدافهم، ويكفي أن نقول ثقافة بديلة لها من خلال الفصل بين الأئمة والتمييز بينهم في أقوالهم وأفعالهم وأهدافهم، حيث رأوا ان ثورة الحسين عليه السلام غير ممكنة في عصر الغيبة الكبرى معللين ذلك بلجوء الأئمة من ولد الحسين عليه السلام الى القبول بالأمر الواقع ومهادنة الأنظمة الجائرة والتعاون معهم وغير ذلك مما لا يمكن فهمه إلا على ضوء الظروف التي استدعته وفرضته، غافلين، وأعني الذين يذهبون

الى الفصل بين الأئمة، عن أن ثورة الإمام الحسين عليه السلام ودوره، هي في الحقيقة ثورة كل الأئمة، لأنهم لم يروا ضرورة لهذه الثورة بنفس الوسيلة، بل عمدوا الى الثورة بوسائل أخرى تؤدي الى النتائج المرجوّة، باعتبار ان الهدف كان ولا يزال هو حفظ الإسلام وحمايته من سوء التحريف، وليس صحيحاً ما ذهب اليه البعض من أن الأئمة من بعد الإمام الحسين عليه السلام اختاروا الزهد والعبادة على أن يكونوا حكاماً سياسيين، لأنه ليس من شروط السياسة أن يكونوا حكاماً، لما يذهب اليه علماء اللغة في تعريف السياسة من أنها تعني الرعاية والتدبير والهداية، وقد يكون ذلك في داخل السلطة وقد يكون خارجها. والأئمة عليهم السلام وإن لم يتمكنوا من سياسة العباد من خلال الحكم والسلطة، فقد كانوا من خارج الحكم يسوسون الناس، ويرعون شؤونهم، ويدبرون أمورهم على أفضل ما يمكن ان تكون عليه السياسة، حتى ان الحكام الجائرين لم يكونوا مستغنين عن تدخّل الأئمة في أمور عجزوا عن حلها أو النظر فيها؛ كما سنذكر في أبحاث لاحقة.

فالإمام إمام سواء أكان حاكماً أم لم يكن، وما يقال بالنسبة للمعصوم يمكن أن يقال للفقيه في عصر الغيبة، كونه امتداداً له وينسحب عليه ما ينسحب على الإمام لجهة حفظ الرسالة وحماية الوحدة وتطبيق الشريعة خلافاً لما يذهب اليه البعض من الفقهاء والباحثين من ان الثورة على الظلم والجور غير جائزة ومخالفة للشريعة، وهذا البعض يقسم التاريخ الى ثلاثة مراحل، وهي: الأولى، مرحلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والثانية: مرحلة الأئمة عليهم السلام، والثالثة: مرحلة عصر الغيبة التي يظن البعض أنها مرحلة غياب الشريعة وتعطيل الأحكام، والاعتراف بحاكمية الجور، وهؤلاء لا يجيزون الثورة، لأن الأئمة من بعد الإمام الحسين عليه السلام لم

يثوروا وهادنوا السلاطين وتعاونوا معهم، ومنهم، كمايقول البعض، من رضي بولاية عهد المأمون كالإمام الرضا عليه السلام. وبعد الأئمة، يرى هذا البعض ان كل شيء غير ممكن بانتظار الإمام الحجة عليه السلام الذي إليه أوكلت مهمة حماية الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية. ولا شك في ان هذه الآراء كانت ولا تزال تهدف الى إطفاء شعلة الثورة ضد الظلم وإماتة روح الجهاد عند كافة المسلمين، في مقابل ذلك خرج الإمام الخميني (قده) معلناً ضرورة الاستفادة من تعاليم عاشوراء، من أجل صياغة الحياة الإسلامية في ضوئها، مؤكداً على أهمية السعي لإقامة الحكومة الإسلامية والدولة الإسلامية، بحيث تكون هذه الأخيرة نتيجة حتمية لإحياء ثقافة عاشوراء في المجتمع، وكانت النتيجة قديماً وحديثاً ان انقسم الفقهاء بين مؤيد لإقامة الحكومة الإسلامية وبين رافض لها، وبين داع الى إقامة حكومة ديمقراطية دستورية تستلهم بعض دساتير الغرب، وقد بيّن الإمام الخميني (قده) ان المواقف الداعية الى الديمقراطية والداعية الى عدم السعي لإقامة الحكومة الإسلامية كلها لا يمكن أن تكون من الإسلام في شيء، فضلاً عن ان تكون من عاشوراء في شيء، لأنها تدعو الى تعطيل أحكام الله في عصر الغيبة، وهذا يمنع أن تكون عاشوراء امتداداً للنبوة ويجعلها حكراً على مرحلة زمانية معينة.

لقد رأى الإمام الخميني، ان الموقف الفقهي الداعي الى عدم الثورة، وبالتالي الى عدم إقامة الحكومة الاسلامية، هو موقف يصطدم مع ثورة عاشوراء وثقافتها، لأن هذه الثورة كان من جملة أهدافها إقامة حكم الله في الأرض، وقد خرج الإمام الخميني (قده) على هذا الموقف معتبراً إياه من المواقف المعطلة لأحكام الله، داعياً الى استلهام مبادىء الثورة

وثقافتها وجميع عناوينها في مواجهة الظلم، بحيث يكون للثورة امتدادها على طول الزمان والمكان. وبذلك فقط يصح قولنا ان الامام عليه السلام هو قدوة حسنة لنا نقتدي به ونستضيء بعلمه في تحرير أنفسنا وتحقيق وجودنا من خلال تحكيم أمر الله تعالى، الذي يقضي بأن يكون الناس أحراراً في دنياهم، ومستعملين فيما يرضى الله ورسوله، لا أن يكونوا عصاة لأمره، وعباداً للشيطان الذي يعدهم ويمنّيهم ولا يعدم الشيطان إلا غروراً.

هذا ما استفاده الإمام الخميني (قده) من ثورة الإمام الحسين عليه السلام ان تكون الثورة الحسينية ممتدة في الزمان، وملحوظة في حركة الإنسان، كما في سكونه، باعتبار ان القائد الذي ينهل من مَعين هذه الثورة لا يسعه إلا ملاحظة الواقع وصناعته على ضوء الرسالة الإسلامية، التي تحتم أحياناً ان يكون الشعب ثائراً ومقدماً الغالي والرخيص في سبيل الله... ومن أجل تحقيق الذات على مستوى السياسة والوجود. لقد أثرت عاشوراء في الامام الخميني (قده) الى درجة مكّنته من صياغة موقف واحد يجمع الأمة كلها حول مبادىء الثورة الحسينية، وهذا الموقف الرافض للمساومة والمهادنة، هو الذي أخرج إيران مما كانت فيه، من التبعية والعبودية، وأدخلها في عالم آخر هو عالم الوسطية والشهادة..

لم يرد الإمام الخميني للثورة الحسينية ومبادئها أن تكون مبعثاً للفخر والبكاء، دون أن يكون لهذا الفخر والبكاء أية أبعاد عملية، بل أراد لها أن تنعكس في الواقع، وان تترجم فيه، بحيث يتمكّن الشعب من سياسة نفسه على ضوء تعاليمها، ولا يضير ان تكون الأمة باكية على المصاب الجلل فيما لو كان بإمكانها أن تعبّر وتقتدي بما يخرجها من الظلمات الى النور، يقول الإمام الخميني: «ليس الموضوع موضوع

البكاء بل هو موضوع سياسي فقد أراد الأئمة بهذه الرؤية أن يعبئوا الأمم وينهضوها نهضة رجل واحد حتى لا يكونوا محلاً لتلقي الصدمات»[1].

إن الإمام الخميني (قده) علم الأمة بكاء الفعل وليس بكاء الإنفعال، وأي فعل هذا أعظم من فعل الثورة والتغيير في النفس والواقع. انه بكاء من نوع آخر يمكن الأمة من استحضار عاشوراء نظرياً وعملياً ويدفع بها الى الاستقلال. ومن يتأمل في نصوص الإمام الخميني يدرك مدى اهتمام الإمام بمجالس العزاء والمحافظة عليها لما فيها من قوة ولما تثيره من حماس مقدس الى التغيير السياسي والاجتماعي، يقول الامام(قده): «حافظوا على هذه المجالس وادفعوا الناس في هذا الطريق الى الاهتمام بالمسائل السياسية والاجتماعية، واعملوا لأجل أن لا يتخلى الناس عنها، لأنها تستبطن حياة الأمة، هذا فضلاً عن كونها أوجدت في جميع أرجاء الوطن اتجاهاً سياسياً وهذا هو الحق»[2].

كما ان استحضار عاشوراء وحياة الأمة بها، هو في الحقيقة استحضار لثورات الرسل والأنبياء ولكل حركات التحرر في التاريخ الإنساني، وقد تمكن الشعب المسلم في إيران من التواصل مع هذا التاريخ بعد أن انقطع عنه وتصادم معه ردحاً من الزمن بسبب تحكم الجائرين، بمعنى آخر نقول: إن الأنبياء عليهم السلام هم في الحقيقة أصحاب ثورة عظمى وثقافة وتاريخ واجههم الفراعنة بأفكار ومقولات ما أنزل الله بها من سلطان، والصراع كان ولا يزال مستمراً وقائماً بين ثقافتين

(١) الاستقامة والثبات في شخصية الإمام الخميني، ت، كاظم ياسين، مركز الإمام الخميني الثقافي، ١٥٦.
(٢) م. ع، ص٣٠٣.

متضادتين، ثقافة الإيمان والإسلام، وثقافة الكفر والإلحاد، وما من شك ان الحق والإيمان انتصر في مراحل تاريخية عدة حينما كان الناس يقومون قيامة الرجل الواحد، وهذا ما حصل في إيران حينما توحّد الشعب وثار بوجه الطاغوت، وتواصل مع ثورة الأنبياء عليهم السلام وبهذا تكون الأمة في إيران قد لحقت بركبها وحققت نفسها من خلال تشكل جديد جعل منها امتداداً لحركة النبوة والإمامة. وقد حرّض الإمام الخميني الأمة على أن تكون بمستوى المسؤولية لما يستدعيه هذا الامتداد من قيام بأمر الله تعالى. وانطلاقاً مما تقدم، نعلم ان الامام الخميني (قده) من خلال قيادته الحكيمة وضع إيران في مكانها الطبيعي، وأرشدها الى ما ينبغي القيام به للاستمرار في الثورة، والحفاظ على ما تمّ إنجازه في خط الامتداد هذا. وإن أي تعثّر لا بد أن يعود بإيران القهقري، بمعنى ان الثورة يجب أن تستمر سواء أكانت حمراء أم بيضاء، بحيث يبقى الإنسان في حركة دائمة، وفي انتظار إيجابي يسلمهُ الى حركة الأنبياء والأئمة، فلا بد من دفع الأمور الى نهاياتها بروية تامة في عصر الغيبة لئلا يتأثر هذا الخط الحسيني الممتدّ في الزمان، دون فرق بين زمان الحضور وزمان الغياب، لأن الأمة تبقى مسؤولة عن حركتها ومطالبة بتحقيق نفسها بالأمر الإلهي على جميع المستويات، وبخاصة على المستوى السياسي، الذي لا دليل على أن يترك هذا الأمر لحين ظهور صاحب الأمر عليه السلام، فهناك مَن نصّبه الله تعالى ليكون دليلاً ومرشداً وهادياً وأميناً على هذا الامتداد في عصر الغيبة ونعني بهم الفقهاء العدول الذين يمثلون امتداد الإمامة المعصومة، وهم مَن عناهم الإمام بقوله بالروحانية، التي كانت سبباً ولا تزال في تحرر إيران وعودتها الى حركتها الإسلامية الفاعلة. وهنا نسأل: مَن ذا الذي يملك

حق إخراج الأمة في عصر الغيبة من عهدة الفقهاء ليرمي بها في ظلمات جديدة سبق للإسلام أن أخرجها منها؟

فمقولة دعوا الزمان يفسد في عصر الغيبة، ومكنوا الظالمين من رقاب العباد والبلاد، مقولة تتضمن ثقافة مضادة لثقافة عاشوراء، وهذه المقولة ينسبها الأشعري والغزالي الى الروافض قديماً، وفي العصر الحديث هناك مَن يدعو الى هذه الثقافة، وقد اشتكى منهم الإمام الخميني قبل الثورة وبعدها، وهذا ما سنتعرّف إليه في أبحاث لاحقة.

ثانيا: الإمام (قده) والموقف من الثقافة المضادة

يقول الأشعري في مقالات الاسلاميين: «اختلف الناس في السيف على أربعة أقاويل:

(١) فقالت المعتزلة والزيدية والخوارج وكثير من المرجئة، ذلك واجب إذا أمكننا أن نزيل بالسيف أهل البغي ونقيم الحق، واعتلُّوا بقول الله عزّ وجلّ ﴿**لا ينال عهدى الظالمين**﴾[1].

(٢) وقالت الروافض: «بإبطال السيف، ولو قتلت حتى يظهر الإمام عليه السلام فيأمر بذلك».

(٣) وقال أبو بكر الأصم، ومن قال بقوله: «السيف إذا اجتمع على امام عادل يخرجون معه فيزيل أهل البغي».

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث، السيف باطل ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية، وإن الإمام قد يكون عادلاً، ويكون غير عادل، وليس لنا إزالته، وإن كان فاسقاً، وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه،

---

(١) سورة البقرة، الأية: ١٢٤.

واختلفوا في إنكار المنكر والأمر بالمعروف بغير السيف. فقال قائلون تغيّر بقلبك، فإن أمكنك فبلسانك، فإن أمكنك فبيدك، وأما السيف فلا يجوز، وقال قائلون، يجوز تغيير ذلك باللسان والقلب، فأما باليد فلا»[1].

ويروي الغزالي عن الروافض انهم قالوا: «لا يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يخرج الامام المعصوم، وهو الإمام الحق عندهم، وهم أخس رتبة من أن يتكلموا، بل جوابهم أن يقال لهم، إذا جاؤوا الى القضاء طالبين لحقوقهم في دمائهم وأموالهم، إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدي مَن ظلمكم نهي عن المنكر، وطلبكم لحقكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق، لأن الإمام الحق لم يخرج بعد»[2].

إذن، هناك مواقف فقهية قديمة وجديدة عند أهل السنة والشيعة تدعو الى عدم الخروج على الحاكم الجائر حتى ولو قتل الرجال وسبيت الذرية. وقد انعكست هذه المواقف لفترة طويلة على الساحة الإسلامية حرباً وقتلاً وظلماً وانتهاءً على مستوى السياسة والوجود معاً. إذ لم يعد هناك ثمة قيمة للحاكم العادل إطلاقاً، واقتصر الأمر في الحكم على أهل الغلبة والشوكة، وكذلك أدت الى الحكم المطلق والاستبداد بالرعية تحت شعار الإسلام والعدالة وتطبيق حكم الله، وإن السلطان هو ظل الله في الأرض. كما ينقل لنا التاريخ عن المنصور يوم وقف خطيباً في عرفة ليقول: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وأنا حارسه على ماله. . . وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله

(١) مقالات الاسلاميين، دار الحداثة، بيروت، ج٢، ص١٢٥.
(٢) إحياء علوم الدين، دار الهادي ج٢، ص٤٥٥.

عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يقفلني قفلني عليه»[١].

إن التاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الدعوات، وأغلب الناس صدقوا هذه المزاعم، ولم يمتنعوا عن إعطاء الطاعة لأهل الغلبة، والبعض منهم عدهم من أولي الأمر الواجبة طاعتهم، وتحت عنوان هذه الطاعة والحاكمية ضرّبت المدن الإسلامية بالمنجنيق[٢]، هذا فضلاً عن النهب والاغتصاب، حيث ان الحاكم اعتبر الخروج عليه خروجاً على إمام الزمان، حتى ان الامام الحسين عليه السلام نفسه قد اتهم بالخروج على إمام الزمان!؟ وعلى الرغم من كل ذلك فقد توالت الدعوات من فقهاء السلطة، الذين حثّوا الناس على الطاعة والركون الى الحاكم بأمر الله وعدم الخروج عليه لما في ذلك من معصية وجاهلية. وكان من جملة العناوين التي رفعت لامتصاص النقمة شعار «حاكم غشوم خير من فتنة تدوم» الى غير ذلك من الشعارات التي تحذر من الخروج وتدعو الى الطاعة، يقول إمام عبد الفتاح إمام: «أما في العالم الاسلامي فقد انقسم العلماء فيما بينهم الى فريقين: الأول يرى وجوب الصبر والنصح والتقويم للخليفة الظالم والذي صار مستحقاً للعزل، والثاني يرى وجوب الخروج عليه بالقوة واستبدال غيره به»[٣] إضافة الى انقسام كل مذهب على نفسه حيث برز موقفان فقهيان عند الشيعة الإمامية، أحدهما يذهب أصحابه الى عدم مشروعية إقامة حكم إسلامي في عصر الغيبة الكبرى لما يقتضيه ذلك من ممارسة الولاية

---

(١) ابن كثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٩، ج٣، ص٥٦٦.

(٢) يزيد بن معاوية ضرب المدينة بالمنجنيق، ولم يتورع عن قتل النساء وفعل الفواحش، ومن استحل دم الحسين عليه السلام لا يتورع عن أي فعل.

(٣) إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، عالم المعرفة، ص٨٦.

العامة، والثاني: يذهب أصحابه الى مشروعية إقامة حكم إسلامي في عصر الغيبة، ومستند هذا الموقف الفقهي عند معظم الذاهبين اليه هو ما اصطلح عليه بـ(ولاية الفقيه))»[1]. والموقف الأول هو الذي أشار إليه الأشعري والغزالي، تحت عنوان الروافض الذين عرف عنهم هذا في أوساط مخالفيهم قديماً، وهذا الموقف لا يزال له أثره اليوم في العالم الإسلامي، وعند الشيعة أيضاً، وبعضهم عارض الإمام الخميني (قده) تحت هذا العنوان!!

غاية القول ان كل فريق اعتمد على تأويل مجموعة من الأحاديث الشريفة من قبيل «انه سيكون هناك هنات وهنات فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائناً مَن كان»، وذلك إشارة الى مكانة الإمام الحسين عليه السلام، وهناك أحاديث كثيرة وضعها بنو أمية واستغلوها في محاربة العترة الطاهرة، وسوف نكتفي هنا بمثالين أحدهما قديم والآخر حديث، فقد ذهب ابن كثير مثلاً الى أن يزيد بن معاوية كان إماماً فاسقاً، لكنه يقول مع ذلك إن الإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة للفتنة أو وقوع الهرج وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهنّ، وغير ذلك مما كلّ واحدة فيها من الفساد اضعاف فسقه كما جرى مما تقدم الى يومنا هذا»[2].

ويؤكد ابن كثير أن يزيد عندما جاءته أنباء الحرة فرح بذلك فرحاً شديداً[3]، فإنه كان يرى انه الامام وقد خرجوا عن طاعته فله قتالهم حتى

---

(١) را: الشيخ شمس الدين، في الاجتماع السياسي الاسلامي، بيروت، ص٢٦٥.

(٢) را: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤ دار الكتب العلمية، بيروت، ص،٢٢٦.

(٣) كانت وقعة الحرة حينما تمرد أهل المدينة على يزيد عام ٦٣هـ بسبب إسرافه في =

يرجعوا الى الطاعة ولزوم الجماعة، ثم عقب بذكر الحديث النبوي السابق. كما ذهب علماء معاصرون الى ان الامام الحسين عليه السلام أخطأ خطأً عظيماً في خروجه، الذي جرّ على الأمة وبال الفرقة والاختلاف[1]، واعتلّوا بأن الإمام قد يكون عادلاً وقد يكون غير عادل وليس لنا إزالته حتى وإن كان فاسقاً، وهكذا أنكروا الخروج على السلطان»[2]. وذهب فريق آخر الى أن السمع والطاعة للسلطة الزمنية له حدود واعتمدوا أيضاً على مجموعة أحاديث منها: لا طاعة في معصية، وانما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمن لم يطع الله، وأفضل الجهاد مَن قال كلمة حق عند سلطان جائر، وأفضل شهداء أمتي رجل قام الى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك، فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر»[3]. ومن المعاصرين أيضاً مَن ذهب الى القول بالخروج على الجائر لما يعنيه السكوت من فساد وظلم حيث انه ثبت في الأبحاث الاجتماعية، ان السكوت على ظلم الظالم قد تكون مفاسده أضعاف مفاسد الخروج خلافاً لما ذهب اليه ابن كثير من أن كل واحدة مما يسببها الخروج فيها من الفساد أضعاف فسق الحاكم، يقول العلامة الطباطبائي في الميزان: «في الدر المنثور في قوله تعالى، ﴿**فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم**﴾، يقول: أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سملة بن يزيد الجهني، قال: قلت: يا

= المعاصي، وهي مثلاً يضرب عند الحكام. انظر البداية والنهاية، م. س، ص٢٢٥.

(١) را: محمد يوسف موسى، نظام الحكم في الاسلام، نقلاً عن الشيخ محمد الخضري في تاريخ الأمة الإسلامية ج١، ص١٥٤.

(٢) م. ع، ص. ن.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، م. س، ص٢٥٦.

رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذون بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم ونبغضهم؟ فقال النبي ﷺ : «عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم».

أقول، والكلام للسيد الطباطبائي: «لا ينبغي أن يرتاب في ان الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق وإماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم وإباحة السكوت وتحمّل الضيم والإضطهاد قبال الطغاة والفجرة لمن يجد الى إصلاح الأمر سبيلاً، وقد اتضح بالأبحاث الإجتماعية اليوم ان استبداد الولاة برأيهم واتباعهم لأهوائهم في تحكماتهم أعظم خطراً وأخبث أثراً من إثارة الفتن وإقامة الحروب في سبيل إلجائهم الى الحق والعدل»[١].

لا شك في ان الامام الخميني (قده) اتخذ موقفاً من هذا الانقسام على ضوء ثقافة عاشوراء، وكان من جملة ما أثرت به عاشوراء على فكر الإمام الخميني، هو انها مكّنته من الخروج على الموقف الفقهي والسياسي الداعي الى الاعتراف بشرعية الحاكم الجائر، كما دفعت به ثقافة عاشوراء الى أن يكون مع الأمة قبال الطغاة والفجرة، وكان إيمانه بالأمة والفقراء والمظلومين بمقدار كفره بالطواغيت الذين جعلوا لأنفسهم سلطاناً سموه لأنفسهم. فالحاكم إنما يكون ظل الله في الأرض إذا كان مع الله، وهو لا يكون كذلك كيفما اتفق، بل لا بد من شروط ومواصفات تؤهله لقيادة المجتمع، وهذه غير متوفرة إلا بالذين يمثلون الروحانية الحقة، التي من خلالها استطاع الشعب في إيران أن يقيم حكم الله في الأرض، إذ انها علمته، وأعني الروحانية الحقة، ان ثقافة عاشوراء هي

---

(١) السيد الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج١٥، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص١٥٨.

التي تبلور الوعي الشعبي وتؤهل القائد لأن يكون ظلاً لله تعالى. إن الإمام الخميني انطلق في الثورة وهو يعلم تماماً مقدار تأثير هذه المواقف الفقهية في الواقع ولم يأبه لها لقناعته بأن مجالس العزاء وثقافة البكاء السياسي استطاعت أن تخلق اتجاهاً سياسياً قادراً على إجراء تحوّل ما في التاريخ. فالساحة الإسلامية اليوم، كما كانت في الماضي، تعيش أجواء الانقسام، وقد تحول فأصبح بين فقيه يقول بشرعية الحاكم الجائر ويدعمه بما تيسر من الفتاوى ضد جمهور الأمة التي لا ترى شرعيته، وبين فقيه عادل يقول بجواز الخروج عليه لما يعنيه وجوده على رأس السلطة من فساد وظلم وتعطيل لأحكام الله تعالى وتحريف لها، وإذا لم يكن الخروج ممكناً فلا يجوز العمل معه والتعامل إلا على الحق، وأما معونته على الظلم والعدوان فمحظور لا يجوز مع الاختيار، كما يقول الشيخ المفيد»[1].

لقد عانى ما عانى الإمام الخميني من وضع المؤسسة الدينية في العالم الإسلامي السائرة في اتجاه تعزيز هذا الانقسام، في مقابل وضوح النص الداعي الى الوحدة، وقد حذّر الامام من انعكاسات هذا الوضع السلبية داعياً الى التصدي من خلال عاشوراء الى كل الفتاوى التي تبيح التعامل مع أعداء الله والإنسانية، ونعني بالمؤسسة الدينية بعض المجامع العلمية التي لا همّ لها إلا شرعنة الواقع بدل تغييره، ودعم السلطان بدل تقويمه فيما لو اعوج، ومن جملة ما أفرزته بعض المجامع العلمية في العالم الإسلامي انها كرّست الظلم والحاكمية المطلقة لهذا المستبد أو ذاك من خلال الدعم اللامتناهي للحاكم الجائر، وقد تجاوز الأمر ذلك الى حد تحريف بعض النصوص لكي تتلاءم مع مصلحة هذا الحاكم أو ذاك من

(١) أنظر: الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) أوائل المقالات، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ص١٤١.

قبيل الدعوة الى مصالحة إسرائيل واعتبارها عضواً حياً وفاعلاً في المنطقة العربية الإسلامية، ومما يجرح شعور المسلم ويهدد ثقافته الإسلامية الأصيلة، أن تصدر فتاوى عن أناس معمّمين للإعتراف بإسرائيل مع ما يستدعيه ذلك من تهويد لفلسطين والقدس، وهذا ما أشار إليه الإمام في خطابه التاريخي تحت عنوان خطر المقدسين المزيفين في الحوزات العلمية، يقول الإمام: «إن خطر المتحجرين والمقدسين المزيفين الحمقى في الحوزات العلمية ليس قليلاً هؤلاء مروّجو الإسلام الأمريكي وأعداء رسول الله. . . عندما يئس الإستكبار في القضاء على مطلق الروحانية والحوزات اختار العمل على محورين: أحدهما التخويف والترهيب والثاني الخدعة والإختراق، وعندما وجد في هذا القرن ان حربة الترهيب لا تجدي اعتمد تقوية محور الاختراق وكانت أولى تحركاته املاء شعار فصل الدين عن السياسة، وللأسف فإن هذه الحربة تركت آثارها الى حدود في الحوزات وأوساط الروحانيين، بحيث وصل الأمر الى أن التدخل في السياسة دون شأن الفقيه، وأصبح الدخول في المعركة السياسية يؤدي الى تهمة الارتباط بالأجانب، ولا شك ان جراحات الروحانيين المجاهدين من الاختراق كانت أشد، لا تتصوروا ان تهمة الارتباط وفرية عدم التدين قد وجههما الآخرون فقط الى الروحانيين، كلا، فإن ضربات الروحانيين المغفلين أو الواعين المرتبطين أشد فتكاً من ضربات الآخرين في بداية الثورة. كنت إذا أردت أن تقول الشاه خائن تسمع فوراً من يقول لك الشاه شيعي»[1].

فالحاكم الجائر ليس خائناً بنظر الإمام الخميني لأنه شيعي أو سني، وإنما هو خائن لأنه يحرِّف الكلم عن مواضعه، ويُفتي خلاف شرع الله،

(١) الامام الخميني، الخطاب التاريخي، شباط، ١٩٨٩.

فقد يكون الحاكم سنياً وعادلاً، وقد يكون شيعياً وظالماً، والعكس، فالشاه كان شيعياً، ولكنه كان ظالماً يتخذ إلهه هواه ويعبث بمصالح الناس ويفسد في الأرض، وعلى الرغم من إفساده كان يجد مَن يدعمه ويبرر له أعماله ويفتي له بجواز ذلك، فبين ثقافة الثورة وثقافة القعود كان البعض يختار الشاه بكل ما كان يمثله هذا الطاغوت من عناوين ثقافية مضادة لثقافة عاشوراء، وكانت النتيجة أن دفعت ثقافة عاشوراء الإمام الخميني (قده) الى الخروج على الشاه وعلى كل المواقف الداعية الى اعتبار شيعيته الكاذبة وثقافته الفاسدة. الثقافة التي عملت على إظهار يزيد بمظهر العدالة، والتي تدعو الى عدم الخروج عليه لفسقه لما قد يحدثه ذلك من إثارة للفتنة. لقد علمت عاشوراء الشعوب ان يزيد ليس شخصاً، وإنما هو الباطل، والحسين ليس شخصاً وإنما هو الحق، فالنصرة إنما تكون للحق وليس للأشخاص، وكما يقول المعصوم: كن مع الحق وليس مع الرجال، أو اعرف الحق تعرف أهله. هذا هو المقياس الذي يدفع بأمة إلى اختيار ثقافة الحق وطريق الحق في أي زمان وفي أي مكان.

ان المواقف الفقهية القديمة الداعية الى عدم الخروج والطاعة لا تزال حيّة اليوم في عالمنا الإسلامي، وبعض المعاصرين من فقهاء السلطة ذهب في تأويله لقوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الكافرون**﴾ الى انها خاصة باليهود ولا دخل لها بحكامنا في العالم اليوم، والى ان الجهاد في سبيل الله انماهو جهاد في سبيل رفع الفقر والحرمان عن عباد الله ولا دخل له بالكافرين وأعداء الله والرسول، وغير ذلك من الفتاوى التي تعيد يزيد الى الذاكرة كل يوم، ولعل ذلك يفيدنا في تذكر عاشوراء كل يوم. ولا شك، انه لا يزال الغرب يعمل من أجل أن تبنى حياة المسلمين على أساس تلك المواقف بهدف الحفاظ على مصالحه مدعوماً

بفتاوى بعض المعممين في المجامع العلمية الداعية والمطالبة بالارتفاع الى مستوى الإسلامي الأمريكي! لقد أشار الإمام الخميني (قده) الى خطورة فتاوى هؤلاء على عامة الناس، وجهد للاستفادة من تأثيرات ثورة عاشوراء وثقافتها في مواجهة هذا الإسلام الأمريكي، حيث انه كان يعتقد بأن السماح لهؤلاء بالنفوذ الى قلوب العامة من شأنه تهديد الأمة الإسلامية، لا في سياستها واجتماعها وثقافتها وحسب، بل في وجودها، ويرى ان الواجب الشرعي هو التصدي لها والخروج عليها مهما كانت التكاليف، فهم يمهدون لذلك بإشاعة إمامة الفاسق مهما فعل وقال! والسر، بل العجب العجاب في هؤلاء المزيفين الفاسقين، انهم من أكثر الناس تظاهراً بالتقوى والقداسة، ولا يضيرهم أبداً أن يروا الفساد والفحشاء في بلادهم فضلاً عن بيوتهم، ويرون انه من واجبهم دعوة الناس الى عدم التدخل في السياسة وتركها لأهلها، لما يعنيه التدخل من منافاة للتقوى وطلب للدنيا، في حين انهم يكونون أشد الناس طلباً لها حينما يشعرون بانتصار الاسلام المحمدي. إذ انك تفهم من معنى السياسة عندهم، فضلاً عن معاني التقوى والقداسة، ان لا يصل الإسلام الحقيقي الى الحكم، أما إذا وصل؛ فالسياسة تقتضي حينئذٍ الإحاطة به والتآمر عليه، لأنه ممنوع عليه بموجب ارتباط هؤلاء بالأجانب أن يكون حاكماً، وغالباً ما يسمون تحركهم وعملهم لإسقاطه بالسياسة الإسلامية، ولهذا يقول الامام الخميني: «هنا الآن في الحوزات العلمية من هم يعملون ضد الثورة والاسلام الأصيل، وبعضهم اليوم عبر التظاهر بالقداسة يعمل على اجتثاثه من الجذور، وكأنه لا مهمة له غير ذلك، أولئك الأشخاص وصل بهم الأمر الى حد الاعداد للإطاحة بالنظام والإنقلاب عليه»[1].

---

(١) را: الإمام الخميني (قده)، الخطاب التاريخي، تاريخ ٢٢/ ٢/ ١٩٨٩.

إن ما ابتلي به الإمام الخميني (قده) قبل الثورة وبعدها من وجود بعض المعممين المزيفين ورجال سياسة مقلدين للغرب، يمكن أن يبتلى به أي فقيه عادل يريد أن يقيم حكم الله في الأرض وينصر المظلومين، وأيضاً سيواجه بكثير من الأحاديث والروايات الموضوعة لخدمة الاستعمار في المنطقة من خلال هذا الحاكم أو ذاك، وسيقال له ما قيل لأشرف إنسان على وجه الأرض، ولن يتوانى بعض المعممين والسياسيين عن الطعن بثورته واتهامه بالخروج على إمام الزمان وأحكام الله كما اتهم الامام الحسين عليه السلام من قبل بني أمية. فالعالم الاسلامي اليوم كانت مشكلته وستبقى الحاكم الجائر المسلح بفتاوى المزيفين في المجامع العلمية هنا وهناك، وقد يكون من الصعب جداً تعريف الأمة بالحقائق إذا لم تكن ثورة عاشوراء عبرة ونموذجاً يحتذى لطالبي الحرية والاستقلال في العالم المعاصر. ويبقى الأهم والمطلوب أن يقوم المخلصون من عباد الله بتعريف الأمة بالحقائق التي تساهم في نهوضها وتحررها، ذلك ان العالم الاسلامي فيه الكثير من العناصر المخلصة التي تتحمل المسؤولية، وتقوم بالواجب على الرغم مما قد يتعرض له هؤلاء من ضغوط، وغير ذلك مما لا بد أن يبتلى به كل مخلص ومؤمن أسوة بالأنبياء والصالحين من عباد الله. فإذا كان الخوف من الفتنة سيؤدي الى زوال هويتها وتحريف مبادئها، ونعني الأمة، وانتشار أوبئة السلام الإسرائيلي في بلاد المسلمين، فإن خوفاً كهذا لا يمكن أن يكون له ما يبرره في شرع الله؛ ويبقى على الروحانية الحقة أن تقوم بواجبها وسياسة نفسها، سياسة تخرج الحق من خاصرة الجائر، وتحيي مبدأي الحق والعدل فيها، وخصوصاً ان هناك نصوصاً تبيح لها ذلك منها: ان السلطان ليس ظلاً لله في الأرض، وانما هو يستمد سلطانه من الأمة الممثلة كما يرى أهل الحديث والسنة بأهل الحل

والعقد، ويعتمد في بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ونظرهم في مصالحهم، ولهذا قرر علماء المسلمين ان للأمة خلع الخليفة لسبب يوجبه، وإن أدى الى الفتنة احتمل أولى المضرتين، وعلّلوا هذا بأن مَن ملكَ المسؤولية ليستقيم الأمر يملك العزل عند اعوجاجه، وأبو بكر الصدِّيق أول من ولي الخلافة قال في فاتحة خطبته: «أيها الناس قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن صدفت فقوموني وقال في خاتمتها: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، وروي مثل هذا عن عمر وعثمان مما يؤيد إيمانهم بسلطة الأمة عليهم وشعورهم بالمسؤولية أمامها»[١].

(١) را: خلاف، عبد الوهاب، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٧، ص٥٩.

ثالثاً: دور الأئمة (ع) وامتداد عاشوراء

إن ما يفترق به الروافض، كما يسميهم الأشعري والغزالي، عن أهل الحديث والسنة في المواقف القديمة والجديدة من السلطان الجائر، على الرغم من التقارب في بعض المواقف، يبقى مميزاً لهما، وهذا التقارب هو أبعد من أن يجعلهما في بوتقة فقهية واحدة بدليل ان الروافض لم يصل الأمر بهم الى حد جعل إمامة الفاسق من أصول الإمامة، أو واجبة الطاعة، أو الى اعتباره ولياً للأمر في كل ما يأمر به وينهى عنه، كما في بعض النصوص. فهم، أي الروافض، لا يرون لأحد شرعية، إلا للإمام المعصوم، وفي عصر الغيبة لا شرعية لأحد مهما بلغ شأنه، فالولاية عندهم للإمام عليه السلام فإذا غاب فلا ولاية لأحد على أحد من الناس، وقد ذهب البعض منهم الى تعطيل كل شيء أثناء الغيبة الكبرى بهدف تعجيل ظهوره، ومنهم، كما رأينا مع الغزالي، من لا يرى شرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يمكن فهمه على ضوء الظروف التي كانت تحيط بهم وتدفعهم الى التخلي عن السياسة واتهام كل مَن يعمل في مجالها أو يتصدى لها. وما من شك ان هذه المواقف التي كان لها أثر كبير في الماضي، يمكن القول بشيء من الدقة، انه لم يعد لها التأثير الكبير، وذلك

بعد أن انتصرت المدرسة الأصولية في صراعها مع المدرسة الإخبارية التي رفضت إعمال العقل والاجتهاد، ولكن لما انتصرت المدرسة الأصولية ودخل العلماء في المعركة السياسية تغير الكثير من المواقف السابقة، وهذا لا يمنع من القول، انه بقي هناك مواقف تدعو الى الجمود وعدم الخروج على الحاكم الجائر. وفي جميع الأحوال، لم يكن معترفاً بالسلطان الجائر، وإن كان يقتضي الأمر العمل والتعامل معه من أجل إحقاق حق، أو إنصاف مظلوم، أو تحقيق مصلحة إسلامية عليا من قبيل ما نعرفه وما سنتعرض له عن دور الإمام المعصوم عليه السلام في ظل الحكومات غير الشرعية. إن الذي كان يقوم به المعصوم في مواجهة سلاطين الجور بعد الإمام الحسين عليه السلام والذي يمكن اعتبار عملهم وتصديهم تكملة لثورة عاشوراء، وامتداداً لها، وليس انقطاعاً عنها أو تبديلاً لها، بدليل ان وضع الرسالة وحياتها في الأمة كان يفرض على الإمام أن يقوم بالدور المناسب، ولم يكن المهم أبداً التصدي للسلطة السياسية، والتنافس عليها، باعتبار ان إمامة الإمام لا تتقوّم ولا تتجوهر بالمهمة السياسية، ولهذا كان الأئمة عليهم السلام يتعاونون مع السلطان الجائر بالمقدار الذي يحقق للأمة مصلحتها العليا، فالإمام زين العابدين عليه السلام مثلاً قام بالدور العظيم حينما عجز عبد الملك بن مروان عن الرد على كتاب ملك الروم فملأ الإمام الفراغ في الرسالة بالشكل الذي يحفظ للدولة كرامتها، وللأمة الإسلامية هيبتها، وكما حصل حينما عجز هشام الأموي عن رد التحدي الذي واجهه من الدولة بشأن النقد، وكان الباقر عليه السلام في مستوى التحدي والرد على هذا التحدي فخطط للإستقلال النقدي[1]. فالأئمة بعد الإمام الحسين عليه السلام لم يتمكنوا من الثورة بسبب عدم استعداد الناس لها، وما

(١) را: السيد محمد باقر الصدر، دروس إسلامية، دار الزهراء، بيروت، ص١٥٠.

كان يقوم به الامام المعصوم عليه السلام لم يكن عوناً للنظام الجائر بل دعماً للأمة التي اطمأنّت الى سلامة النظرية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وقد استمرت هذه السلامة على المستوى النظري مع الإمام المعصوم عليه السلام الذي كان يراقب ويساعد ويرشد، على الرغم من كل ما كان يراه من أخطاء على مستوى التطبيق من قبل الحاكم الجائر، ولم يكن يخيفه أبداً مجهود السلطان الجائر للحد من وعي الأمة ونفوذها وتعلقها بإمام الزمان، وقد أشار الإمام الخميني الى هذا بقوله: «كان السلاطين والظلمة يبذلون كل ما في وسعهم لمحو آثار الرسالة، وبحمد الله، فإننا نرى نتيجة تلك الجهود اليوم متجسدة في الآثار المباركة كالكتب الأربعة، والكتب الأخرى للمتقدمين والمتأخرين في الفقه والأصول والفلسفة، وإذا لم نسم كل هذه الأتعاب والمجهودات جهاداً في سبيل الله فماذا نسميها؟»[1].

كما ان تعامل الإمام المعصوم لم يكن يعني أبداً الاعتراف بشرعية الحاكم الجائر أو التنازل له عن حق الإمام أو الأمة، بل كان تعاملاً يقتضيه الظرف والمصلحة العليا للأمة، والسلطان الجائر كان يعي هذا الأمر جيداً، مما كان يحمله دائماً على التربّص بالإمام عليه السلام كي يمنعه من التأثير في الناس، وبسبب هذا الدور العظيم للإمام في كل زمان كان السلطان مقيداً لا يستطيع المساس بالنظرية الإسلامية، التي كان الإمام المعصوم هو المأول الوحيد لها، وهذا الأمر كان يمنع السلطان من الدعوة لنفسه من خلال استغلال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، مما كان يدفع به الى قتل الإمام أو سجنه وتعذيبه، الى ما هنالك من وسائل للتأثير عليه وأخذ البيعة منه. فهذا الإمام موسى بن جعفر الذي رفض الاستجابة

(١) الإمام الخميني، الخطاب التاريخي، ٢٢ شباط ٨٩.

لطلب الزعامة المنحرفة، يقول الإمام الخميني: «إن الحكام الجائرين كانوا يعلمون ان الامام موسى بن جعفر عليه السلام إذا خلص منهم فإن الحياة تغدو عليهم حراماً، وانه سينهض إن وجد من ينصره، ولا تشكوا في ان الامام موسى بن جعفر عليه السلام لو سنحت له الفرصة، فإنه كان سيأخذ الخلافة ليقيم بها الحق ويزهق بها الباطل، وانظروا كيف كان المأمون يداري الإمام الرضا عليه السلام ويوليه العهد، ويخاطبه يا ابن العم، يا ابن رسول الله، وكان مع ذلك يراقب تحركاته لأنه كان يخشاه على سلطانه. . والأئمة لم يكونوا وحدهم في مقاومة سلطان الجور، بل دعوا المسلمين جميعاً الى أن يكونوا في مواجهة الجور والظلم، وهناك ما يزيد على الخمسين حديثاً في كتاب الوسائل ومستدرك الوسائل فيها اجتناب الظلمة والحكام الجائرين. . . فالدخول في سلك الظلمة والجائرين يجب أن يكون شكلياً وناصراً للإسلام الحقيقي، ورافعاً للظلم عن العباد، كما فعل علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي»[1].

ومما يدل على ان الأئمة لم يتوانوا عن القيام بالثورة، هو ان الإمام الصادق عليه السلام حينما جاءه الخراساني يطلب منه قيادة الثورة، فأجل الإمام جوابه، ثم أمره بدخول التنور فرفض، وجاء أبو بصير فأمره بذلك فسارع الى الامتثال، فالتفت الإمام الى الخراساني وسأله كم له من أمثال أبي بصير، وكان هذا هو الرد العملي من الإمام على اقتراح خراسان»[2]. إن كل ذلك يدل على ان الثورة تكون ممكنة حينما يكون الناس على استعداد لها، كما كانت حالة الشعب الإيراني، الذي استوفى كافة شروط التحرك، ثم النصر، وهذا الاستعداد يجب استثماره في نصرة الإسلام سواء أكان

(١) أنظر: الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س، ص١٥٠.
(٢) السيد محمد باقر الصدر، بحوث إسلامية، دار الزهراء، بيروت، ص٥٨.

الإمام المعصوم حاضراً أم غائباً، كما يرى الإمام الخميني، ولا شرعية لمواقف تحث على الجمود في عصر الغيبة، وتدعو الى الانتظار السلبي . . . إن عدم استعداد الأمة، مثلما انه كان يحول دون ثورة المعصوم عليه السلام، فهو أيضاً كان يحول دون ثورة الفقيه في عصر الغيبة، وحيثما يكون الاستعداد تكون الثورة، وقد نجد من الروافض الذين أشار اليهم الغزالي والأشعري من رفض الخروج والثورة مع التمكن منها والقدرةِ عليها لظنهم ان هذا الأمر ليس موكولاً اليهم، وانما هو خاص بالإمام عليه السلام من دون أن يعني ذلك اعترافاً منهم بشرعية أنظمة الجور. وهنا نلحظ مفارقة هامة جداً بين نصوص الروافض وأهل الحديث والسنة، وهي ان إمامة الفاسق مهما قال أو فعل لا يجوز الخروج عليه توقياً للفتنة لها نفس تأثيرات مقولة لا يجوز الخروج ولو سبيت الذرية وقتل الرجال إلا مع الإمام المعصوم عليه السلام فالمقولة الأولى تكرس سلطان الجور وكذلك المقولة الثانية، رغم عدم الاعتراف به، تؤدي الى النتائج ذاتها، وقد ردّ الغزالي علهيم بما سبق وذكرناه في بداية هذا البحث.

من إيجابيات ثقافة عاشوراء وثورة عاشوراء على مستوى التحقق السياسي، هي انها استطاعت أن تعطي الأمة دفعاً باتجاه تعقل الأمر الإلهي على نحو يجعله حاضراً دائماً في عقل وقلب الأمة، كما انها عرفت الجمهور بحقيقة الثورة على الظلم والجور من خلال الامتثال للشعار الحسيني، الذي هدف الإمام الحسين من ورائه الى أن يكون شعاراً مطلقاً وقابلاً للتحقق حيث أمكن «كفا بك ذلاً أن تعيش وترغما».

هناك جملة من الروايات عن الأئمة يجب أن تعطي أبعادها العملية في عصر الغيبة، وهذا ما فعله الإمام الخميني بثورته المباركة، ومن خلال هذه الروايات يمكن الحكم على الموقف الشيعي الجديد الداعي الى

ضرورة السعي لإقامة الحكومة الاسلامية المحققة لشعارات كربلاء والمنتصرة بها، باعتبار أن هذه الشعارات مثلما هي سر الانتصار فكذلك هي سرّ البقاء، وهي عنوان كل رواية، فجميع الروايات المتواترة عن الأئمة عليهم السلام لا تذهب الى الاعتراف بشرعية سلطان الجور، بل تؤكد ان السلاطين هم في الحقيقة غاصبون لهذا المقام المقدس، وكذلك لحق الله والإمام المعصوم والأمة. وفي أثناء غيبة الإمام عليه السلام لا بد أن يكون الحاكم مطيعاً لله ولرسوله ولإمام الزمان، وأميناً على الرسالة، وعادلاً في قوله وفعله بحيث يكون أول عدله نفي الهوى عن نفسه كما في بعض الروايات، ويضاف الى ذلك ما تضمنته بعض الروايات من دعوة إلى الثورة على السلطان الجائر إذا أمكن ذلك، لأنه لا يجوز الإخلال بالنظام العام فيما لو لم يكن التحرك ضد السلطان ممكناً أو مستعداً له، كما ان التمكن منه وتركه انما هو بمثابة الإقرار بتعطيل الأحكام والقوانين الإلهية، وتمكين ولاة الجور من التحكّم بمصائر العباد والبلاد. أما إذا لم تكن الثورة ممكنة، فإنه يمكن العمل والتعامل مع السلطان بما يحقق للأمة وحدتها ويحفظ النظام العام الذي يحرم الإخلال به بحسب فتاوى الفقهاء قديماً وحديثاً، ولا ننفي ان هناك من الفقهاء من ذهب الى القول ببطلان الحكم الإسلامي قبل ظهور صاحب الزمان»[1]. وهذا قول لا يعتدّ به لمنافاته مع الإسلام، ولما يؤدي اليه من ظلم وحرمان بحق العباد، ومن استعمار للبلاد كما يحصل اليوم في عالمنا العربي والإسلامي. . .

فإذا تولى الجائر السلطة ولم يكن بإمكان المسلمين خلعه لقوة شوكته، أو لعدم استعدادهم لذلك، فإنه يمكن التعامل معه لحفظ الأحكام الشرعية المترتبة على الولاية من دون الاعتراف بشرعيته، كما كان يفعل

(١) انظر: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١١/ ٤٧٢، أبواب الأمر والنهي.

الأئمة مع ولاة الجور، ومن جملة الروايات الدالة على ذلك ما جاء في رواية موسى بن اسماعيل عن أبيه الصادق عن جده موسى بن جعفر انه قال لشيعته: «لا تذلوا رقابكم بترك طاعة سلطانكم، فإن كان عادلاً فاسألوا الله بقاءه، وإن كان جائراً فاسألوا الله صلاحه، فإن صلاحكم في صلاح سلطانكم، وان السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبوا له ما تحبون لأنفسكم، واكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم»[1]. إن ما يستفاد من هذه الرواية أن يكون السلطان عادلاً. اما إذا تعذر ذلك، فإنه يمكن طاعة السلطان الجائر بما يرضي الله تعالى، باعتبار انه لا طاعة في معصية، وعلى الأمة الاستعداد والتأهب لاستبداله بما يحفظ لها هيبتها ووحدتها ومصالحها، لأن الحاكم الجائر أول همه ضمان مصلحته الخاصة، إلا أنه غالباً ما يكون هذا السلطان نتيجة للأمة لما قيل في الحديث انه «كيفما تكونون يولّى عليكم».

فالأمة إذا كانت تعي حقيقة الأمر الإلهي ولها آذان واعية تسمع وترى وتذكر، فإنه لا بد أن يكون لها جوائز على ذلك، مثلما حصل للشعب المسلم في إيران، الذي انتصر في ثورات عدة ضد السلاطين، لكن غياب النظرة الاستراتيجية في الماضي، هو الذي أدى الى أن تكون إيران في عهود سابقة متأرجحة بين النصرة والهزيمة الى أن كانت النتيجة إقامة حكم الله وتطبيق الشريعة من خلال ولاية الفقيه.

غاية ما نروم بيانه في هذا البحث، هو ان الإمام الخميني (قده) قرأ الواقع بدقة ورصد المستقبل، فحقق المعجزة في هذا القرن، ودفع بالأمور الى نهاياتها حيث عاشوراء وروح الجهاد والتضحية بكل شيء من

---

(١) را: الشيخ شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي، المؤسسة الجامعية، ط١، ١٩٩٢، ص٢١٩.

أجل الإسلام، وليس غريباً أبداً أن تكون عاشوراء سبباً للنصر والبقاء، باعتبار انها تحتوي على كل عناصر القوة، وفيها ما يدفع بالإنسان الى اختصار مسافة الزمان ليكون قريباً من الحدث المضيء في تاريخ الإنسانية. إن الشعب الإيراني المسلم ما كان ليحصل على هذه الجائزة، وأعني الهدية الإلهية لولا استحضاره كل معاني هذه الثورة، فالشعب الذي استعد للسير في طريق الشهادة، هو دائماً يتذكر في أثناء مسيره أئمة الهدى الذين تابعوا الطريق وتعرضوا لأبشع أنواع الأذى في سبيل الحفاظ على الإسلام، وكما يقول الإمام الخميني (قده) لو لم يكن سيد الشهداء موجوداً لكان يزيد ووالده وأعقابهما قد أنسوا الإسلام. . . »[1] ويستفاد من هذا ان الإمام الحسين عليه السلام كان من نتائج شهادته استمرار النظرية الإسلامية حيّة وفاعلة رغم جهالة المتصدين للسلطة، والذين لم يكونوا أمناء أبداً على تطبيق الرسالة، فالناس كانوا يعلمون تماماً ان الإمام المعصوم عليه السلام ومن ينوب عنه، هو القيّم على الرسالة والمترجم لها، لقوله عليه السلام «إن أولياء الله. . . بهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا»[2]. فالثورة الحسينية حمت الإسلام، وأفسحت في المجال أمام الناس كي يتصدوا لما من شأنه تعريض الرسالة لمخاطر التزييف والتحريف. وها نحن كلما تقدمنا في الزمن كلما اقتربت عاشوراء منا من حيث كونها ليست ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً، وإنما هي الزمان والحياة تحيا وتتفاعل وتنتج وتصنع القادة لكل زمان ومكان، والحق يقال: ان الإمام الخميني عرف كيف يحفظ هذا الامتداد لعاشوراء في الزمن، بعيداً عن خرافات التاريخ وأكاذيبه، حيث انه جرّد عاشوراء من

(١) الامام الخميني،الا ستقامة والثبات، م. س، ص٣٠٣.

(٢) را: الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٣٢.

الخيالية والمثالية وأعطاها أبعادها الواقعية، حتى غدت فكرة عملية واضحة، وحقيقة تاريخية ناصعة ومعاشة في زمان ظن البعض فيه أنّ ما في الماضي يمضي ولا يعود!.

لقد استطاع الإمام الخميني (قده) توضيح الصورة، وتقريب الزمن بكل ما ينطوي عليه من حيوية. كما أنه أحدث قطيعة مع كل ما يشعر بأن ثقافة عاشوراء غير مفيدة في زمن تطغى فيه وعليه ثقافة المادة التي كانت سبباً ولا تزال في تحكيم يزيد ومن على شاكلته برقاب العباد والبلاد، وأبعد نهائياً عن الأذهان كل النصوص والروايات والتأويلات المشبوهة، التي تبيح ليزيد العصر أن يكون حاكماً، أو تعطي فرصة للحكام كي يشوّهوا صورة الإسلام. إن عاشوراء ثورة فعلية ودائمة الى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

الفصل الرابع
خصائص ومميزات الثورة الإسلامية في إيران

تمهيد

أولاً : المرتكز الإستعماري في فهم الثورات الإسلامية

ثانياً : الإمام الخميني (قده) وحتمية الحل الإسلامي

ثالثاً : ديمومة الثورة وخسارة الرهان

تمهيد

بعد الخلافة الراشدة، واستبداد الملك العضوض بالأمة والدولة معاً، وما تبع ذلك من انهيار لمنظومة القيم والمبادىء الإسلامية، سواء في العهد الأموي، أو في العهد العباسي، أو غيرهما مما عرف بالعهود العثمانية في تركيا، والصفوية في إيران، والتي كانت جميعها تدّعي الإسلامية، بل السنية تارة، والشيعية أخرى، في كل ما كانت تلجأ إليه من سياسات، وتسعى لتحقيقه من أهداف، أجمع المؤرخون على أن الإسلام، كما ترجم في حياة الرسول ﷺ وأهل بيته، لم يستمر حياً في الأمة والدولة، وتحول مع الملك العضوض الى مجرد طقوس وتعبيرات تتلى في المناسبات، وقد ذكر السيد الخميني (رض) أن الأمر بلغ الى حد ان القرآن الكريم، وهو الكتاب الصانع للمصير، لم يكن له ولا الآن على أيدي الأعداء المتآمرين والأصدقاء الجهلة أية وظيفة إلا في المقابر وفي مجالس الأموات[1].

(١) انظر: الإمام الخميني (رض)، النداء الأخير، أو الوصية الخالدة، م. س، ص٨.

وقول الإمام (رض): «لم يكن له»، إشارة الى ما كان عليه حال المسلمين في الماضي، في ظل حكومات الاستبداد، التي كان كل همها استثمار الدين في المشروع السياسي، واستيعاب حركة الشعوب الإسلامية في دائرة الفقه السلطاني، حتى لا يكون هناك أي فهم للإسلام وتعاليمه وقوانينه من خارج مؤسسة السلطة والفقهاء التابعين لها.

فالدين، كما يرى الإمام علي عليه السلام، في كلامه الى مالك الأشتر، كان أسيراً بأيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا..»[1]، وجاءت كربلاء وثورة الإمام الحسين عليه السلام لتضع حداً لما كانت تقوم به حكومة الاستبداد من تأويلات للدين، وتحريف له لخدمة مصالحها وتبرير مشروعها السياسي. وعلى الرغم مما حققته ثورة الإمام الحسين عليه السلام من أهداف، وكشفت عنه من مساوىء، وما زرعته من بذور لمواجهة الظلم والظالمين، فإن أمور المسلمين، الدينية والسياسية، بقيت في أيدي السلاطين، بسبب عدم وفاء الأمة بالتزاماتها مع ولاة أمرها الحقيقيين، الذين بفضل جهودهم تمّت حماية الإسلام من التحريف وسوء التأويل، وكذلك حماية الأمة من الانقسام، في زمن كان يحرص فيه السلطان أشد الحرص على تفكيك عرى الأمة لتعود الى ما كانت عليه في سابق عهدها قبل أن يهذبها الاسلام، ويجعلها خير أمة أُخرجت للناس.

إن استثمار الدين في المشروع السياسي من قبل السلاطين، حال دون تواصل الأمة مع مشروعها الحقيقي، كما أنه أدى الى أن تكون أسيرة المشاريع الخاصة لهذا السلطان أو ذاك، وجعل الدولة السلطانية في مقابل الأمة، بعد أن كانت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين، تعبيراً

---

(١) را: الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣.

عنها ونتيجة لقيامها بواجباتها الدينية السياسية، وهذا كله أدى الى أن يكون الإسلام غريباً في مجتمعات المسلمين، وأسير تعبيرات السلطة السياسية، كما كان عليه الحال في زمن المأمون العباسي الذي استعمل السلطة لفرض ما كان يعتقده حقاً في الدين والدنيا، وكما كان عليه الحال في زمن المتوكل العباسي الذي عارض المعتزلة واستعمل السلطة في سبيل هدم معتقداتهم، الى ما هنالك مما لا يحصى من الأحداث، التي كان للسلطة الدور الأكبر في حسمها، باعتبار ان الدين لم يكن مستقلاً عن كل الحكومات التي تعاقبت على حكم المسلمين في تاريخهم[1]. فالقضاء بين المسلمين، والحروب في داخل البلاد وخارجها، وجباية الخراج، وتفسير النصوص وتأويلها، كان كل ذلك يتم وفقاً لإرادة السلطة ودعماً لها، ولم يكن للدين دور مستقل في النظر الى شؤون الأمة والدولة. وهذا ما أوجزه «هيكل» في كلامه عن الانبعاث الديني، حيث رأى أن الحكومات، قديماً وحديثاً، استغلت الدين بطبيعة الحال لتحقيق أهدافها السياسية، والدين كان دائماً تحت سيطرة الحكومة، وأي دين كان يخرج عن سيطرة الحكومة، وخاصة في البلاد السنية، كان يعتبر رجعية وتخلفاً[2].

---

(١) را: السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين بن عبد الحميد، منشورات الشريف الرضي، ص٣١١، ونشير هنا الى أن المأمون العباسي استعمل السلطة لفرض عقيدة خلق القرآن، ودعم مذهب المعتزلة، وجاء من بعده المتوكل العباسي ليفرض عقيدة أهل الحديث والسنة. وعموماً يمكن القول: إن أي حاكم سواء في العصر الأموي، أو العباسي، وصولاً الى عصرنا الحاضر، لا يعتبر نفسه شيئاً منفصلاً عن الدين، وهذا الأخير إنما يكون ديناً فيما لو كان صادراً عنه ومبرراً له.

(٢) انظر: هيكل، محمد حسنين، مدافع آية الله، قصة إيران والثورة، دار الشروق، ط٣، ١٩٨٣، ص٣١.

لسنا بوارد التأريخ لما مرّ به العالم الإسلامي من أحداث ووقائع، وما شهده من نظريات ومقولات دينية وسياسية، وإنما نريد فقط أن نبيّن ان خصائص الثورة الإسلامية في إيران ومميزاتها، تجعلها فعلاً فريدة من نوعها، لأنها جاءت من خارج تاريخ المسلمين، لتعبر عن تاريخ الإسلام كما كتبه الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام سواء من داخل السلطة، أو من خارجها.

وهنا قد يطرح السؤال التالي:

لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه السمات والخصائص؟

سؤال يدفع بالباحث والمؤرخ الى استحضار كل صور التاريخ، وما زخر به أحداث دينية وسياسية، ليرى ما إذا كان لهذه الثورة صوراً ونماذج تحاكي هذه الثورة وتماثلها من حيث المنطلق والهدف، ونتيجة هذا الاستحضار لا بد أن تكون التوصل الى الحقيقة التالية، وهي ان هذه الثورة تمتد عميقاً الى كربلاء، وتعبر عنها، سواء في المنطلق، أو في سير الأحداث، وفي النتائج التي انتهت اليها، لأن تاريخ المسلمين منذ كربلاء، وحتى اليوم، لم يشهد ثورة إسلامية تنتج دولتها الخاصة بها، ومشروعها المستقل (الإسلامي) وتخرج عما هو مألوف وتقليدي في تاريخ المسلمين، مما يؤكد ان الثورة الإسلامية في إيران هي امتداد لتاريخ الإسلام فيما عبرت عنه من استقلال وحرية في فهم الإسلام وتأويله، ومن ثم في تطبيقه، وليست امتداداً لتاريخ المسلمين وما حفل به من قيود واستغلال واستبداد. ومن هنا، نرى ان الإجابة على سؤال: لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه السمات والخصائص؟ تبدو ممكنة فيما لو عرفنا ان تاريخ المسلمين منذ كربلاء، وإلى عصر انتصار الثورة في إيران، شهد ثورات

وانقلابات كثيرة، وقد تكون جميعها حملت اسم الاسلام، ورفعت شعاره، لكن، في الحقيقة، لم تكن تلك الثورات تعبيراً عن الإسلام المحمدي الأصيل، وإنما كانت تعبيراً عن رؤية السلطان للدين والدنيا، وتبريراً لأهدافه من منطلق ان السلطان هو الإسلام، وهو الزمان، وهو إمام المسلمين. وقد ذكر المؤرخون انه حينما كانت تخرج الثورة من دائرة السلطان وما هو عليه من دين، كانت تتهم بالردّة، وبالخروج على إمام الزمان، وغير خفي على أحد ان الإمام الحسين عليه السلام نفسه قد اتهم بذلك، وقيل: انه خرج عن حده، فقتل بسيف جدّه[1]؟

إن تاريخ المسلمين منذ انتهاءالخلافة الراشدة، وإلى يومنا هذا، هو تاريخ السلطان، وفقهاء السلطان، ونظراً لما كان يمارسه السلطان من استبداد، فإن السيادة كانت له، ولم تكن للقرآن، وقد جاء في الأحاديث النبوية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، انه إذا افترق القرآن عن السلطان، فعلى الناس أن يكونوا مع القرآن، وما جرى في التاريخ الإسلامي، هو ان الناس، ولأسباب كثيرة، اتبّعوا السلطان، وتخلّوا عن القرآن، وإن شئت، فقل: إن الناس كانوا على دين ملوكهم، وإذا كانت هذه هي صفة الناس عامة قبل الإسلام وبعده، فإن هذا الأمر قد تغيّر كثيراً مع دخول الإسلام الى إيران، حيث تحوّل الناس جذرياً، كما رأينا سابقاً، نحو الإسلام، وأصبحت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة والمطاعة، ومع اتخاذ قرار

---

(١) غريب فعلاً ما ذهب إليه ابن كثير، فهو رغم اعترافه بأن «يزيد» كان إماماً فاسقاً، فإنه يعتقد ان الإمام الفاسق لا يعزل بمجرّد فسقه على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقع الهرج والمرج وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال وفعل الفواحش... انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٢٥. ورا: السيوطي، تاريخ الخلفاء، م. س، ص٢٠٥.

التشيّع رسمياً في بداية القرن السادس عشر ميلادي، ازداد الشعب الإيراني انسجاماً مع الإسلام، ولم يعد دين الملك هو المعيار والأساس في التزامات الشعب الإيراني، بل تحوّل الأمر، فأصبح المعيار في طاعة الملك وعدم الخروج عليه هو مدى انسجامه مع الإسلام وصدوره عنه في كل ما ينتهجه من سياسات، ويعالجه من قضايا وأحداث، ويمكن لأي باحث أن يمعن النظر فيما كانت عليه المؤسسة الدينية والفقهاء الشيعة من استقلال في علاقتهم مع السلاطين، سواء في العصر الصفوي، أو القاجاري، أو البهلوي، لكي تتبلور لديه فكرة وحقيقة ان الدين (الإسلام) لم يكن أسير السلطة ورهن مواقفها وإرادتها، يقول كوثراني: «في إيران كان الدين دائماً خارج سيطرة الدولة، وعلماء الدين لم يتقاضوا مرتبات من الدولة، كما هو الحال في بلاد المسلمين خارج إيران، حيث انهم كانوا يعتمدون في بقائهم على التبرعات الخاصة، وغالباً ما كان المرجع مستقلاً من الناحية المالية، وبالتالي، في إدارة حوزته ونمط تفكيره ومنهجه وطرائقه واجتهاده..»[1].

كان لا بد من هذا العرض المختصر عن حال المسلمين وما كانوا عليه في دينهم ودنياهم في تاريخهم، ذلك ان طبيعة البحث تقتضي ملاحظة كافة الأسباب والعوامل التي كانت تحول دون توقع ظهور ثورة إسلامية في إيران متميزة بخصائصها وسماتها عن سائر ما عرفته الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية من ثورات.

وإذا كانت طبيعة البحث قد اقتضت الإشارة الى خروج الدين من دائرة السلطة في إيران ليكون مستقلاً وحراً من حيث الدور والوظيفة

(١) انظر: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م. س، مأخوذ بتصرّف، ص١٤٩.
وقا: مع هيكل، قصة إيران والثورة، م. ، ص١٧٥.

والغاية، فإن ذلك يستتبع الحديث عن جملة من الأسباب والعوامل التي جعلت العالم المستعمر وغيره يخطىء في حساباته، ويخيب في توقعاته، كونه كان يعتقد ان الثورة في إيران، هي ضمن دائرة رصده للأحداث، ولا بد أن تسير في المسار المرسوم لها من قبله، وكانت النتيجة ما أحدثته الثورة من مفاجئات، مما أوقع العالم في حيرة وارتباك، ودفع بأعداء الإسلام والمسلمين إلى إعادة النظر بطرق التقييم وأساليب العمل. وهنا نكرر السؤال، لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه الخصائص والسمات؟؟

أولاً: المرتكز الاستعماري في فهم الثورات الإسلامية

لا شك في ان العالم المستعمر ودوائر استخباراته، وبكل ما أتيح له من وسائل وآليات عمل، كان في حالة رصد دائمة لمسارات الأحداث في العالم الإسلامي، وقد زودته إرساليات التبشير وكتب المستشرقين بكثير من الآراء والأفكار المغلوطة عن المسلمين سنة وشيعة[1]، وجعلته يقتنع تماماً بأن المسلمين ينشدون الحياة الصوفية، ويتجردون الى حد اتهام الجسد بالخطيئة، والحياة والعمل فيها بالمعصية، إلى ما هنالك من نظريات وأطروحات دينية، عززت لدى الغرب والاستعمار عموماً، بشقّيه الغربي والشرقي، فكرة ان الإسلام يشبه المسيحية فيما يدعو اليه من أعمال روحية، وتنافس على بناء مدينة الله، واعتبار العمل السياسي خطيئة ليس بعدها خطيئة. وهكذا، توالت أطروحات التبشير على الامبراطورية العثمانية، وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي امتيازاً في التبشير بالعلمنة والإصلاحات الدستورية. وما ان حلت الحرب العالمية الأولى، حتى

---

(١) را: أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، ج٣، ط٣، ١٩٨٣، ص١٨.

استبد الاستعمار بكل شيء، دون أن تظهر في الأفق ملامح أية حركة إسلامية، بل استمر تقسيم المنطقة، وتوارث النفوذ الى أن أعلن في تركيا نهاية الخلافة الإسلامية، وبعد إلغاء الخلافة ١٩٢٤م، صدر كتاب علي عبد الرزاق عام ١٩٢٥م، والذي بشر فيه بأن الدولة ليست من مقتضيات الدين، وان الرسول ﷺ لم يكن حاكماً سياسياً[١]. لقد تتابعت الأحداث لتصل الى صراعات الدين والعلمانية، والتقليد والتحديث[٢]، وما رافق ذلك من بروز اتجاهات منها ما يدعو الى القومية، ومنها ما يدعو الى الاسلام، وكانت النتيجة في جملة هذه الصراعات، القول تارة بحتمية الحل العلماني، وطوراً بحتمية الحل الاشتراكي، الى أن جاءت هزيمة ١٩٦٧م، واتهم الاسلام والتدين عموماً بأنه المسبب الرئيسي لها من قبل العلمانيين، حيث زعموا انه لو أن المجتمع المصري والمجتمعات العربية والإسلامية عموماً أخذت بالعلمنة لما وقعت الهزيمة[٣]، وفي مقابل ذلك، عاد المصريون والعرب عموماً الى الدين يبحثون فيه عن القوة بعد الهزيمة[٤]...

---

(١) انظر: علي عبد الرزاق، دراسة ونصوص لوجيه كوثراني، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٦٩ ـ ١٧٨.

(٢) را: أنور الجندي، سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني، ص١٥.

(٣) يذكرك أنور الجندي، ان هزيمة ١٩٦٧، استغلت لاطلاق صيحة علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين، وهذه الصيحة تعني ان مصدر النكسة هو تلك العقلية الغيبية (الاسلامية) وان تجاوز النكسة يقتضي القضاء على هذه الثنائية بين مفاهيم الإسلام والعلمنة الجزئية، حتى يكون هناك علمنة كاملة. انظر: سقوط العلمانية، م. س، ص٩.

(٤) يقول هيكل: ان القوات المصرية حينما اقتحمت خط بارليف في بداية حرب أوكتوبر، كانت ترفع شعار الله أكبر. انظر: قصة إيران والثورة، م. س، ص١٧٠.

لقد سعى الاستعمار جاهداً من أجل تكريس فكرة ان أوروبا تقدمت حينما تخلّت عن الدين، وإذا كان لا بد من تقدم المجتمعات الاسلامية، فما عليها إلا أن تسلك طريق العلمانية، وتتخلى عن الدين، وتبني نفسها على أساس النموذج الغربي في جميع شؤون حياتها.

كما سعى المستعمرون أيضاً، من أجر تعزيز فكرة ان الإسلام دين روحي، يخلو من نظرية في السياسة، وعلى هذا المنوال، انطلقت المساعي الاستعمارية لكي تحول دون أن يكون للإسلام أي دور أو تأثير في بناء المجتمعات العربية والإسلامية، لا في المجتمع ولا في الدولة. وهنا يمكن القول: انه توفر للمستعمرين عاملين أساسيين للتأثير على الشعوب الإسلامية، وضبط ثوراتها، وهما:

أولاً: العامل العلماني وغزوه للبلاد الإسلامية تحت شعار التقدم والتحديث.

ثانياً: العامل التقليدي والموروث في الفقه والسياسة الإسلاميين، والقاضي بحرمة الخروج على الحاكم الفاسق، واعتباره من أولي الأمر.

ومما لا شك فيه، انه بين غزو العلمانية، وجمود التحرك الثوري على أساس رؤى ومباني فقهية استطاع الاستعمار أن يضبط حركة الجماهير المسلمة، وان يحبس أنفاسها في دائرة الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية على أسس رأسمالية تارة، وعلى أسس إشتراكية طوراً دون أن تتعداها الى دائرة الإسلام وما يكتنزه من حلول لمشاكلها.

كما ان تحكم هذين العاملين بمفاصل الحياة الإسلامية، وبأطر تفكيرها، جعل العالم المستعمر يطمئن الى أن أية حركة في العالم الإسلامي كله، لا بد أن تكون مضبوطة الإيقاع ومعروفة النتائج، لأن

الإستعمار استطاع أن يضمن للحكومات القائمة في بلاد المسلمين استمرارها بما وُفِّرَ لها من دعم خارجي، وبما أُسبغ عليها من شرعية دينية من قبل فقهاء السلطة، الذين اقتصر دورهم على تبرير مشروعها، وتفسير الدين بحسب مصالح ومقتضيات السلطة السياسية الحاكمة، ومن يقف وراءها. . . !؟

لقد ارتكز الاستعمار القديم والحديث في فهمه للثورات التي كانت تقوم في بلاد المسلمين، الى ما دوّنته أقلام المسلمين أنفسهم، هذه الأقلام التي أظهرت الإسلام بمظهر العاجز عن بلورة مشروع للحكم، وعن مواكبة العصر وما يُفرزه من مشاكل اجتماعية واقتصادية، هذا إضافة الى ما يمنحه الإسلام من شرعية لأية حكومة تقوم في بلاد المسلمين، سواء عن طريق الانقلاب، أو عن طريق البيعة والاستخلاف، أو عن طريق القهر والغلبة، وكان يكفي الاستعمار لبلورة نموذجه في بلاد المسلمين أن يعزز دور الحكومة الموجودة، ويدعمها بكل وسيلة ممكنة لإبعاد الإسلام نهائياً عن حياة الناس.

والحق يقال: انه لم يتبادر الى ذهن المستعمر في يوم من الأيام أن تقوم ثورة في أي مجتمع إسلامي، ولا يكون محيطاً بكل وسائلها وأهدافها، وبالنتائج التي تنتهي الى تحقيقها، بل كان دائماً في موقع القدرة على فهمها، وتحريكها في ضوء ما يرسمه من أهداف وخطط للمجتمع والدولة في البلاد الإسلامية.

وهنا تجدر الاشارة، الى انه لم يكن خافياً على الاستعمار إمكانية الاستفادة من الموروث الفقهي والسياسي للمسلمين، وتوظيفه في مشاريع تخدمه وتحقق له رغباته في السيطرة الثقافية والسياسية والعسكرية، كون هذا الموروث قرأ بدقة من قبل المستعمر مما مكّنه من اعداد الأجهزة

اللازمة، لتفسير الاسلام وتأويله وفقاً لهذا الموروث، الذي يعزز دور الحاكم مهما كان وضعه الديني والثقافي، يقول الإمام الخميني (رض): «ألم يكن رضا خان من جهّال الناس، وها هو التاريخ يحدثنا عن جهّال حكموا الناس بغير جدارة ولا لياقة. . . »[1].

ومما لا شك فيه أيضاً، ان المستشرقين نقلوا ما كتبه الأشعري في المقالات[2]، وابن كثير في البداية والنهاية[3]، وكذلك كل ما كتبه فقهاء السلطة عن الاسلام والمسلمين، وما كتب بشأن الشورى، والحاكم، وكلها كتابات تمنع من الثورة، وترشد الى ضرورة الطاعة، وتؤكد على دور السلطان وأثره في بلورة النظرية الدينية، وهذا كله، كما رأينا، شكّل مرتكزاً أساسياً لفهم، ثورة في بلاد المسلمين، وساهم في إبراز دور الحكومات القائمة، وساعدها على الاستمرار في حكم الرعية، بغض النظر عما تعتمده من أساليب ودساتير وسياسات في حكمها.

ان الاستعمار القديم والحديث، لم يجد صعوبة في التحكم في مفاصل الحياة الإسلامية، لأنه وجد في الحكام المسلمين خير معين له على هذا الأمر، سواء أخذ المسلمون بالعلمانية أم لم يأخذوا، باعتبار ان تاريخ المسلمين، وقبل أن يظهر الاستعمار، يشبه الى حد كبير ما كان عليه

---

(١) را: الإمام الخميني (رض)، الحكومة الاسلامية، م. س، ص١٣٣.

(٢) را: الأشعري، مقالات الاسلاميين، دار الحداثة، بيروت، (لا ـ ت)، ج٢، ص١٢٥. وقا: مع ابن كثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٩، ج٣، ص٥٦٦.

(٣) را: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٢٥. ان أكثر النصوص الموروثة التي نقرأها في كتب المسلمين تلقفها الاستعمار وجعلها مرتكزاً لسياساته ومخططاته الاستعمارية، وكل هذه النصوص تدور حول محور الطاعة للحاكم مهما كان فاسقاً.

التاريخ المسيحي في القرون الوسطى، وإن أي تجديد في النظرية الإسلامية لم يحصل كيما يخشى الاستعمار على مصالحه، وكان يكفيه لأجل ذلك أن يتفهم فقط مكامن الخلل في الموروثات الإسلامية وما تعطيه للحاكم من حق مطلق في إدارة شؤون العباد والبلاد، حتى يحقق أمانيه وأحلامه في السيطرة على بلاد المسلمين، متسلحاً بفتاوى الفقهاء لقمع أية ثورة هادفة الى تحقيق إصلاحات معينة في المجتمع الإسلامي، وقد أشار مالك بن نبي الى قابلية المسلمين واستعدادهم لقبول ما هو غريب عليهم نتيجة لما هم عليه من خواء، فكري وروحي وثوري[١]، مما سهل على الاستعمار مهمة الدخول والسيطرة، تحت عناوين العلم والحرية وحقوق الإنسان، وأخيراً جاءت الديمقراطية الخاوية لتقضي على ما تبقى من مؤسسات سياسية ودستورية. وهنا تبدو لنا ملحوظة هامة جداً، وهي مساعدة المسلمين للمستعمر على إحكام الطوق السياسي والاقتصادي على بلادهم، تماماً كما حصل في بعض البلاد الإسلامية، كالجزائر مثلاً، التي حاولت الخروج من النفق المظلم لديمقراطية الغرب، لتدخل في موروث ديني وسياسي لا يقلّ خطراً عن الديمقراطية الخاوية، بدليل ما صدر من تصريحات وفتاوى تحت عناوين الاسلام، والحاكمية، مما أثار خوف الأقليات الدينية. ودفع بها الى أن تكون حذرة من المشروع الإسلامي الصاعد[٢]، هذا فضلاً عما أدلت به من تصريحات مخيفة بخصوص مسلمين آخرين.

---

(١) را: مالك بن نبي، شروط النهضة، دار دمشق، (لا ـ ت) ص١٧. حيث نرى حديثاً مسهباً عن داء العامل الاستعماري والسبل التي تبعها الغرب لطرق أبواب المسلمين.

(٢) انظر: كتابنا، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٦٧ ـ ٦٨.

فالاستعمار لم يطلع على دور مستقل للفقيه في حياة المسلمين، وأدرك بما لا يدع مجالاً للشك، بأن المؤسسة الدينية كانت ولا تزال محكومة للسلطان، وان لهذا الأخير حق الطاعة والتأويل والتفسير، وقد مرّت قرون من الزمن، والمسلمون يعيشون هذه الأجواء، ويبررونها، وأدرك أيضاً أن الثورات التي قامت ضد السلطة قُمعت وانتهى أمرها، وحكم عليها بالردّة والخروج على الدين وإمام الزمان، وهذا كله لم يعط للمستعمر فسحة لكي يحسب حساب لأية ثورة من خارج هذا التاريخ السلطاني، والذي لا يزال حاكماً حتى يومنا هذا في أكثر الحوزات والمدارس الدينية.

كما أنه لم يحسب حساب أن تخرج ثورة ذات أيديولوجية دينية تسمح بإعادة التشكل السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي في ضوء قوانين الإسلام وأهدافه، فقط هو كان يحسب حساب ثورات معينة تؤدي اليها أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية ضاغطة، لا تلبث أن تعود الحياة في ظل التنفس الاجتماعي والاقتصادي الى دائرة السلطة الحاكمة، ومن هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس انطلق الاستعمار في فهمه للثورة الإسلامية في إيران، فهو لم يرَ فيها خروجاً عمّا ألفته حياة المسلمين من ثورات وحركات إصلاحية، وعمّا شهده تاريخ إيران نفسها من ثورات ضد السلطة والسلطات كونه. إضافة الى أنه لم يخف على المستشرقين وكل مَن شكّل عيناً للإستعمار على طبيعة التحرك الشيعي لقرون من الزمن، ان يبينوا له مضمون النظريات الشيعية التقليدية عن الحكومة والدولة، وكل ما يمت بصلة الى العمل السياسي والتصدي له، بدءً من نظرية التقية، وانتهاءً بحرمة إقامة الدولة في عصر الغيبة، لما يعنيه ذلك من مصادرة لدور ووظائف الإمام المعصوم!

فليس التاريخ الإسلامي حكراً على طائفة أو مذهب معين، وانما هو تاريخ المسلمين جميعاً، وللمسلمين الشيعة في هذا التاريخ باع طويل في التنظير لما ينبغي أن تكون عليه الأمور في ظل أنظمة لجور، حيث انهم كانوا يرون التعاون معه من باب التقية خشية على أنفسهم من الهلاك، ولم يجيزوا في كثير من نظرياتهم إقامة الدولة والحكومة لما يقتضيه ذلك من ممارسة للولاية العامة على الأنفس والأموال الى غير ذلك من النظريات التي قرأت بدقة من قبل المتابعين للأحداث على الساحة الإيرانية.

وإذا كانت الساحة الإيرانية قد تميزت بانفصال المؤسسة الدينية والفقهاء عن السلطة والسلطان، ولعبت دوراً مميزاً في توجيه الشعب وإرشاده، فإن ذلك لم يكن يشكّل للإستعمار أي قلق بشأن إدارة الأزمة في البلاد الإيرانية، لأنه لم يكن هناك تبلور معيّن لمشروع إسلامي مميز في الحكم، وكانت تكفي بعض الألاعيب السياسية والدستورية لإخراج الفقهاء من الساحة، وإعادة الأمور الى نصابها السلطاني، كما حصل في انتفاضة الدستور، التي قادها العلماء، وانتهت لصالح السلطة الإستبدادية[1].

مما تقدم نستطيع القول: إن المرتكز الاستعماري لفهم الثورات في البلاد العربية، أو في تركيا أو في إيران، وفي العالم الإسلامي كله، كان واحداً. إذ أنه في الوقت الذي كان يبشر فيه بالقومية والعلمانية في البلاد

---

(١) عرفت انتفاضة الدستور ١٩٠٦ بالمشروطة، التي استهدفت أن تقيّد الشاه الإيراني آنذاك بشروط الدستور، وهي انطلقت في أواخر العام القاجاري (١٣١٥ - ١٣٢٥هـ) ونهض بها علماء الدين من أجل أن يحولوا دون استبداد الشاه غير أن الحركة انحرفت عن مسارها حينما تمخّضت عن مجلس نيابي مملوء بنواب عملاء مهزومين.

العربية، ويلغي فيه أتاتورك الخلافة في تركيا، كان رضا خان يزور تركيا، ويعبر عن إعجابه بالنموذج العلماني الذي اختارته تركيا[1]، وقد نتج عن ذلك انحسار للمفاهيم الأخلاقية والمبادىء والقوانين الإسلامية عن حياة الناس، بسبب ما أحدثته النظريات الفقهية والسياسية للمسلمين من فراغ من جهة، وبسبب الضغط المتزايد للعلمانية من جهة أخرى، وهذا كله أدى في النهاية الى استيعاب كل حركات التحرر في البلاد الإسلامية، وخاصة في إيران، التي شهدت الكثير من الثورات الإسلامية، ولكنها كانت تنتهي قبل أن تبلور أي مشروع سياسي يفضي بها الى الاستقلال، والخروج من عهدة الغرب أو الشرق. والسبب، كما ذكرنا، كان الاحتكام الى موروثات فقهية وسياسية لا تجيز العمل السياسي، ونفوذ دعايات الغرب فيما يتعلق بالفصل بين الدين والسياسة. وإذا تأملنا في وصية الإمام الخميني (رض)، فإنا نجد دعوة صريحة الى إصلاح الهيئات الدينية، وتطهير المراكز العلمية من عملاء الغرب والشرق، وطرد فقهاء القصور الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم. . . »[2].

ولا شك في أن عدم تصدي المسلمين لشؤون بلادهم، وتخليهم عن الإسلام فيما ينطوي عليه من دعوة الى إقامة الدولة ونصب الحكومة،

---

(١) ان زيارة رضا خان الى تركيا كانت بهدف اقتباس النموذج العلماني، وكان الهدف من تنصيبه في إيران عام ١٩٢٥م، ان ينفذ في إيران ما نفذه أتاتورك في تركيا، لكنه فشل بسبب مقاومة علماء الدين، ومن جملة الأعمال التي قام بها، فرضه السفور الإجباري، وإرغام علماء الدين على خلع اللباس الخاص بهم، وهمَّ بتبديل الحرف العربي في اللغة الفارسية الى حرف لاتيني. وهنا نشير الى ان نهايته كانت على أيدي أسياده، وذلك حينما فشل في تنفيذ مهمتهم سنة ١٩٤١م ومات سنة ١٩٤٤م.

(٢) را: الامام الخميني، الحكومة الاسلامية، م. س، ص١٣٢.

أفسح في المجال أمام الاستعمار كي يملأ الفراغ الحاصل بأفكاره وسلعه، وأعطاه المزيد من الفرص لكي يحوّل القرآن الى وسيلة للتفرقة، وهذا ما أسف له الإمام الخميني (رض) بقوله: «والمؤسف ان القرآن الكريم، الذي يجب أن يكون وسيلة لجمع المسلمين والبشرية، وكتاب حياتهم، أصبح وسيلة تفرقة واختلاف، إو انه هجر كلياً..»[1].

إذن، المرتكز الإستعماري في فهم وكشف الثورات في بلاد المسلمين، كان يقوم على أساس فهم دقيق لما تنطوي عليه نظريات المسلمين في الدولة والحكومة من جمود، وعلى ما تسببت به الحكومات الثيوقراطية من مآسي للشعوب الإسلامية، مما كان يضطرها دائماً الى القبول بأي متنفس من أي جهة أتي، هذا فضلاً عما تسالمت عليه هذه الشعوب من خلوّ الإسلام من نظرية في الحكم والدولة مخالفة لما ألفوه من حكومات ودول في تاريخهم، ولو أن المسلمين احتكموا الى الإسلام جيداً، واستفادوا من تجربة الحكم زمن الرسول ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام، لاستطاعوا أن يفصلوا بين الدين، وبين تفسير السلطان له، ولما كانوا قدموا للمستعمرين فرصة الغزو الثقافي والسياسي والعسكري... الخ، ولوفروا على أنفسهم عناء الاحتكام الى الموروثات الفقهية الجامدة، التي ساعدت الاستعمار على تقديم صيغ جاهزة للحكم تحت عناوين الديمقراطية، والدستورية، وحقوق الإنسان، وغير ذلك مما يتضمنه الإسلام، ويدعو الى تحقيقه. ولكن حال دون ذلك وجود سلطات استبدادية، منعت من تأويل نصوص الشورى على نحو يؤدي الى تداول السلطة، وقيام مؤسسات دستورية.

---

(١) انظر وصية الإمام الخميني، النداء الأخير، م. س، ص٨.

إن الاستعمار الغربي، وكذلك الشرقي في أوج قوته لم يتوقع أن تأتي الثورة الإسلامية في إيران من خارج الموروث الفقهي والسياسي للمسلمين في تاريخهم، وأكثر ما كان يتوقعه ان تنتهي هذه الثورة الى المصير ذاته الذي انتهت اليه الثورات السابقة في إيران، وقد يصحْ القول: انها ثورة جاءت من خارج تاريخ المسلمين، سواء الشيعي أو السني، الذي قرأه الاستعمار وارتكز اليه في فهم أي تحرّك شعبي في بلاد المسلمين. فالثورة جاءت من تاريخ الحسين عليه السلام الذي كان يُنظر إليه على أنه تاريخ مضى، وأثر جامد، ولم يكن أكثر من مجرد حدث وطريقة انتحارية في التعبير عن موقف اقتضته ظروف وأوضاع المسلمين في ذلك الزمن، ولو أن الاستعمار ارتكز الى تاريخ الإسلام، وعرف حقيقة ما ينطوي عليه من عبادات وسياسات ومعاملات، لما كان اطمئن كثيراً الى الثورة الاسلامية في إيران، أو على الأقل لما كان أخذ هذه الثورة بكل أحداثها بجريرة ثورات سبقتها، ولكن كما رأينا، جاء حكمه عليه في ضوء التاريخ والجغرافيا وسيادة الأقطاب والأحلاف، وانقسام العالم بين الغرب والشرق، فأبعد عن مراكز رصده للأحداث أية إمكانية للتخلف عما هو سائد من نماذج رأسمالية واشتراكية، وكانت النتيجة، أن خرجت الثورة، وتبلور مشروعها في ضوء النظرية الاسلامية الكاملة، وعبرت عن نفسها من موقع وسطيتها، بعيداً عن سياسات الغرب والشرق، مما شكل مفاجأة، بل صدمة لكل العالم جعلته يرتبك إزاء ما قدمته هذه الثورة من نموذج للحكم الإسلامي يقابل الغرب والشرق معاً.

ثانيا: الإمام الخميني (رض) وحتمية الحل الإسلامي

لقد وصل المسلمون الى قناعة تامة في ستينات هذا القرن، بعد فشل النماذج الغربية والشرقية في إيجاد الحلول المناسبة لما عرض من مشاكل اقتصادية واجتماعية.. الخ، تتلخص بضرورة الاحتكام الى الإسلام، وتطبيق الشريعة، وإقامة الدولة الإسلامية، وقد قاد مشروع الحل الإسلامي مجموعة الحركات الإسلامية في العالم العربي، وخاصة في مصر، التي شهدت صراعات محمومة بين دعاة الحل الإسلامي، وسائر التيارات الأخرى، القومية والعلمانية، هذا فضلاً عن الصراع بينها وبين النظام الحاكم. وهنا تجدر الإشارة الى أن حتمية الحل الإسلامي طرحت في آفاق وأجواء غير مؤاتية، وفي ظل دعوات متناقضة بين تيارات لا تجتمع على هدف، مما أدى الى مزيد من التعقيدات في أكثر من بلد إسلامي، بل الى مزيد من العنف المتبادل، وكانت نتيجة ذلك اضطراب المجتمعات الاسلامية، ووضع الاسلام في مواجهة الشعوب الاسلامية، كما حصل ويحصل في الجزائر وأفغانستان، وغيرهما[1].

---

(١) انظر: فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة عند شمس الدين، دار =

إن ميزة الإمام الخميني (رض) والثورة الإسلامية في إيران، هي انها نشدت الحل الإسلامي، كما ذكرنا، من خارج تاريخ المسلمين، وفي ضوء تبلور مشروع إسلامي للحكم دعمته كافة التيارات والأحزاب والمذاهب الإسلامية في إيران، وجعلت الإسلام في مواجهة الاستعمار بشقيه الغربي والشرقي، وهذا ما لم يحصل في أي بلد إسلامي.

وإذا كان الاستعمار قد ارتكز في فهمه للثورة على موروثات في الفقه والسياسة، واستطاع أن يشق الحوزات الدينية والمراكز العلمية بدعواته المزيفة للحيلولة دون وصول العلماء الأحراء الى السلطة، فإن الإمام الخميني (رض) عرف كيف يخرج على هذا الموروث في الفقه والسياسة، ويطرح الإسلام بقوة بكل ما ينطوي عليه من مبادىء وقوانين، كما أنه بيّن للشعب الإيراني خاصة، وللشعوب الاسلامية مدى الفرق بين الإسلامي الأمريكي، الذي يُعمل على فرضه، وبين الاسلام المحمدي الذي أثبت قدرته على بعث خير أمة في تاريخ البشرية.

لذا، فإن حتمية الحل الإسلامي في إيران والعالم، لم يطرحها الإمام الخميني (رض) من فراغ، أو في ضوء ما شهده العالم الإسلامي من تجارب سياسية، أو من خلال استغلال فشل النماذج الشرقية أو الغربية، وانما طرحها من منطلق ان الاسلام جاء لإسعاد البشرية، ولا بد أن يتدخل في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية والمادية والمعنوية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، ويشرف عليها، فهو، أي الإسلام لم يهمل شيئاً مما له دخل في تربية الإنسان والمجتمع، ونبّه على الموانع

= الهادي، بيروت، ١٩٩٥م.

والمشكلات التي تعترض طريق التكامل في المجتمع والفرد، وعمل على رفعها[1].

وما يلاحظ أيضاً من سيرة الإمام (رض) وآرائه حول الإسلام ودوره في قيادة المجتمع البشري الى الرخاء، هو قفز الإمام (رض) فوق كل المراحل التاريخية، وكل النظريات الفقهية والسياسية الداعية الى طاعة السلطان مهما كان وضعه الديني، إضافة الى النظريات التي تحرم الخروج عليه، أو النظريات التي تحرم إقامة الدولة قبل ظهور صاحب الزمان، هذه الدعوات كلها، والتي ارتكز اليها الاستعمار في فهمه لطبيعة تحركات الجماهير، استطاع الإمام (رض) أن يكشف زيفها، وأن يسلّط الضوء على جوهر الإسلام وما يدعو إليه من حرية وعدالة ومساواة واستقلال وشهادة ووسطية، كما انه سلط الضوء أيضاً على ما تعج به الحوزات العلمية من دعوات لخدمة الاستعمار في العالم الإسلامي كله، وقد وعى الشاه ومَن وراءه حقيقة أهداف السيد الخميني (رض)، نحرك أبواق دعايته الدينية والسياسية لتضليل المسلمين ولبس الأمر عليهم في مختلف قضايا الدين والسياسة.

ومن مميزات الثورة الإسلامية أيضاً، نرى انه في الوقت الذي وعى فيه الشعب حقيقة الاسلام المحمدي الأصيل، الذي دعا الامام الخميني (رض) الشعب الى الإلتزام به، كانت دوائر الإستعمار لا تزال في حيرة من أمرها، حيث انها اعتقدت أن الأمور لا تزال في نطاق السيطرة، وانه يمكن استيعاب التحرك الثوري بمزيد من الشعارات الفضفاضة، ولم تكن تتصور أبداً أن يصل الأمر الى حدّ القطيعة مع الغرب والشرق، في

---

(١) الإمام الخميني (رض)، الوصية التاريخية، النداء الأخير، م. س، ص٢٦.

زمن كان من المستحيل فيه على أي شعب الاستقلال في جميع شؤونه، والوقوف بوجه ما كان يسمى آنذاك بالجبارين! .

انها حقيقة ناصعة في تاريخ الشعب الإيراني، وفي تاريخ ثورته، وإذا كنا قد تساءلنا، لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه السمات والخصائص؟ فإنا نعيد التأكيد على أن عدم التوقع هذا كان ناشئاً من طبيعة الظروف والأوضاع التي كانت تحكم زمن بداية الثورة، فكل دوائر الاستعمار كانت ترى في الثورة مجرد تعبير احتجاجي على سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ولم تكن تدري ما يكون للإسلام من أثر في تحول الشعب جذرياً، باتجاه نشدان الحل الإسلامي، والكفر بكل النظريات والأيديولوجيات التي كانت سائدة في إيران. إن كل ما كان يمكن تصوره في زمن انتصار الثورة من قبل المستعمرين، هو الخضوع مجدداً للحل الرأسمالي/ الليبرالي، أو للحل الاشتراكي، نظراً لهيمنتهما على العالم. أما ان تتحول الثورة باتجاه الحل الإسلامي لتمثل مشروعاً حضارياً مختلفاً عن الواقع الحضاري السائد، فذلك مالم يكن متوقعاً، لأن تاريخ إيران، وكذلك، تاريخ العالم الإسلامي كله، لم يسبق له أن شهد مثل هذه الثورة فيما انطلقت منه وعبرت عنه من رؤى وأهداف.

من هنا، فإنه لم يكن متوقعاً أن يتبلور مشروع إسلامي للحكم، ولا الخروج على الموروثات الفقهية والسياسية، التي احتكم اليها كل من الشيعة والسنة في التعامل مع الحاكم الجائر. والحق يقال: ان المفاجأة لم تكن للمستعمرين وحسب، وانما كانت للمسلمين أيضاً، حيث أنهم لم يتوقعوا أن تبرز حتمية الحل الإسلامي بهذا الشكل، أو أن تأتي ثورة من خارج النمط الحضاري السائد في الغرب، أو في الشرق.

ولسنا نبالغ إذا ذهبنا الى القول، بأن الحركات الاسلامية في العالم

الاسلامي عادت بعد انتصار الثورة الى قراءة الإسلام، ومحاكمة تاريخها في ضوء انتصار الثورة، وعرفت ان الإسلام ليس مجرد دين روحي، أو تعبير صوفي، وإنما هو عقيدة وشريعة ونظام حكم، وهذه العودة الى الذات والتاريخ، ساهمت الى حد ما في وضوح الرؤية وعززت الروح الإسلامية لدى الشعوب، ودفعت بها الى نشدان الحل الاسلامي أسوة بالشعب الإيراني، الذي تجاوز ذاته الى العالم بما حققه من إنجازات حضارية، وتحققات روحية ومعنوية.

إن نشدان الحل الإسلامي، والقول بحتميته، لا يمكن أن يكون كيفما اتفق، بل لا بد من اجتماع الشعوب وتوحدها، وذلك يقتضي مزيداً من الوعي والوضوح في الرؤية والهدف، لأن الاستعمار عاد ليقرأ الشعوب الاسلامية في ضوء المبادىء والشعارات التي رفعتها الثورة الاسلامية، بعد أن تربع لقرون من الزمن على تاريخها الجامد، مستلذاً بدعواتها، ومطمئناً الى انعدام تشكلها السياسي والثقافي في ضوء الإسلام، فهو منذ اللحظة الأولى لانتصار الثورة بقيادة الفقهاء، تيقن ان الإسلام الحقيقي ليس ما كتب في التاريخ بأقلام المساومة والمهادنة والمصانعة والمضارعة، وانما هو ما كتبه الرسل والأنبياء والأولياء، ولم يعد لديه المزيد من الوقت لإطفاء شعلة الإسلام في البلاد الاسلامية، وأدرك أيضاً انه مثلما كان حاكماً في تعامله مع فقهاء السلطة، فهو اليوم مضطراً للتعامل مع سلطة الفقهاء، مع فارق وحيد هو انه في ظل فقهاء السلطة كان حاكماً، أما في ظل سلطة الفقهاء فهو محكوم.

ويضاف الى ذلك، أن الثورة الإسلامية في إيران، وضعت الأمة الإسلامية كلها وجهاً لوجه مع الإستعمار، خلافاً لما كان عليه الحال في

السابق، حيث كانت الأمة مدجّنة من السلاطين، ومغلوبة على أمرها، وموضوعة في مواجهة نفسها، ومما لم يكن يتوقعه الاستعمار أيضاً، أن تتحول حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين الى كرة من اللهيب في وجه الصهاينة، وأن تتحول المقاومة الإسلامية في لبنان الى كابوس على صدر الصهاينة، كما انه لم يكن متوقعاً أن تتحول الثورة الاسلامية في إيران الى مركز جذب لكل الشعوب المستضعفة في العالم.

غاية القول: إن امتياز الثورة الاسلامية بكثير من الخصائص والسمات، جاء نتيجة طبيعية لوعي الشعب الإيراني وتشكله في ضوء تعاليم ومبادىء وقيم الإسلام، وأي شعب في العالم يدرك ماهية قوانين الإسلام، لا بد أن يدفع به إدراكه الى طلب الحرية والعدالة والاستقلال. وبما أن الشعب الإيراني كان سباقاً الى ذلك، فلا بأس أن تقتدي به الشعوب، وترسم لنفسها خطاً وسطاً في سياساتها وعلاقاتها، من منطلق ان الأمة الإسلامية هي أمة الوسطية والشهادة.

كان المتوقع للثورة الإسلامية في إيران، أن تنحصر داخل حدودها، فلا تتعداها الى الخارج، ولكن عالمية المبدأ الذي انطلقت منه، والذي هو الإسلام، جعلها تضيق بكل أطر القومية والعنصرية والعرقية، وتتسع لكل المبادىء والقيم الإنسانية، باعتبار أن الإسلام عالمي في كل ما يدعو له، ودولة الإسلام لا بد أن تذوب فيها فوارق الأجناس والأوطان والألسن والألوان، حيث يوحد بين أبنائها الإيمان بالله تعالى خالق الكون والإنسان، وغير خفي على أحد أن عالمية الدولة الاسلامية ومبادئها، وكذلك حضارتها لا تنحصر بالمسلمين وحدهم، وانما تتعداهم الى سائر الأمم والشعوب، كونها منطلقة من طبيعة الإسلام، باعتباره رسالة لكل الناس، إضافة الى كون هذه الرسالة هي الأطروحة النهائية في سلسلة

أطروحات الحياة لمسيرة التكامل الإنساني، حيث قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾[1].

وهنا، نرى ان ما عرف بتصدير الثورة الإسلامية، لم يكن يعني إطلاقاً تجاوز هذه الثورة، ومن ثم الدولة الإسلامية لذاتها مادياً، بحيث تنقل نموذجها، وتتدخل في شؤون الآخرين، وخاصة المسلمين لفرض النموذج الحضاري الإسلامي عليهم[2]، بل يعني تحول النموذج الإسلامي في إيران بجميع محاسنه الى مركز جذب، وملفت أنظار، بعد أن تثبت الثورة، ومن ثم الدولة بالتجربة العملية ان الاسلام نظام حياة يتمثل في مؤسسات سياسية وفي نهج حضاري، يُنشىء الأمة الشاهدة، والأمة الوسط في سياستها وحضارتها ونمط حياتها. إن ما لم يكن متوقعاً عند المستعمرين هو هذا، ان تتحول إيران الى انموذج عالمي يظهر بدوره وفعاليته ونمط ترجمته هشاشة وضعف كل ما شهده العالم من نماذج اشتراكية ورأسمالية، بحيث يكون الإسلام هو النموذج الأول والأخير في حياة الشعوب.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) هناك فرق كبير بين تصدير الثورة، التي هي ملك لجميع المستضعفين في العالم، وبين تصدير النموذج، نموذج الدولة الإسلامية، الذي هو الميزة الحيوية الأساسية لخط الإمام الخميني (رض) والمحور الذي تتمحور حوله وتعمل في خدمته كل الميزات الاخرى.

ثالثاً: ديمومة الثورة وخسارة الرهان

بعد مرور عقدين من الزمن على انتصار الثورة الإسلامية في إيران، نرى ان الثورة بكل إنجازاتها لا تزال حية ومتوهجة، ولم تؤثر على نموها كل العقبات التي وضعها الاستعمار في طريقها. فهي متميزة، كما نعلم من حيث كونها ثورة كل الشعب الإيراني بكافة مذاهبه وتياراته، وليس من السهل والممكن أبداً أن تتراجع الثورة ما دام الشعب الإيراني مجمعاً على متابعة الطريق حتى تحقيق الأهداف المنشودة.

فالإستعمار خسر رهانه على سقوط الثورة، بعد أن كان يظن ان لديه من الوسائل والامكانيات ما يكفي لاستيعابها والاستفادة منها الى أقصى الحدود في مواجهة المدّ الشيوعي آنذاك، لأنه لم يكن يتخيّل أبداً أن تأتي هذه الثورة من خارج النمط الحضاري السائد، أو أن تتبلور لدى شعب إيران رؤى وأفكار ومشاريع من خارج المنظومتين الرأسمالية والاشتراكية، باعتبار أن طبيعة الأحلاف التي كانت قائمة، والهيمنة الاستعمارية على العالمين العربي والاسلامي من خلال وجود قواعد عسكرية في البلاد الإسلامية، لا سيما في إيران وتركيا، كل ذلك كان يدفع

بالغرب والشرق معاً الى استبعاد أي لون من ألوان الاستقلال، لأي بلد من البلدان الإسلامية، وهنا يمكن أن نطرح السؤال التالي: لماذا لم يتسن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟

في الإجابة على هذا السؤال، لا بد من الإشارة الى ان هناك جملة معطيات تكونت لدى المستعمر، وخاصة الولايات المتحدة، وحالت دون التفكير جدياً فيما يمكن أن تؤول إليه حركة الشعب الإيراني من استقلال وتحول جذري نحو الإسلام، وبالتالي، لإقامة الحكومة الاسلامية، ومن جملة هذه المعطيات، ان الغرب، تحديداً، استطاع في خلال فترة هيمنته، ان يؤسس لمشروعه في إيران بالاعتماد على نخب وطاقات في المجتمع والدولة، ولم تكن الجامعات والحوزات العلمية بعيدة عن بريقه، ويضاف الى ذلك مؤسسات الجيش والقوى الأمنية وأجهزة كثيرة أخرى كانت كلها تحت وصايته.

فالمعطى الأول الذي كان يملكه الغرب، هو أن إيران بحاجة الى كفاءاته العلمية والإدارية والفنية، في مجال النفط والطيران، وأوجه التسلح كافة، هذا فضلاً عن الحاجة إليه في مجالات أخرى، من قبيل الأمن والسياسة الخارجية والدفاع في مواجهة النموذج الاشتراكي، وهذا المعطى لا تزال أكثرية الدولة العربية والإسلامية تنظر إليه بواقعية تامة. والمعطى الثاني الذي كان يملكه الغرب، هو أن إيران سبق لها أن شهدت ثورات كثيرة نتيجة لعوامل اقتصادية واجتماعية، ولكن دائماً كان يتم استيعابها بطرق وأساليب مختلفة سياسية وعسكرية، ودبلوماسية مرتكزة الى شعارات واهية حول الديمقراطية والحرية، والدستورية، وما إلى ذلك، وفي أجواء هذا المعطى تدخل أيضاً المسألة الدينية، ودور فقهاء الدين في إيران، حيث ان الثورات كلها كانت بقيادتهم، ولم يتصدَّ أحد

منهم للعمل السياسي وإقامة الدولة[1]، بل كان يقتصر دور الفقهاء والمراجع الكبار على الفتيا والقضاء وتأديب السلطان في حدود القدرة على ذلك، كما حصل في ثورة التنباك، وثورة الدستور، وثورات أخرى، خلت شعاراتها وعناوينها من إقامة الحكومة الاسلامية، ولعله من المفيد القول، بأن التجربة الدينية الثورية في إيران، قد كشفت للمستعمر حاجة الفقيه للسلطان، وليس العكس، بدليل ان التجارب كلها في تاريخ إيران، وتحديداً في العهود الثلاثة، الصفوي، القاجاري، البهلوي، لم تؤدِ الى تصدي الفقيه لشؤون الدولة إلا في حدود ما كان يرغب السلطان به، وهذا ما يمكن استفادته أيضاً مما ذكره الشيخ رفسنجاني من أن أمريكا كانت تحسب أن دور علماء الدين لا يتجاوز تدبير الناس عبر النصيحة، ولا يمكنهم أن يؤدوا دورهم دائماً. . .[2].

إن أحداً لا يمكنه أن يتجاوز الحسابات الأمريكية في بداية الثورة، والتي كانت نتيجة لأبحاث ودراسات نظرية وميدانية استغرق القيام بها زمناً طويلاً، لأن عدم التجاوز يسمح لنا بالتساؤل عن الأسباب التي كانت تدفع

---

(١) هناك موروث فقهي لا يستهان به يمنع من العمل السياسي، ويرى في إقامة الدولة، أو السعي لإقامتها حرمة شرعية، وقليل هو عدد الفقهاء الذين قالوا بوجوب السعي لإقامة الدولة، ومنهم من قال بجواز ذلك. وقد رأينا في أبحاث سابقة ان الفقهاء الذين قادوا الثورات في تاريخ إيران، لم يكونوا بوارد إقامة الدولة الإسلامية، ونصب الحكومة. وكل ما كانوا يهدفون اليه هو تقييد السلطان بالدستور ومجلس فقهاء لمراقبة القوانين، وهذا أدى بالثورات الى أن تنجح في البداية دون أن يكون لديها أي أفق استراتيجي، مما كان يسهل على السلطان القيام بعملية التفاف على الفقهاء والثورة لتكون في صالحه.

(٢) انظر: رفسنجاني، هاشمي، خطبة الجمعة، كتاب الثورة الإسلامية، عقبات ومكاسب، مركز اعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الإسلامية، طهران، ١٤٠٤، ص١٢.

بأمريكا، وفق حساباتها، الى الاعتقاد بأنها ستعود بسرعة الى إيران لبسط نفوذها مجدداً بعد الثورة، وكما يقول رفسنجاني: «إن أمريكا، وفق حسابات معينة، كانت تعتقد ان الثورة لم تخسرها شيئاً، وان هناك مجموعة أشخاص جاءوا على هذا النحو الفوضوي، وحصلوا على هذه النتائج والمراكز»[١].

أما إذا تجاوزنا الحسابات الأمريكية والاستعمارية عموماً، والتي كان يحتكم إليها في التعامل مع الثورة، فإننا لن نستطيع التعرف الى أسباب كثيرة حالت دون السيطرة على الثورة بعد اندلاعها وانتصارها، كما ان من شأن ذلك أن يحول بيننا وبين سؤال، لماذا كانت الحسابات الأمريكية تؤكد ان أمريكا ستعود الى السيطرة على الثورة في إيران!

ووفقاً لما تقدم، نحن نرى ان أمريكا ارتكزت الى موروثات التاريخ الإيراني، وتجاربه الدينية والسياسية، ولم تكن تدرك ان دور علماء الدين يمكن أن يتجاوز هذا الموروث، أو ان تندفع الروحانية الصافية باتجاه إقامة الحكم الإسلامي على أساس ولاية الفقيه، فأمريكا، كانت غريبة تماماً عن حكم الفقهاء، وعن مبدأ ان الفقهاء حكام على الملوك، فهي قرأت عن الفقهاء وتجاربهم مع السلطة وصراعاتهم معها، سواء في عصر النفوذ الروسي، أو عصر النفوذ الإنكليزي، أو في عصر النفوذ الأمريكي، ولم تجد في هذه التجارب والصراعات أفكاراً وآراء تشبه أفكار وآراء الإمام الخميني (رض)[٢].

---

(١) م. ع، ص. ن.

(٢) بتعبير واضح: أمريكا في حساباتها وقبل ذلك في دراساتها عن إيران وما شهدته من ثورات وأحداث كانت تملك فكرة واضحة عن حدود الثورة الدينية، وما يمكن أن يقوم به الفقهاء من دور في الحياة السياسية، ولم تكن تملك أفكاراً، ولو =

لقد اطمأنت أمريكا الى الثورة، واعتبرتها مجرد احتجاج على أوضاع وظروف اجتماعية واقتصادية، ورأت شعاراتها الدينية لا تعدو أن تكون وسيلة لتحقيق بعض الاصلاحات الإدارية والسياسية وغير ذلك مما كانت تنتهي إليه ثورات سبقتها في الاحتجاج، ولكن الأمور لم تكن كذلك إطلاقاً، والاطمئنان الأمريكي، لم يكن في محله، إضافة الى أن الحسابات هي أيضاً لم تكن دقيقة، وأسباب ذلك برأينا، هي ان الإدارة الأمريكية لم تأخذ بالحسبان وجوه أخرى للتجارب الدينية والسياسية في إيران، وأغفلت في دراساتها ومن ثم في حساباتها جانب استقلال المؤسسة الدينية ودورها الفعال في صياغة وتأليف الأفكار السياسية المناسبة تماماً لطبيعة التشكل الديني والثقافي للمجتمع الإيراني، كما انها أغفلت جوانب كثيرة، منها ما يتعلق بالشعب الإيراني وتجاربه الرائعة والناجحة في مواجهة السلطان، ومنها ما يتعلق بوعي الشعب وقدرته على تجاوز إخفاقاته، لأن الإنسان لا يلدغ من جحر مرتين، ويضاف الى ذلك كله ما يتعلق بالجانبن الأهم في الحياة الإيرانية، ونعني به دور الفقهاء، والمؤسسة الدينية عموماً، في بلورة مشروع إسلامي للحكم يحفظ منجزات الماضي، ويؤسس لحياة دينية وسياسية مستقلة عن الشرق والغرب معاً.

= بسيطة، عن أي تحول جذري في الرؤية نحو إقامة دولة على أساس ولاية الفقيه، وكثيراً ما عبر عملاء الاستعمار في إيران عما كانوا يحسبونه، حيث رأوا أن الإمام قاد الثورة وانتصر، وعاد الى قم، بل كانوا يصرون على بقاء الإمام في قم وان لا يعمل أي عمل مطلقاً، وكلنا يذكر تلك الثورة على مادة متعلقة بولاية الفقيه، فتحرك علماء دين ورجال سياسة ليعلنوا فتاوى ترفض المادة وتعتبرها نوعاً من الديكتاتورية. غاية القول: ان أمريكا أدركت مع انتصار الثورة أن الحسابات ما قبل الخميني شيء، ومع الخميني وبعده شيء آخر.

إن إغفال هذه الجوانب في الدراسات الأمريكية، ومن ثم في الحسابات، أدى الى أن تكون أمريكا الخاسر الأكبر في انتصار الثورة الإسلامية، بعد أن كانت تعتبر نفسها الكاسب الأكبر نظراً لظروف وأوضاع كثيرة كانت تحتم أن يكون الأمريكا الحظ الأوفر في العودة الى إيران، كون الثورة وفقاً لحساب الغرب، لا تملك مقومات البقاء الضرورية (الجيش، الشرطة، الحزب، التشكيلات الإدارية، المدراء، التنمية الإدارية، الأفراد الفنيين..[1].

لذا، فإن السؤال، لماذا لم يتسن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟ تبقى الإجابة عليه رهن تفهم ما كانت ترتكز اليه الحسابات الأمريكية، ومن ثم طبيعة التغييرات التي طرأت على الساحة الإيرانية، وجعلت الحسابات الأمريكية تخطىء هدفها، وتنعكس على مصالح أمريكا بالسلبية المطلقة، وبالضرر الفادح، الذي لم يسبق لأمريكا أن تعرضت له منذ زمن طويل.

هناك جملة أسباب تكمن وراء عجز أمريكا عن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها، منها، ان أمريكا ومَن يدور في فلكها عجزت عن استيعاب التحرك الشعبي في إطار مشروعها، لأنها وجدت نفسها أمام معطيات دينية وسياسية مختلفة عما كانت تتصوره وتبني حساباتها على أساسه، فهي في الوقت الذي كانت ترى الفقيه فيه مستقلاً عن السلطان، أو تابعاً له في العهود الماضية، نظرت، فإذا بها أمام سلطة الفقيه وقيادته لدفة الحكم في إيران، وهذا الأمر بحد ذاته شكّل منعطفاً خطيراً، سواء في الحياة الإيرانية، أو في نظرة الغرب اليها، وأدى الى أن تكون أمريك، بل الغرب والشرق معاً في بوتقة واحدة لقراءة الحدث ومتابعته، ومعرفة مفاعيله في

---

(١) الثورة الإسلامية، عقبات ومكاسب، م. س، ص١٣.

الداخل والخارج، إذ أنه لأول في تاريخ إيران والعالم الإسلامي، بعد انهيار مؤسسة الخلافة في تركيا، تظهر ملامح المشروع الإسلامي للحكم في وقت كانت فيه أمريكا تملك بعض المعطيات عن انهيار المنظومة الاشتراكية، وتعد نفسها لحكم العالم بأنموذجها الليبرالي، ولكنها كانت مسبوقة في ذلك، ومقروءة في كل ما كانت تعد نفسها له من ليبرالية وعولمة ونظام عالمي جديد، حيث أظهر الإمام الخميني كفاءة عالية في فهم الحسابات الأمريكية، وفي كشف مخططاتها، بدليل انه حذر الزعيم الروسي آنذاك كورباتشوف من السقوط في الرأسمالية وواعداً إياه بأن الرأسمالية ستلقى المصير نفسه الذي لاقته الشيوعية والمنظومة الإشتراكية.

وهكذا، بدأت منظومة الغرب تتعرف على شيء جديد في عالم المسلمين، لا يشبه القرون الوسطى المسيحية والإسلامية، ولا يتبنى نظرية سائدة في الغرب أو الشرق. وهذا الشيء الجديد هو الإسلام، الذي عملت أمريكا ولفترة طويلة من الزمن من أجل تحريفه وتشويهه حتى لا يشكّل في يوم من الأيام نموذجاً، أو أطروحة حيّة تلجأ اليها الشعوب الاسلامية لفك أسرها، وتحقيق استقلالها. . .

ولا شك أيضاً في ان تغيّر الحسابات، وتبدل الاتجاهات، لم يدفع بأمريكا الى حافة اليأس، بحيث تمتنع عن محاولاتها للسيطرة على الثورة ومنعها من تحقيق أهدافها المستقلة عن الغرب والشرق، وكان من جملة محاولاتها المباشرة[1] حجز الأموال في أمريكا، وبدأ الحصار

(١) كانت لأمريكا محاولات غير مباشرة للنيل من الثورة، ترتكز الى قواعدها في الجامعات، والحوزات العلمية، إضافة الى ما دسته في الجيش من عناصر سيئة حاولت القيام بانقلابات عسكرية، ولا يغرب عن بالنا أيضاً تفجير مبنى الحزب =

الاقتصادي، إضافة الى الانقلاب العسكري في فوجه، وتلك الحملة الفاشلة في طبس، وهذا كله كان عملاً رسمياً من قبل أمريكا.

ولما لم تنجح هذه المحاولات كلها، المباشرة وغير المباشرة، للسيطرة على الثورة، أو على الأقل لتحديد وجهة سيرها، بحيث تكون مضبوطة الحركة والتوجه، فقد بدأ الاعداد للاعتداء العراقي، الذي كان قد حان وقته لضرب الثورة، والعودة بها الى فلك الغرب، وكان العدوان الذي استمر ثماني سنوات، ولم تفلح كل مساعي الغرب والشرق في ضبط إيقاع التحرك الثوري في إيران، وكانت النتيجة أن ظهرت إيران من الحرب، بل وفي أثنائها أيضاً، على خلاف كل ما كان يتوقعه الغرب والشرق، حيث ازدادت قوة ومناعة وعزيمة وإصراراً وتمسكاً بمشروعها الإسلامي، وبسبب هذه الحرب انكشفت للعالم كله، وللمسلمين خصوصاً ماهية هذه الثورة وعظمة القائمين بها والمدافعين عنها، ومن جهة مقابلة انكشف البرقع عن تزوير أكلڤ العالم على حد تعبير السيد الخميني (رض)، وتميز العدو من الصديق، والظالم من المظلوم، والمحق من المبطل...

إن الحرب التي أعلنتها أمريكا بواسطة عملائها في المنطقة على الثورة الإسلامية، واعتقدت بأنها ستكون بمثابة الضربة القاضية لها، كانت نعمة لهذه الثورة حيث أنه في كل يوم من أيام الحرب، كانت هناك بركات تلمس آثارها في مختلف الميادين، هذا فضلاً عما أدت اليه الحرب من تعميق وترسيخ الجذور الإسلامية للثورة[1]، وهذا ما أوضحه الإمام الخميني (رض) بتعبيرات واضحة، حيث قال: «في الحرب صدّرنا ثورتنا

= الجمهوري ومقتل خيرة القادة الذين فاق عددهم السبعين شخصاً.

(١) م. ع، ص. ن.

للعالم، لقد كان من نتائج حربنا تحرير أفغانستان، وسيكون من نتائج حربنا تحرير فلسطين. . . »[1].

كما انه لا تخفى المحاولات الكثيرة التي بذلها الغرب والشرق لإخضاع الثورة الى مقاييسه ومصالحه، سواء عن طريق التآمر الداخلي عبر معتوهين ومقدسين بلهاء على حد تعبير الإمام، أو عن طريق افتعال الأزمات الخارجية لإيران، كما حصل مؤخراً في أفغانستان اثر مقتل الدبلوماسيين الإيرانيين بهدف توريط إيران في الأزمة الأفغانية، إضافة الى التلاعب على أوتار الطائفية والمذهبية للحيلولة دون اتفاق إيران مع جيرانها العرب، حيث نجد دائماً إصراراً أمريكياً على تصوير إيران بالصورة المعادية للعرب بهدف الإبقاء على حالة التوتر، ولكن بحمد الله قد تمّ تجاوز كل هذه المحن، وأدرك العرب أن إيران لا تعد نفسها للدخول في أية أزمة مع جيرانها، وهي إنما تسعى دائماً لحماية الأمن الإقليمي، والدفاع عن المصالح المشتركة لشعوب المنطقة، وإقامة علاقات حسن جوار، ومعاهدات دفاع مشترك فيما لو لزم الأمر ذلك، لأن الخطر الحقيقي على العرب والمسلمين كامن في تواجد القوات العسكرية الأجنبية في مياه وعلى أرض دول المنطقة العربية والإسلامية، وفيما تمارسه إسرائيل من عدوانية ضد شعوب المنطقة.

فالمشروع الإسلامي خرج الى دائرة النور، وانكشفت للغرب والشرق إمكانيات الشعوب وقدراتها على تحقيق ذاتها، وإذا كانت إيران وحكومتها الإسلامية قد أظهرت قدرات فائقة على الصمود والمواجهة لكل المؤامرات الداخلية والخارجية، فإن ذلك لا يعني، بأي شكل من

(١) م. ع، ص. ن.

الأشكال، أن إيران أصبحت في منأى عن الخطر، وانما هي لا تزال في عين الاعصار، مما يقتضي دائماً الحذر والتنبه والتصدي الدائم لكل محاولات الغرب، وقد رأينا مراراً كيف توجه أصابع الاتهام لإيران في دعم الحركات المناوئة للاستعمار في العالم لغاية خبيثة. ولعلنا لا نخطىء في قولنا، إذا زعمنا أن إيران باتت في موقع عالمي يضاعف من مسؤولياتها، ويرفع من درجة تهيوئها، كما أنه يمنحها فرصة التعبير عن نفسها وتحقيق ما تنشده من عولمة في إطار القيم والمبادىء والأهداف الإسلامية، إضافة الى الدفاع عن نفسها ضد أية محاولة استلاب خارجية مهما كان نوعها، وفي أية صيغة أتت، وتحت أي شعار رفعت.

إن إيران والثورة الإسلامية، والحكومة الإسلامية، لا تزال عرضة للتآمر، وستبقى كذلك، ما دامت على نهجها الاسلامي الأصيل وأطروحتها الحضارية المميزة، وما دامت آخذة على عاتقها نصرة قضايا المستضعفين والمحرومين في العالم. وبما أن إيران استطاعت الصمود في وجه مؤامرات الخارج والقضاء على أبواقها الداخلية، فإن ذلك لا يعفي أحداً من مسؤولية القيام بالواجب دائماً لحماية هذه الثورة والدفاع عنها، لأن أكلة العالم لن يسكتوا، وسنرى في جميع العالم من يستهدف أسود الروحانية الرافضين للغرب والشرق المتمسكين بأصول الإسلام المحمدي الأصيل على حد تعبير الإمام الخميني (رض)[1]، وإن أكثر ما يمكن أن يصل اليه الاستعمار في محاولاته ومساعيه الجادة للنيل من الثورة، هو استغلال بعض منافذ الضعف في داخل إيران لتوتير الأجواء، وشحن النفوس بالبغضاء، وقد رأينا مؤخراً كيف أن أبواق أمريكا وإسرائيل، اثر الأحداث الطالبية الأخيرة، أعلنت بصراحة ووضوح

(١) انظر: الإمام الخميني (رض)، النداء الأخير، الوصية، م. س، ص٢٨.

حرصها واهتمامها، ومن ثم عادت لتؤكد على أن ذلك شأناً داخلياً، وتكتفي بمراقبة الأحداث، رغم أنها في البداية لم تعتبر ذلك شأناً داخلياً، وانما أدخلته في دائرة الحرية وحقوق الإنسان! .

وهنا يبدو لنا ملحاً التساؤل عما يمكن أن يتهدد إيران من أخطار، فنسأل، هل توجد في الخطاب السياسي والديني للإمام توضيحات بشأن ما يمكن أن يعرض للثورة من أخطار؟

وكيف يمكن السيطرة على الثورة الإسلامية بعد انتصارها؟؟

أسئلة كثيرة لا بد للباحث في الشؤون الدينية والسياسية أن يلحظها في سياق حديثه عن الثورة الإسلامية، لأن أي ثورة لا بد أن تصاب بالنكسة فيما لو تهاونت بما كان سبباً في اندلاعها، ومن ثم في انتصارها؛ والثورة الإسلامية، وإن كان لها ما يميزها عن سائر الثورات، فلا بدّ انها ستكون مهددة، إذا لم يستمر الشعب على وعيه بجمله المبادىء والأهداف التي قامت الثورة من أجل تحقيقها، وعلى تمسكه بالدافع الإلهي، الذي هو سرّ النصر والبقاء[1] .

وانطلاقاً من ذلك، فإنا نجد الإمام الخميني (رض) يسلّط الضوء على جملة عوامل من شأنها فيما لو حصلت أن تعرّض الثورة الإسلامية لنكسات قد لا تحمد عقباها.

يقول الإمام الخميني (رض): «إذا أردتم أن يستقر الإسلام وحكومة الله، وأن تقطع أيد المستعمرين والمستغلين الداخليين والخارجيين عن بلدكم، فلا تضيّعوا هذا الدافع الإلهي الذي أوصى به في القرآن الكريم.

---

(١) انظر: الإمام الخميني (رض)، النداء الأخير، الوصية، م. س، ص٢٨.

وفي مقابل هذا الدافع الذي هو سرّ النصر وسرّ بقائه، نسيان الهدف والتفرقة والإختلاف. . . »[1].

إن مؤسس الجمهورية الإسلامية، وقائد الثورة يركز في هذا النص على ضرورة بقاء الوحدة، عملاً بقوله تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا**. . .﴾[2]. فالثورة انتصرت بوحدة الشعب، واجتماعه على كلمة الحق، وستقرأ الأجيال، بحسب السيد الخميني (رض)، ان الدافع الإلهي ووحدة الكلمة هما سرّ النصر، فإذا تفرقت الكلمة، ووصلت الأمور الى حد التناقض في الآراء والمواقف، فإن ذلك مما يسهل على المستعمرين النفوذ الى البلاد مجدداً، باعتبار أن ذلك نتيجة طبيعية لاختلاف الأهواء والتجزئة والتفرق، وقد أجمع المتصدون للشأنين الديني والسياسي في العالم الإسلامي، على أن السبب الرئيسي في فقدان الوسطية في العلاقات، وفي تمكن الاستعمار وهيمنته على بلاد المسلمين وثرواتهم، هو التجزئة وانعدام الوحدة، وهنا تجدر الإشارة الى أن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه عانى ما عانى من تفرق الناس عن حقهم، ومن جملة ما قاله في هذا المجال: «والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم»[3].

إن ذهاب الريح[4]، إنما يكون حينما يتفرق الشعب، وينقسم على نفسه، وهذا قانون إلهي وسنة حاكمة في كل اجتماع بشري، فلا انتصار مع تشتت القلوب والعقول، ولا هزيمة مع التوحد. وإن شيئاً في الساحة

---

(١) م. ع، ص. ن.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٣) الإمام علي، نهج البلاغة، الخطبة: ٢٧.
(٤) قال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكُم. .﴾ سورة الأنفال: الآية: ٤٦.

الإيرانية لم يتغير، فالأعداء لا زالوا هم الأعداء، والحكومة الإسلامية لا زالت هي الحكومة الإسلامية، والمؤامرات الداخلية والخارجية لا تزال تحاك للنيل من الثورة، فإذا كان الشعب قد أحب قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية، فإنه لا ينبغي لهذا الشعب أن يرتاب، أو أن يضعف، أو غير ذلك مما قد يؤثر على حركته الثورية، بل عليه أن يضاعف من تماسكه وقوته لإبقاء الثورة على خطها الجهادي، والدولة الإسلامية على برامجها لتحقيق التقدم المطلوب[1].

إذن، العامل الأول، الذي يهدد الثورة والدولة هو التجزئة، ونسيان الهدف السامي والاختلاف، أما العامل الثاني، فهو ما أشار إليه الإمام (رض) في وصيته تحت عنوان مؤامرة الفصل بين الحوزة والجامعة، كونه سبق للاستعمار في زمن رضا خان، ومحمد رضا بهلوي، أن عملا بأساليب مختلفة، لإيجاد العداوة بين الجامعيين والروحانيين، وللأسف، كما يقول الامام (رض) فقد حققت هذه المؤامرة نتيجة ملحوظة بسبب غفلة الطرفين عن هذه المؤامرة الشيطانية للدول المتجبرة[2].

فالإمام (رض)، كما نعلم جميعاً، استطاع بمجهودات لا مثيل لها أن يوحّد بين الجامعيين والروحانيين، وأن يجمع كلمتهم باتجاه هدف واحد، وقد شكل ذلك صفعة قوية للمستعمرين وأعوانهم في الداخل،

(١) الإمام الخميني في وصيته أشار الى ركنين أصليين سببا انتصار الثورة، هما: الدافع الإلهي، والهدف السامي للحكومة الإسلامية، والشعب انما انتصر باجتماعه حول هذا الدافع وهذا الهدف، مما يعني ضرورة الحفاظ على الحكومة الاسلامية.

(٢) را: الامام الخميني، النداء الأخير، ص٤٩.

لأن الإمام (رض) بتوحيده بين الطلاب والعلماء أخسرهم موقعاً مهماً كانوا يستغلونه للتآمر على الثورة الإسلامية، وخصوصاً في الجامعات[1].

فالحوزة والجامعة، بحسب الإمام، هما العقل المدبّر للأمة، ولو أن الإمام لم يعطِ المزيد من الاهتمام بهما لما كان من الممكن أن تنتصر الثورة، باعتبار أن الأجيال التي تقود وترسم الخطط، وتكشف المؤامرات وتواجهها، وتجاهد في ميدان الدفاع عن الثورة، موجودة في الجامعة والحوزة، وعقد التفاهم والمحبة الذي أقامه الإمام بين الجامعيين وطلاب العلوم الإسلامية، انعكس إيجاباً على أوساط الشعب، وكان له الأثر الكبير في مجريات الأمور والأحداث. وهذا التفاهم بين الحوزة والجامعة، بالتأكيد، لم يوحد الأنساق بينهما، بحيث يكونوا رأياً واحداً، وسليقة واحدة، وإنما أجاز الاختلاف في السلائق والفهم والاستنتاج في حدود الفرعيات والتفاصيل، دون أن يتعداه الى المبادىء العامة والأهداف المقدسة للشعب الإيراني، بمعنى آخر، ان الاختلاف في الرأي والتعبير هو مجاز في إطار وحدة الأمة، وبما يحفظ كيانها المستقل، وتنوّع الآراء في خدمة الثورة الإسلامية، لأن أي اختلاف يؤدي الى التناقض، من شأنه أن يخدم المصالح الاستعمارية، وبالتالي، فإنه لن يكون مبرراً تحت أي عنوان وطني أو إسلامي، فقهي أو سياسي، أو غير ذلك من العناوين، التي غالباً ما يُتسلح بها للنيل من الثورة[2]، وقد لحظ الامام هذه الحقيقة

---

(١) م. ع، ص٤٩.

(٢) لقد تساءل الإمام الخميني (رض) في معرض حديثه عن الاختلاف المدمّر، فقال: «إن شاء الله ليس هناك اختلاف بين جامعة المدرسين والطلاب الثوريين. وإذا كان فعلامَ؟ على المبادىء أم على السلائق. وخلص الى القول: بأن الاختلاف مدمر، بأي شكل كان، وعندما تصل القوى المؤمنة بالثورة الى التخاصم ولو باسم الفقه القديم والفقه المتجدد فإن ذلك سيكون بداية فتح طريق =

بقوله: «وتمتاز المؤامرات في الجامعات بعمق خاص، وعلى كل من الشريحتين المحترمتين، اللتين هما عقل المجتمع المفكر، أن يحذروا المؤامرات»[1].

لقد بيّن الإمام (رض) في وصيته السياسية نقاطاً هامة، من شأن التأمل بها والإلتزام بمضامينها، الاهتداء الى سبل مواجهة كل ما يمكن أن يعرض للثورة والدولة من أخطار، ولا ينبغي أن يسمح للمنظرين في مجال السياسة والفكر أن يقدموا تأويلات جديدة للإسلام وما ينبغي أن يكون عليه في التعامل مع قضايا المجتمع والدولة، فالإسلام هو الإسلام، نظرية كاملة على المستوى النظري بشهادة قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[2]، وبما أن الثورة الإسلامية انتصرت، ويعرف الشعب سرّ النصر[3]، وارتكزت الى ما بيّنه الفقهاء الأعلام في مجالات الدين والسياسة، فلن يكون هناك ثمة حاجة الى فلسفات جديدة، يهدف أصحابها من ورائها الى إظهار مرونة الإسلام وسماحته في معالجة ما يستجد من قضايا وأحداث.

ليس المطلوب بحسب ما نفهم من كلام السيد الخميني (رض) إعادة تفسير الإسلام على نحو يرضي الغرب أو الشرق، أو هذا الفيلسوف أو ذاك، باعتبار أن الإسلام سمح في ذاته، والمرونة إنما تكمن في الأخذ بالإسلام كما وضحه وفسره لنا الرسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام وكما تجلى في الآثار المباركة كالكتب الأربعة والكتب الأخرى للمتقدمين

= الفرصة للاعداء» را: الخطاب التاريخي، تاريخ ٢٢/ شباط ١٩٨٩.

(١) را: الإمام الخميني، النداء الأخير، م. س، ص٥٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) را: الإمام، الوصية، النداء الأخير، م. س، ص٤٩.

والمتأخرين في الفقه والفلسفة والرياضيات والنجوم والأصول والكلام والحديث والرجال والتفسير والأدب والعرفان واللغة، وسائر الاختصاصات العلمية المتنوعة[1].

وهذا لا يعني الجمود، أو التقليد، وإنما الاجتهاد في إطار ما تسالمت عليه الحوزات العلمية، وارتكزت اليه من طرق خاصة في البحث والاجتهاد. أما أن يلجأ بعض المتقدسين أو المتفلسفين في الجامعة أو في الحوزة الى أساليب جديدة في ضوء ما يعجّ به العالم من أساليب ومناهج، لتفسير الإسلام حتى يبرهنوا أنه مشابه لما هو سائد في مجتمعات غير إسلامية، من ديمقراطية، وحرية، وأنظمة حكم، برلمانية، أو رئاسية، فذلك من شأنه أن يخرج الثورة الاسلامية، وكذلك الدولة من كونها أصيلة ومستقلة، لتكون ملحقة وتابعة وخاضعة لتأثيرات الحضارة والعولمة المادية. وذلك من شأنه، إذا ما حصل، أن يعيد التعارض النكد الى أوساط الشعب المسلم مع كل ما يستتبعه ذلك من اختلافات وانقسامات تربك الساحة وتؤثر على وحدة الشعب وحركته باتجاه أهدافه المقدسة. وقد رأى الإمام الخميني (رض) ان أي شيء يعرّض وحدة الشعب للخطر، أو يثير الشقاق، خاصة بين الطلاب والعلماء الملتزمين، لا بد من مواجهته بقوة، سواء جاء تحت عنوان التقدم والتطور، أو جاء تحت عنوان الدين والفقه المتجدد. إن كل مسعى في هذا الاتجاه يجب إسقاطه وكشفه وتبيان أهدافه ومراميه حرصاً على وحدة الأمة وعقلها المفكر المتمثل بالطلاب والعلماء الثوريين. وكل مَن يقرأ الإمام الخميني (رض) يجد في خطاباته هذا الهم، همّ استئصال نفوذ الأجانب من الحوزات والجامعات، لأنه مع نفوذ الأجانب في هذه الأوساط، يصبح ممكناً التدخل في مجالات

(١) را: الإمام الخميني، الخطاب التاريخي، تاريخ ٢٢ شباط، ١٩٨٩م.

الفكر والسياسة والفقه، والتنظير لما يهدف اليه الاستعمار من تحضّر انحلالي، وتقدّس أبله.

إن معنى أن تتوحد قطاعات وفئات الشعب، أن تستمر الثورة ضد المستعمرين، بحيث لا يكون لديهم أدنى أمل في العودة الى إيران، وشرط ذلك، كما بيّن الإمام الخميني، اتفاق الحوزة والجامعة باعتبارهماالأساس في حركة الثورة الإسلامية، وإلا فإن أمامنا ليلاً مظلماً وموجاً مخيفاً وإعصاراً مرعباً[1].

انها بصيرة القائد الملهم، وعقل الحكيم الفذّ الغارق في عرفان الزمان، عقل وبصيرة يكشفان لنا متى ندخل في الإعصار، ونتعرض للموج المخيف، وهذا الكلام استوعبه الإمام الخامنئي جيداً، ولم يتهاون مع أي نفوذ أجنبي، لا في الجامعة، ولا في الحوزة.

إننا نراقب الأحداث ونشاهد ظهور بعض الحركات الطلابية تحت شعارات الحرية والدستورية، والاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكأن الأمور تغيّرت بعد وفاة الإمام الخميني، والحق يقال: إن شيئاً لم يتغيّر على نحو جوهري. وإذا كان المقصود بالحرية أن نصبح غربيين، أو ديمقراطيين، أو حضاريين، كما يحلو للبعض أن يسمي نفسه، فإن مقتضى الوفاء للإمام الخميني (رض) ولدماء الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن الثورة وأهدافها النبيلة أن تقمع هذه الأصوات، وأن يكشف أمرها للملأ المسلم في إيران، باعتبار أن الشعب بكل فئاته وطوائفه وتياراته، وتحديداً الجامعات والحوزات صوتت للإسلام، ولم تصوّت لبعض الأصوات المشبوهة هنا أو هناك، وهذا لا يتنافى إطلاقاً مع

(١) م. ع، ص. ن.

الدعوة الى تحقيق الإصلاح الإقتصادي والاجتماعي، لأن ذلك يبقى مطلوباً وضرورياً في إطار العولمة الإسلامية كالتي تنشدها إيران، وتسعى الى تحقيقها بعيداً عن مفاتن الحضارة الغربية وأساليب طغيانها.

هناك طرق شتى يحاول المستعمر من خلالها النفوذ مجدداً الى إيران، وخاصة الى الوسط الجامعي لما له من تأثير على مجريات الأمور، ودور في نجاح الثورة واستمرارها.

ويمكننا ملاحظة هذه المسألة بدقة ووضوح في وصايا الإمام للشعب الإيراني خاصة، ولكافة الشعوب المسلمة والمستضعفة عامة. كما يمكن ملاحظة الخط العريض الذي يرسمه الإمام، ويطلب من الشعب الإيراني أن يلحظه في جميع مساعيه، الذي باستطاعتنا أن نستخلص منه جملة دلالات. **أولها**: ان الشعب الإيراني لن يكون معذوراً فيما لو تخلى عن الدافع الإلهي، الذي أدرك تماماً أنه سرّ انتصار الثورة، وسرّ ديمومتها.

ثانياً: إن الشعب الإيراني يملك إرادة التصدي لكل محاولات الغرب للسيطرة مجدداً على إيران، وكذلك إرادة إلحاق الهزيمة بكل الأعداء في الخارج والداخل، وذلك يتطلب منه دائماً أن يكون حذراً وواعياً لدوره ومسؤولياته، فلا يتخلى عنه تحت ضغط الحصار والضيق الاجتماعي والاقتصادي لمصلحة الأعداء.

ثالثاً: مطلوب من الشعب الإيراني، ومن الجامعات والحوزات العلمية، ومن كل الكفاءات الملتزمة والمؤمنة بضرورة استمرار الثورة حتى تحقيق كامل أهدافها، أن تبعث اليأس في قلوب الأعداء في الداخل والخارج من النيل من الثورة بواسطة أشخاص قد يكونون في الجامعة أو في الحوزة، أو في أي مكان آخر.

رابعاً: إن الثورة الإسلامية، هي ثورة الشعب، بل ثورة الفقراء خاصة، وهي التي اختارت مبادئها بوحي من ضميرها الإسلامي، وكذلك شعاراتها، ومن يريد أن يخدم هذه الثورة، أو أن يستمر بالوفاء لها، فليدخل في صفوفها، سواء أكان من المسلمين أو من غيرهم، وليس لأحد إطلاقاً أن يتدخل فيما اختاره الشعب بملىء إرادته، من مبادىء وأهداف وشعارات، وكما يقول الإمام الخميني (رض): «إن البلد مفتوح لاستقبال كل الأشخاص الذين يريدون أن يخدموا، ولكن ليس بثمن أن لهم ديناً على كل المبادىء، وانه لماذا قلتم الموت لأمريكا؟ ولماذا حاربتم؟ ولماذا تنفذون أحكام الله في المنافقين وأعداء الثورة؟ ولماذا رفعتم شعار لا شرقية ولا غربية؟ أو لماذا احتليتم وكر التجسس؟»[1].

هذه هي جملة الدلالات، التي يمكن استخلاصها من الخط العريض الذي رسمه الإمام في خطاباته التاريخية، وفي وصيته السياسية، ان يستمر الشعب في التزام الدافع الإلهي، وأن يحول دون تمكن الغرب من زرع الشقاق في أوساط الطلاب والعلماء الملتزمين.

(١) انظر: الخطاب التاريخي، م. س، ٢٢ شباط، ١٩٨٩م.

الفصل الخامس
الإمام الخميني (رض) وإحياء الخطاب الديني
(إشاعة المفردات والمفاهيم الدينية)

تمهيد

أولاً: حيوية الخطاب الديني وآثاره عند الإمام الخميني(رض)

ثانياً: شمولية الخطاب الديني وعاليمته عند الإمام الخميني (رض)

ثالثاً: دور علماء الدين والمراكز الدينية في إحياء الخطاب الديني

تمهيد

لا شك في أنَّ الإمام الخميني (رض) في جهاده المتواصل استطاع أن يحيي الخطاب الديني، وأن يحقق أعظم معجزة في هذا العصر، وإذا كـانـت هـذه الأوراق لا تتسـع للحـديـث عمّـا حقَّقـه الإمـام (رض) مـن إنجازات، وما أحياه من مفردات ومفاهيم، وعن تأثيرات خطابه الديني والسياسي، فإنَّ ذلك لا يمنع من الإشارة الى ما تميز به خطابه من حيوية وفاعلية وقدرة على التأثير في مجتمعات المسلمين والمستضعفين، وقد رأينا أن تكون لنا بعض الإشارات الموجزة والكاشفة قدر الإمكان عن تميزات هذا الخطاب وخصائصه، باعتبار أن عالمنا الإسلامي قد شهد خطابات ومفردات ومفاهيم كثيرة لم تفد في إعادة الحيوية الى الشعوب الإسلامية، ولا ساهمت في تحريرها من أسر الطاغوت، بل زادت في مشـاكلهـا، وحـالـت دون استقـلالهـا نظـراً لمـا يشـوب هـذه الخطـابـات والمفاهيم من أخطاء وتلبيسات وتمويهات جعلتها قاصرة عن إحداث تغييرات شكلية أو جوهرية في حياة المسلمين. . .

وهنا نسأل: تُرى ما هي الأسباب التي جعلت خطاب الإمام (رض)

الديني والسياسي مميزاً وفاعلاً وممتداً لدرجة أن جميع المسلمين باتوا واثقين من أن أي تغيير يبقى مستحيلاً ما لم تستحضر مضامين ومفاهيم ومفردات خطاب الإمام فيما يسعى المسلمون والمستضعفون لتحقيقه من حرية واستقلال؟؟

لقد أجاب سماحة الإمام الخامنئي (حفظه الله) عن هذا التساؤل بالقول: «إن الإمام الخميني (رض) سلك الطريق نفسه الذي سلكه رسول الله ﷺ من أجل إعادة الحياة إلى الإسلام، وهو طريق الثورة[1].

إن نصوص الإمام (رض) وكلماته الخالدة تحفل بالدعوة الى استحضار الإسلام والإهتداء بما جاء به الرسول ﷺ وأهل بيته، لأن الحياة في ظل القرآن والسنة، والثورة على الظلم هما شرطان أساسيان لتحقيق العزة والكرامة والاستقلال، وقد بينت التجارب في التاريخ انه حيث كان الإسلام حياً كانت السعادة والسلامة على مستويات الحياة كافة.

ولئن كان العالم المستكبر يتنكر لفاعلية وحيوية هذا الخطاب الإسلامي، ويعتبره قاصراً عن الفعلية والتأثير، وعاجزاً عن إيجاد الحلول لما يعيشه العالم الإسلامي من مشاكل، وإذا كان يدَّعي بأنه يملك الحلول السحرية لهذه المشاكل، فقد سبق للمستكبرين من أمثار قارون وفرعون وهامان أن ادّعوا ذلك، ولم تكن النتيجة إلا مزيداً من القهر والفقر والحرمان، وقد استطاعت النبوة الكشف عن زيف هؤلاء فيما يدّعونه من حلول سحرية وقدرات وهمية، وأدنى تأمل في تاريخ الصراع بين الأنبياء والمترفين يمكن أن يعطي صورةً واضحةً عما آلت إليه أوضاع الناس مع

(١) الإمام الخامنئي، حديث الشمس، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ترجمة رعد جبارة، ص١٠٤.

الأنبياء وفي ظل دعواتهم بعد تحريرهم من استعباد واستخفاف الفراعنة . . .

إن الإمام الخميني (رض) في خطابه الديني والسياسي استحضر خطاب النبوة الخاتمة والرسالة الكاملة، ولم يتجاوزه، بل بقي خطاباً قرآنياً في كل مفرداته ومفاهيمه، باعتبار أن الإسلام دينٌ كاملٌ على الصعيد النظري فيما ينطوي عليه من قوانين وأحكام ومبادىء، ولا حاجة بالمسلمين لأن يتلقفوا مفردات ومفاهيم اصطنعها هذا القطب أو ذاك لنفسه كيما يعبر بها عن مشروعه . . !؟

لقد أيقن الإمام (رض) ان المفهوم الديني والسياسي الذي حقق الإنتصار على الامبراطوريات القديمة وهزم الأحزاب في بدرٍ وأُحدٍ والخندق في أيام رسول الله ﷺ لا يزال قادراً على هزيمة الجاهلية الجديدة المتمثلة اليوم بالحضارة الغربية (المادية)، والمتقوّمة بالنظرة الحيوانية الى الإنسان، وبالنظرة المادية الى الكون والحياة، والقدرة هذه انما تتأتّى للمسلمين فيما لو اقتدوا بالخطاب الإلهي، واستجابوا لما أمرَ الله به ونهى عنه ودعا إليه، حيث قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم** . . ﴾[1].

فالإمام (رض) لم يرَ ضرورة ولا سبباً يوجب التماهي مع الغرب أو الشرق فيما اصطنعه لنفسه من مفردات ومفاهيم ومبادىء وقوانين، لأن الإسلام ـ كما قلنا ـ دينٌ كاملٌ وشاملٌ، ومن شأنه ـ فيما لو أخذ المسلمون به الاهتداء الى سبل السلام والأمن، وتحقيق السلامة على مستوى الدين والدنيا، إضافة الى ما يكون للمسلمين في ظله من عزة وكرامة واستقلال،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

يقول الإمام الخميني (رض): «في ظل القرآن استطاع الإسلام في مدى نصف قرن أن ينتصر على امبراطوريات زمانه، ونحن ما دمنا في ظل القرآن فإننا سوف نغلبُ أعداءنا.. إن الحرية والإستقلال إنما هما في الاقتداء بالقرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ»[1].

إن الله تعالى نهى عن أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، ولم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وهذا يعني فيما يعنيه، أن يكون المؤمنون أحراراً فيما يؤسسون له وينطلقون منه نحو الأهدف السامية التي حثّ القرآن والرسول وأهل بيته عليهم السلام على الإنطلاق نحوها، والسعي من أجل بلوغها.. فالشهادة والوسطية التي جعلها الله للأمة الإسلامية لا تعني نفي الآخرين أو نبذهم فيما لو كانوا موحدين لله وعابدين له، وانما تعني الحرية والموقع الفاعل والمستقل والمؤثر بحيث يكون للمسلمين دورهم وأثرهم وطريقة عملهم في بناء الحياة دون تبعية لأحد ولا رضوخ، بل استقلال في الموقع والفعل والقرار، ولو أن الأمة الإسلامية موحدة اليوم لاستطاعت أن ترسم لنفسها خطاً وسطاً في علاقاتها مع العالم، ولهذا نجد الإمام (رض) يركز في خطابه على الوحدة باعتبارها شرطاً أساسياً لكل نهوضٍ وفاعلية في حياة المسلمين.

إننا نلاحظُ في نصوص الإمام (رض)، وفي جميع ما صدر عنه من بيانات ووصايا انه يدعو المسلمين في العالم الى التوحُّد وصياغة خطاب ديني وسياسي مستقل ومتميز فيما ينطلق منه، وفيما يهدف إليه، لأن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم ليس ديناً تابعاً ولا ملحقاً، بل دين

---

(١) الاستقامة والثبات في شخصية الإمام (قده) ترجمة كاظم ياسين، بيروت ـ مركز الإمام الخميني الثقافي، ص٣٣٥.

كامل ومهيمن على سائر الكتب والأديان، ومن شأن العودة إليه والاقتداء به نفي كل مظاهر التبعية والعبودية لغير الله تعالى، وحماية المشروع الإسلامي وتحقيقه على النحو الذي يؤدي بالمسلمين إلى أن يكونوا أحراراً ومستقلين وفاعلين في السياسة الدولية، وقادرين على رسم الخطوط ووضع المفردات وصياغة المفاهيم الإسلامية والقوانين الملائمة لهذا العصر وغير ذلك مما يحفظ للمسلمين موقعهم وقدرتهم على ممارسة حريتهم ولعب دورهم الشاهد والوسطي، فلا يكونون تابعين أو ملحقين بهذا القطب الدولي أو ذاك كما هو حاصل اليوم نتيجة لغياب خطاب الوحدة وتحقق التجزئة التي تسببت بضياع فلسطين، هذا فضلاً عما لحق بالمسلمين بسبب الغربة عن الإسلام من خسارات وانهيارات على مستوى القيم والأخلاق والمفاهيم. . !!

إن الخطاب الديني الحيّ والفاعل والموحد يبقى شرطه الأساسي أن يعود الناس الى القرآن، وأن يعيش المسلمون الإسلام في الفكر والسلوك والثقافة، في النظرية والتطبيق، في المجتمع والدولة، ذلك أن التحول في الخطاب والمفاهيم كان ولا يزال نتيجة لتخلي المسلمين عن الإسلام مما دفع بهم الى الأخذ بهذا الكم الهائل من المفردات والمفاهيم الغريبة عن الإسلام، وعن كل ما جاء به أنبياء الله ورسله من المبادىء والقوانين. فما لم يعد المسلمون الى القرآن، فإن كل شيء سيبقى رهن التجاذبات والتيارات المخالفة للإسلام، حيث ان القومية والوطنية والعلمانية وغير ذلك من رأسمالية واشتراكية قد أخضعت مجتمعات المسلمين لنظرياتها وخطاباتها، وكانت النتيجة الإسهام في مزيد من الفرقة والإختلاف والتبعية والاستلاب على مستوى السياسة والثقافة والإجتماع والإقتصاد فضلاً عما لحق بالأمة من جرّاء

ذلك من استلاب على مستوى الهوية والوجود!

لا شك في أن الإمام (رض) في خطابه الديني، وما حققه من ثورة عارمة، هدف في قوله وفعله الى إعادة التواصل مع الإسلام الذي انقطع بسبب التكلّف والتبعية في الخطاب الديني والسياسي من قبل الذين تعاقبوا على حكم المسلمين في الماضي والحاضر، حيث أنهم تكلفوا في الخطاب، ولم يكونوا أهلاً له، كما أنهم لم يحرصوا عليه إلا بالمقدار الذي يحقق لهم مآربهم وأطماعهم السياسية والسلطوية، وقد نشأ عن تقلد حكومات الجور لأمور المسلمنن ـ كما نعلم جميعاً ـ تشويه المفردات والمفاهيم الدينية، وتحويل الخطاب الديني من خطابٍ إسلامي بكل مفرداته ومفاهيمه إلى خطاب مذهبي وطائفي تابع للغرب تارة، وللشرق طوراً، وها هي البلاد الإسلامية اليوم ترزح تحت ضغت المفردات والمفاهيم الغربية! وإذا كان إحياء الخطاب الديني يحتاج الى التزام ووعي ونفي لكل ما هو دخيل، «فعلى المسلمين كافة تقع مهمة إحياء الحج والقرآن الكريم وإعادتهما الى ميادين الحياة»[1]، لأنهم خبروا وجربوا وأيقنوا أن الحل لا يكون إلا بالاسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم.

وكيف كان، فإن الحث على إحياء الخطاب الديني فيما صدر عن الإمام من أقوال وأفعال هو بمثابة الدعوة الى المسلمين كافة كي ينطلقوا بالإسلام من جديد بحيث يُصار الى أسلمة كل شيء سواء على مستوى الدولة أو على مستوى مؤسسات المجتمع كافة، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق الحرية والاستقلال، وبعث الحيوية في حركة المسلمين،

(١) الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، ص. ن.

وما بذله الإمام (رض) من مجهودات فكرية وسياسية، وما أداه من مهام رسالية يرشد المسلمين كافة الى السبل الكفيلة بإخراج عالمنا من الجاهلية الجديدة الى نور الإسلام والقرآن. لقد أطلقه الإمام (رض) خطاباً مدوياً الى العالم كله، ولا يزال هذا الخطاب يسعى من خلال الحكومة الإسلامية في إيران الى بعث الروح في الجسم الإسلامي، والحق يقال: إن الجمهورية الإسلامية في إيران هي اليوم محطُ أنظار العالم، لا من حيث أنها تمثل موقعاً استراتيجياً هاماً، ولا من حيث ما لها من مصالح مشتركة مع العالم، بل هي كذلك لما تمثله من موقعية إسلامية مستقلة عن الشرق والغرب، ولما تتّسم به من حيوية في خطابها الديني والسياسي، ومن وسطية في علاقاتها، وشهادة في دورها مما جعلها أهلاً للقيام بمهمة الإصلاح والحضور بقوة في ميادين الحياة المختلفة، وما دامت هذه الحكومة الإسلامية في إيران قد أخذت على عاتقها نصرة المسلمين، والمستضعفين، فإنها سوف تبقى محطّ أنظار العالم ومعقد الأمل للشعوب الإسلامية والمستضعفة في العالم.

إن حيوية المفاهيم والمفردات الإسلامية تبقى قاصرة عن صناعة المجتمع الإسلامي ما لم تكن هناك حكومة إسلامية ترعى وتدبر وتحفظ ما تحقق من إنجازات على مستوى الدولة والمجتمع، وكل مجتمع في العالم يعيش الإسلام فكراً وسلوكاً وثقافة، في علاقاته ومعاملاته لا بد أن تنبثق عنه الحكومة الاسلامية، هذا فضلاً عما يكون له من الحياة والفاعلية سواء على مستوى المفهوم والنظرية أو على مستوى الحياة العملية. ذلك ان الله سبحانه وتعالى يستخلف الناس في الأرض فينظر كيف يعمون، فإن هم اتبعوا الفطرة فيما تدعوهم اليه من علم نافع وعمل صالح، وأطاعوا الرسول فيما يأمر به وينهى عنه، فإنه نتيجة ذلك

ستكون الجائزة الإلهية التي وعد الله بها المتقين والمجاهدين في سبيله، وقد حصل الشعب المسلم في إيران على هذه الجائزة حينما نهض في ظل الإسلام والقرآن لتحرير نفسه من أسر الاستعباد والاستخفاف الفرعوني، ولإقامة الحكومة الإسلامية لتكون عوناً له فيما يسعى لتحقيقه من أهداف سامية.

أجل إن الجمهورية الإسلامية اليوم هي محط أنظار العالم لما تمثله من موقعية ودور هادفٍ الى تحرير المسلمين من أسر العبودية والاستخفاف، وإعانتهم على تدبير أنفسهم وحياتهم الخاصة والعامة على ضوء الإسلام بحيث يكون لهم موقعهم ودورهم وخطابهم المستقل والفاعل، الخطاب الديني والسياسي الذي يؤهل الأمة الإسلامية لأن تكون خير أمة أُخرجت للناس، وامتداداً لحركة النبوة والرسالة في الزمان بعيداً عما أسست له الفرق والمذاهب والسياسات والتيارات التابعة لهذه المدرسة أو تلك في الغرب أو في الشرق فالإمام (قده) دعا الى خطاب الوحدة الهادف الذي ينطلق من جوهر وحقيقة الإسلام، وليس مما انتهت إليه الفرق والمذاهب والنظريات الوضعية من اعتقادات ومفاهيم وسياسات، لأن هذه الفرق والمذاهب لم يسبق لها أن أنتجت وحدة، أو حققت هدفاً، بل كانت دائماً سبباً للفرقة والاختلاف. هذا فضلاً عما أدت إليه من تبعية حينما دفعت بالمسلمين الى أن يلتمسوا الحلول لمشاكلهم السياسية والإقتصادية والإجتماعية من مدارس الغرب والشرق تحت عناوين وشعارات شتّى مما شكّل قاعدةً للاستعمار كي ينفذ في بلاد المسلمين ليعزز الانقسامات المذهبية والطائفية، ويحول دون عودة المسلمين الى القرآن، وقد تمكن أعداء الإسلام والمسلمين من تحقيق هذا الهدف بمساعدة الحكومات الجائرة التي لم تذخر جهداً إلا بذلته من أجل

تغريب المسلمين وتحويل الإسلام الى مجرد رموز وطقوس يتبرّك بها المسلمون في المناسبات المختلفة. هذا فضلاً عمّا اعتمده المستكبرون من أساليب ووسائل ليكون القرآن كتاباً للفرقة والاختلاف، والاحتهاد في الإسلام سبيلاً الى التناحر، يقول الإمام الخميني (رض): «إن مما يؤسف له هو أن القرآن كتاب الهداية لم يعد له من دور سوى في المقابر والمآتم بسبب الأعداء المتآمرين، فأصبح الكتاب الذي ينبغي أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين والعالمين ودستوراً لحياتهم، أصبح وسيلة للتفرقة وإثارة الخلاف»[1].

إن خطاب الإمام (رض) كان ولا يزال يشكل نفياً لكل ما أراده الاستعمار وأشاعه في بلاد المسلمين بموافقتهم أو بالغفلة عنهم، ولكل ما أسس له فقهاء السلاطين في ظل حكومات الجور، وقد امتد هذا الخطاب بعون الله تعالى في بلاد المسلمين، وشق طريقه في قلوب وعقول المسلمين والمستضعفين ليُعطي الصورة النقية والواضحة عن الإسلام، ويكشف عن مضامين ومبادىء وقوانين ومفردات هذا الدين القيِّم رغم كل المحاولات التي بُذلت وتُبذل لطمس معالمه وإخفاء مضامينه، ومما لا شك فيه ان كل محاولات المستكبرين قد باءت بالفشل، وهي ستلقى المزيد من الصعوبات فيما تسعى لتحقيقه وترويجه في حياة المسلمين بسبب قوة وحضور الخطاب الديني الذي أحياهُ الإمام (قده) وأرسى قواعده وصاغ مفرداته ومضامينه، حيث انه رضوان الله عليه استحضر تاريخ النبوة والسيرة الجهادية للرسول وأهل بيته عليهم السلام في مواجهة الظلم والاستخفاف، وقرأ تحولات وتبدلات العالم بدقة لامتناهية وكذلك كل ما

---

(١) انظر. وصية الإمام (قده)، نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

يعيشه العالم من تناقضات في المفاهيم والمصالح مما مكّنه من إعادة وصل ما انقطع في تاريخنا الإسلامي، وفي زماننا الحيوي، وقد تجلى هذا الوصل في الفعل والخطاب في الزمان والتاريخ بإقامة الحكومة الاسلامية على أساس ولاية الفقيه العادل الذي شكّل ويشكّل وجوده على رأس الدولة نفياً لكل مظاهر التغرب، وتأكيداً للخطاب الديني الحي بكل ما ينطوي عليه من مفردات ومفاهيم، وضمانةً للسياسة الإسلامية الهادفة الى بناء المجتمع والإنسان على ضوء تعاليم الإسلام، وتحقيق السلامة على مستوى الدين والدنيا.

أولاً: حيوية الخطاب الديني وآثاره عند الإمام الخميني (قده)

سبق أن أشرنا في تمهيدنا لهذا البحث أن الإمام رضوان الله عليه لم يستحضر خطاباً جديداً من خارج التاريخ والزمان، بل أحيا خطاب الإسلام والنبوة في حركته الدينية والسياسية، باعتبار أن الإسلام دينٌ كاملٌ على المستوى النظري، ويحتوي على كافة المفردات والمفاهيم التي يحتاج اليها البشر في حركتهم من أجل الحرية والإستقلال، يقول الإمام الخميني: «إن سبب البعثة هو إنزال الكتاب العظيم الذي يحتوي على كل آيات الخلقة، وعلى كل الأشياء التي يجب أن تنجز في البعثة، انه سفرة بسطها الله تبارك وتعالى لبني البشر بواسطة النبي الأكرم ﷺ ليستفيد منها البشر كل بحسب استعداده وإمكاناته»[1].

إن خطاباً يستحضر الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم لا بد أن تكون له فعليته وحيويته وأثره في حياة الناس، وحينما نتحدث عن إحياء الخطاب الديني عند الإمام (قده)، فإننا لا نستطيع أن نتغاضى عن شخصية الإمام وقيادته في هذا العصر، ذلك انه من غير الممكن الفصل بين حضور

(١) الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، م. س، ص٣٣٦.

الإسلام في حياة الناس وبين القائمين بمهمة الإصلاح والتغيير، فالقرآن لا بدّ له من ترجمان، وأدنى تأمل في التاريخ الإسلامي وما رفع فيه من شعارات تتخذ من الإسلام شعاراً لها من شأنه أن يكشف لنا عن طبيعة وحقيقة ما كان عليه المسلمون في تاريخهم سواء لجهة تأويل القرآن بما يوافق السلطة الجائرة أو لجهة اختلافات الفرق الإسلامية وتناحرها، فهذا كله حال دون أن يكون الخطاب الإسلامي حياً وفاعلاً، إذ انه غالباً ما كان السلاطين ومن لاذ بهم من فقهاء البلاط يحولون دون رجوع الناس إلى الاسلام وسنّة رسول الله ﷺ، ويدفعون بهم الى التماس الإسلام وقوانينه مما كانوا ينتجونه من فقه وكلام وسياسات في معامل الهوى وحب الدنيا. باختصار نقول إن الإسلام والقرآن كانا في جانب، والسلطة في جانب آخر بسبب ما آلت اليه أوضاع المسلمين في ظل السياسات السلطانية..!؟

لقد أدرك الإمام الخميني معنى وحقيقة وأثر أن يُستحضر خطابُ النبوة والرسالة في زمن امتلأت فيه بلاد المسلمين بالمترفين والمستكبرين، فانبرى من موقع مسؤوليته وأمانته على وحي الله تعالى إلى صياغة الخطاب الإسلامي على ضوء كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ الذي يؤهل الأمة الإسلامية لأن تنطلق من جديد في حركتها من أجل تحقيق نفسها بالإسلام، ويدفع بها الى المحافظة على مكوناتها وخصائصها بحيث تعود الى شهادتها ووسطيتها، كما أرادها الله تعالى، ذلك هو معنى أن يكون الخطاب الديني حياً، أن تنطلق الأمة من خلال الإسلام وفي ضوئه في سبيل إقامة الحكومة الإسلامية، وتطبيق القانون الإلهي، والإصلاح في الأرض على النحو الذي يؤدي بالأمة الى أن تكون خير أمةٍ أُخرجت للناس، كما قال تعالى: **﴿كُنتم خير أُمة أُخرجت للناس تأمرون**

بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[١].

والحق يقال: إنه ليس من الحيوية في شيء أن يستحضر خطاب الإسلام والنبوة لمجرد التبرك به دون أدنى اعتبار عملي له، وهكذا كان الخطاب الإسلامي لفترة طويلة من الزمن خطاباً نظرياً مجرداً مشوهاً لم يتجاوز اللسان الى الإلتزام به والتعبير عنه في مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين، إلى أن جاء الإمام رضوان الله عليه، فبعث فيه الروح وجعله خطاباً حياً ومتميزاً في ما أحدث من آثار، وصنع من معجزات.

وكما بيّنا في مقدمة هذا البحث أن الإمام (قده) لم يجدد الخطاب الديني بل أحياه وأعاد وصله بالماضي المشرق في تاريخ المسلمين، وأعطاه بعدهُ الواقعي من خلال استلهام السيرة الجهادية للرسول وأهل بيته عليهم السلام الذين لم يتوانوا عن إقامة الحق وبسط العدالة الإجتماعية، وكما يقول الإمام الخميني (قده): إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام أقاما الدولة والحكومة، وبسطا العدالة الاجتماعية من دون الحاجة الى استعارة مفاهيم ومفردات وقوانين من خارج دائرة الإسلام[٢]، «فهو دين على خلاف جميع المذاهب غير التوحيدية. . . ولم يترك أي قضية مهما كانت صغيرة ما دام لها تأثير في تربية الإنسان والمجتمع»[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) يقول الإمام الخميني (قده): «لقد أسس نبي الإسلام حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تمتازُ عنها بدافع إقامة العدالة الاجتماعية وبسطها وكان لخلفاء الإسلام الأوائل حكومة على أمصار أوسع وأشمل، وتأسيسُ حكومة أمير المؤمنين علي عليه السلام بنفس الدافع ولكن على نطاق أوسع وأشمل، وبعده تحول الأمر شيئاً فشيئاً الى حكم باسم الإسلام، واليوم أيضاً كثيرون هم أدعياء أتباع الإسلام والرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحكم». انظر، الوصية الإلهية، وزارة الإرشاد الإسلامي.

(٣) انظر: الإمام الخميني، الوصية السياسية، م. س.

إن العودة الى القرآن كفيلة بإحياء الخطاب الديني وترجمته على النحو الذي يؤدي إلى إقامة الحكومة، وتحقيق العدالة، كونه لم يُطلب من المسلمين اليوم أكثر مما طُلب منهم في أيام رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، فإذا ما جعل المسلمون القرآن موضوعاً للتدبر والتأمل، فإنه سيكون لهم الخطاب الحيُّ والفاعل، وسينطلقون من جديد في رسم الخط الوسط في علاقاتهم مع العالم. فقوله رضوان الله عليه أن الأمر تحول شيئاً فشيئاً الى حكم باسم الإسلام، واليوم كثيرون هم الذين يدّعون أنهم أتباع الرسول ﷺ والإسلام في الحكم، ناظر الى الأسباب التي تحول دون انطلاق الأمة الإسلامية في مسيرتها على هدى الرسول وأهل بيته عليهم السلام إذ انه لا يزالُ الخطابُ الإسلامي حتى يومنا هذا في كثيرٍ من البلاد الإسلامية أسيرَ الهوى وتُطلبُ به الدنيا، ولا شك في انه يستحيل في ظل حكومات الجور وما تمارسه من جورٍ واعتساف وتأويل لكتاب الله تعالى بما يوافقُ الهوى أن يحتفظ الخطاب الديني بخصائصه ومميزاته التي كان يمتاز بها أيام رسول الله ﷺ. وبما أن حكومات اليوم تعتمد تشويه هذا الخطاب لتدعيم مشروعها السياسي السلطوي، فإن إحياء الخطاب الديني سيبقى متعذراً ما لم يقم المسلمون بواجبهم، وستبقى حياتهم وبلادهم عرضة لمفردات ومفاهيم الحضارة الغربية (المادية) التي حذّر الإمام (قده) من أفكارها وسلعها وسائر ما تجود به على بلاد المسلمين من مفاتن الحياة..!؟

وإذا كان الإمام رضوان الله عليه، قد اتخذ موقفاً سلبياً من الحضارة المادية فيما صدر عنه من بيانات ووصايا، وطرح الإسلام بديلاً لها، فإن ذلك لا يعني أن الإمام قد اتخذ موقفاً سلبياً من العلم وما انتهى اليه العالم من اختراعات وصناعات، إذ كيف يكون ذلك، والإسلام يحث على طلب

العلم والتطور شرط أن تبقى للإنسان كرامته وروحيته وهيمنته، يقول الإمام (قده): «إذا كان المقصود من التمدن والتطور والصناعات المتطورة التي تساهم في تقدم المدنية الإنسانية، فإن الإسلام يؤكد على ضرورة العلم والتقدم والصناعة، أما إذا كان المراد من التمدن والتطور هو إطلاق الحرية لممارسة كافة الرذائل... فهذا ما ترفضه الأديان السماوية، والعلماء والعقلاء رغم أن المتغربين والمتشرقين ولانقيادهم الأعمى يروّجون ذلك»[1].

نخلص الى القول، بأن الخطاب الديني لا يكتسب حيويته وفعليته مما ينتجه الغرب أو الشرق من مفاهيم ومفردات وصناعات كما توهم بعض المتغربين والمتشرقين في البلاد الاسلامية الذين تلقفوا كل شيء من الأجانب إلا الصناعات والعلوم فهي بقيت في بلاد الغرب والشرق دون أن تستفيد منها البلاد الإسلامية في شيء، وهذا إذا كان يدلُّ على شيء فإنه يدل على مدى الإستلاب الحاصل في عالمنا جرّاء الإقتداء الأعمى بحضارة الغرب التي تمّ الأخذ بها دون تأمل ولا تبصُّر، وكان لا بدّ أن ينعكس ذلك سلباً على واقع المسلمين والمستضعفين وثقافتهم وخطابهم الديني والسياسي، حيث أن الخطاب الإسلامي في ظل التقليد الأعمى للآخرين تحول من كونه خطاباً إسلامياً الى خطاب معبّر عن الحضارة المادية، وكانت النتيجة استلاباً على مستوى الخطاب الديني والسياسي، وعلى مستوى المفاهيم والمفردات والقيم والمبادىء والأهداف، فلم يبقَ من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه بسبب تقلد المتغربين والمتشرقين لأمور الناس الدينية والسياسية، والأكثر من ذلك عجباً هو أنه لا تزال هناك أصوات ترتفع وتدعو الى إحياء الخطاب القومي والعلماني

(١) انظر: الوصية الخالدة للإمام، م. س.

والليبـرالـي وغيـر ذلـك ممـا كـان لـه أكبـرُ الأثـر فـي تخلّـف المسلميـن وتجـزئتهـم، والـذي حـال دون تمـادي المتغـربيـن والمقلـديـن للغـرب والشرق، والداعين الى تمثل الحضارة الغربية بكل أزماتها وسلبياتها هو الثورة الإسلامية في إيران التي استطاعت بعث الروح والحيوية في عالم المسلمين، وفي الخطاب الإسلامي فانطلق في مواجهة كل الأطروحات الوضعية، وحقق نتائج باهرة على مستوى المواجهة مع العدو الصهيوني سواءً في لبنان أو في فلسطين أو في غيرهما من البلدان الإسلامية، وما كان ذلك ليتم لولا حيوية الخطاب الديني الذي اكتسب أبعاده الشاملة مع الثورة الإسلامية ومن خلالها. إن الخطابات الأخرى سواء أكانت القومية أو العلمانية أو الليبرالية أثبتت فشلها فيما قامت به من مهمات، وفيما عبّرت عنه من نظريات، وخير ما يمكن أن نتبصر به في هذا السياق هو ما تنبأ به الإمام الراحل رضوان الله عليه عما ستؤول اليه أوضاع العالم الغربي في ظل الحضارة المادية والقوانين الوضعية، وعما سيكون للإسلام من دور في انقاذ البشرية من أزماتها الروحية والمعنوية، فهو (قده) في رسالته الى غورباتشوف بيّن أن المادية هي سببُ الموت المتحقق على مستويات الحياة والمبادىء والقيم في مجتمعات الغرب والشرق، ونتيجة للتقليد الأعمى لهما وقعت مجتمعات المسلمين في أزمات متعددة، يقول الإمام: «لا يمكن للمادية أن تنقذ البشرية من أزمة عدم الاعتقاد بالمعنويات، هذه الأزمة التي تعد أهم أساس لمعاناة البشرية في الشرق والغرب[١]».

إن ما يؤسَفُ له ويعجب منه هو أن المتغربين والمقلدين اجتروا مفاهيم الغرب والشرق عن الحياة والإنسان، ونقلوا الى بلادهم ما أسفرت عنه الحضارة المادية من أزمات معنوية وروحية دون أن يتمتعوا بأدنى

(١) من رسالة الإمام الخميني الى ميخائيل غورباتشوف.

نصيب مما حققته هذه الحضارة من إنجازات علمية وتقنية وصناعات مختلفة!؟

لا شك في ان غياب المفردة والمفهوم الإسلاميين من حياة المسلمين قد أدى الى الانسجام تماماً مع الخطاب المادي الوافد من الغرب والشرق، وإذا كان لا بد من إشاعة المفردات والمفاهيم الدينية، فإنه لا يسع المسلمون إلا أن يحققوا الثورة الداخلية سواءً على مستوى النفس أو على مستوى الواقع ضد الاستخفاف والعبودية والتقليد وغير ذلك مما كان ولا يزال سبباً في تخلفهم، بحيث تكون الثورة الإسلامية في إيران قدوةً لشعوب العالم في طلب الحرية والاستقلال. وهذا ما ركّز عليه الإمام (قده) في خطابه الديني والسياسي، وطلب الى المسلمين أن يتفاعلوا مع الإسلام، محذراً إياهم من الوقوع في شرك خطاباتٍ كثيرة تنسب نفسها الى الاسلام، وتدّعي ان الإسلام ليس شيئاً غير الإنسياق مع الحضارة والتمثل بها والإستفادة من إنجازات العصر العلمية والتقنية وغير ذلك، وغالباً ما تصدرُ هذه الدعاوى عن أناس يحكمون باسم الإسلام ويبررون تبعيتهم للغرب أو الشرق بالاستناد الى كثيرٍ من الآيات التي سبق لفقهاء البلاط أن أولوها بما يلائم دعاوى المتغربين والمتشرقين، وقد ترافقت هذه الدعاوى الباطلة مع إشاعة مفاهيم ومفرداتٍ على أنها مفرادت ومفاهيم إسلامية، من قبيل ان الإسلام ليس ضد القومية، ولا ضد العلم، ولا ضد التطور.. والاشتراكية، وقد انطلت هذه المزاعم والأقاويل على الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية فأخذوا بها واعتبروا الدليل على دينيتها وإسلاميتها ما حصل من تقدم مادي وصناعي، ساهين عن أن التطور والتقدم المادي ليس دليلاً على صحة الاعتقاد وسلامة المعنوية والروحية، والأكثر من ذلك ألماً، كما يقول الإمام (رض): «هو ان القطبين الشرق

والغرب أبقيا على الشعوب المظلومة المستعبدة متخلفة في جميع الأمور، وجعلا بلدانها استهلاكية وأوجدوا في أنفسنا حالةً عميقةً من الرهبة تجاه مظاهر تقدمهما وقواهما الشيطانية، حتى لم تعد لنا جرأة على المبادرة الى أي إبداع وراح الكتّاب والخطباء والمتغربون والمتشرقون الجهلة ينتقدون هازئين بثقافتنا وتقاليدنا وحتى صناعاتنا وما قد نبدعه، وسعوا لكبت طاقاتنا الذاتية وبعث اليأس فيها وترويج التقاليد الأجنبية مهما كانت مبتذلة وبذيئة بسلوكياتهم وكتاباتهم وبمدحها وتحسينها لتثبيتها لدى الشعوب»[1].

إن حيوية الخطاب الديني بكل مفرداته ومضامينه بنظر الإمام رضوان الله عليه لا تكون بالتبعية والتقليد الأعمى، وإنما بالاستقلال والحرية والوعي وتعبئة النفوس وتربيتها على الجهاد والصبر في مواجهة الظلم والترف والاستكبار، وهذا كله يبقى غير ممكن ما لم يقتدِ المسلمون والمستضعفون بالقرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ وسائر الأئمة والصالحين، لأن المستشرقين والمتغربين كانوا ولا يزالون يستغلون غربة الإسلام والقرآن عن حياة الناس لإشاعة الفحشاء والمنكر والبغي لإفساد المجتمع وتغيير خلق الله تعالى بوحي من شياطينهم الذين يتربّصون شراً بالإسلام والمسلمين.

(١) انظر: الوصية الخالدة للإمام رضوان الله عليه. م. س.

ثانيا: شمولية الخطاب الديني وعالميته عند الإمام (قده)

إن ما أراده الإمام الخميني قده) وسعى إلى تحقيقه هو أن تعود الحياة الى المفاهيم الدينية، وأن يترك المسلمون ما خدعهم به الغرب من مفردات ومفاهيم، وقد حرص الإمام (رض) على أن يكون المصطلح القرآني هو الأساس والجوهر لكل خطاب ديني، ولهذا نجد الإمام (قده) في نصوصه وبياناته يركز على الاستضعاف مقابل الاستكبار، وعلى التزكية مقابل الإستعلاء، وعلى الإسلام والشورى مقابل الديمقراطية، وعلى الإيمان مقابل الكفر، فلم يرَ الإمام (قده) ضرورةً ولا سبباً لأن يتشدق عالمنا بمصطلحات ومفردات ومفاهيم الغرب أو الشرق دون معرفةٍ بمضمونها وبما تهدف إليه، باعتبار أن هذه المصطلحات كانت ولا تزال مجهولة التعريف والتحديد وخاصة مصطلح الديمقراطية الذي تغلفت به كل مشاريع الإستبداد، فلا حاجة للأخذ بمصطلحات غير واضحة، ما دام يوجد في الإسلام كل ما تحتاج إليه البشرية في سعيها من أجل السعادة والسلامة في دينها ودنياها.

لذا، فإن الإمام (رض) عملَ من أجل إعادة التواصل مع الرسول

والرسالة بالشكل والمضمون، لأن النبوة فيما جاءت به من دعوات، وما قامت به من مهام لم تكن بحاجة الى مفردات ومفاهيم مناهج المترفين والمستكبرين عن الكون والحياة والإنسان. وإنطلاقاً من هذه الحقيقة، فلم يكن عند الإمام (رض) مندوحة عن تأسيس الخطاب الديني والسياسي على ضوء حركة النبوة في التاريخ، وهذا هو الشيء الذي جعل الإمام (قده) منسجماً في دعوته وثورته، ومن ثم في دولة الإسلام مع خطاب النبوة الى البشر، حيث ان الامام (رض) أدرك في حياته، ومن خلال ما عايشه من أحداث أن احياء الخطاب الديني غير ممكن ما لم يتواصل الناس مع تاريخ النبوة والإمامة لما لذلك من أثرٍ في حياة الناس باعتبار أن الأنبياء جميعاً دعوا الناس الى التوحُّد تحت راية الإسلام، وإلى الثورة ضد الظلم، وقد عمل الإمام (قده) من أجل إحياء هذا الخطاب على ضوء الإسلام ومن خلال تاريخ النبوة الحافل بالمجاهدات والرياضات والانتصارات. إن إحياء الخطاب الديني يستحضر كل ما هو أصيل وثابت وكامل بهدف تحرير المجتمع وإحيائه على النحو الذي ينفي كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى دون تمييز بين مسلم أو مسيحي، لأن المرتكز الأساسي في حركة الإمام (رض) هو الإيمان الإبراهيمي المتجلي بقوة في خطابه الديني والسياسي، يقول الإمام (رض) في وصيته الخالدة لمستضعفي العالم: «لا تقعدوا بانتظار أن يهبكم الحرية والإستقلال حكام بلدانكم.. أو تهبكم ذلك القوى الأجنبية.. يا مسلمي العالم اجتمعوا تحت راية التوحيد وفي ظل تعاليم الإسلام[1] وهذا الخطاب لا يستفاد منه أن المسلمين وحدهم المعنيون بهذا الخطاب، كون خطاب النبوة الخاصة والعامة كان يدعو الناس الى الاجتماع تحت راية التوحيد، كما قال

(١) م. س. الوصية الخالدة.

تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله[1]﴾.

إن المسلمين بحكم موقع وسطيتهم وشهادتهم وخيريتهم مسؤولون عن إقامة حكم الله في الأرض وحماية المستضعفين والدفاع عنهم، وتحقيق الوحدة في مواجهة الكفار والمشركين، وقد جاء الإسلام كما يقول الإمام: «ليوحّد العالم تحت اسم الأمة الإسلامية»[2]. كما أن عقيدة التوحيد، وجوهر العدل الإلهي، يقتضيان أن يكون من أهداف الخطاب الإسلامي نصرة المستضعفين ومجاهدة المستكبرين لا بهدف أن يعود المسلمون فقط الى الإسلام، بل من أجل تحقيق العالم كله بنظام الإسلام، ولهذا نجد الإمام (قده) يوحّد بين قضية المسلمين وقضية المستضعفين كما في قوله: «يا مسلمي العالم، ويا مستضعفي العالم... هيا إلى النظام الذي جاء من قبل الله تعالى لنموكم وتكاملكم. ولسعادتكم في الدنيا والآخرة، ولإزالة الظلم وحقن الدماء، ونصرة المظلومين في العالم، ولأجل التربية والتعليم الإنسانيين، ولأجل حرية واستقلال أقطاركم»[3].

إن الثورة الإسلامية التي انطلقت من إيران لم ولن تكون محدودة الأهداف، باعتبارها ثورة شاملة، وتحمل أطروحة كاملة، وهي مسؤولة بحكم مركزيتها ودورها الوسطي والشاهد، وعالمية دعوتها وشمولية خطابها عن تحقيق المجتمع الإنساني بالإسلام وإحلال العدالة الإلهية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[4]، ذلك هو معنى

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) الاستقامة والثبات في شخصية الإمام، م. س، ص٢٩٥.

(٣) م. س. ص. ن.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٨.

إحياء الخطاب الديني على مستوى العالم الإسلامي والعالم المستضعف، ان تكون الثورة الإسلامية ممتدة بكل أبعادها، باعتبار ان الإسلام دين عالمي، وكذلك خطابه، وما على المسلمين كما يقول الإمام (رض) إلا أن يعرِّفوا العالم بهذا الدين، ويخططوا لإقامة الحكومة الإسلامية تمهيداً لإقامة الحكومة العالمية على يد الإمام المهدي عليه السلام، يقول الإمام: «ثقوا بأن من وراء تعريف العالم بالإسلام نتائج حسنة وترحيباً شديداً يستقبل به الإسلام»[1].

لقد تجلّت عظمة الإمام(قده) في نصرته للمستضعفين سواءً أكانوا هوداً أو نصارى أو مسلمين أو غيرهم، لأن الله تعالى كرّم بني آدم، ومن جوهر الإسلام وعدالته وعالميته أن يحول القيّمون عليه بين الطواغيت وحاكمية العباد والبلاد بحيث لا يكون لهم سبيل على المؤمنين والمستضعفين، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: «لو ان المسيح اليوم موجودٌ فإنه سوف يكون معنا، ولا يمكن أبداً أن تكون دعوةُ المسيح منحصرة فقط بالعبادة مع ترك الظالمين وشأنهم»[2].

إن مما يدل على شمولية خطاب الإمام وعالميته وحيويته في العالم هو تفاعل غير المسلمين مع هذا الخطاب، وتبنّي أكثر حركات التحرر لمفرداته ومضامينه لا من منطلق أنه خطابٌ صادرٌ عن إمام مسلم وحسب، بل من منطلق أنه خطابٌ يدعو الى الحرية والإستقلال وتحقيق العدالة الاجتماعية، وينصر قضايا الشعوب وحقها في تقرير مصيرها. .

والحق يقال: إن إيران الإسلام اليوم ليست جغرافيا ولا

(١) م. س. ص٣٢٢.
(٢) م. س. ص٣٢٤.

تاريخ، وإنما أطروحةٌ تجسدُ مشروع النبوة في مواجهة أطروحات المترفين والمستكبرين القائمة على منطق التقليد والهادفة الى بناء الحياة المادية وتحقيق الأبدية والدهرية من خلال المال والسلطة. وغير ذلك مما يظنه المترفون سبباً للسعادة والكرامة والسلامة، كما قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين**﴾[1].

وكيف كان، فإن تفاعل أحرار العالم مع هذه الثورة، وانسجامهم مع خطاب الإمام (قده) يؤكد عالمية هذه الثورة الإسلامية، وتجاوزها لذاتها فيما تدعو إليه وتسعى لتحقيقه من أهداف، وليس من المبالغة في شيء أن يقال بأن مستضعفي العالم في أي أرض كانوا وإلى أي دين انتموا لا ينتابهم أدنى شك في أن الثورة الإسلامية تعبر عنهم وتعمل من أجل خلاصهم، وكما قال الإمام (رض): «أسألُ الله تعالى أن يمنحنا القدرة التي نطلق بها صرخة الموت لأمريكا وروسيا لا من كعبة المسلمين فقط، بل من كنائس العالم أيضاً»[2].

إذن معجزةُ الإسلام في هذا العصر، وما حققه الإمام (رض) على مستوى حضور الإسلام في حياة الناس يؤكد لنا حيوية الخطاب الديني في العالم، وهو سيكون أكثر حيوية وفاعلية فيما لو اقتدت الشعوب الاسلامية والمستضعفة بالشعب الإيراني المسلم، يقول الإمام: «أما وصيتي للشعوب الإسلامية فهي أن اتخذوا حكم الجمهورية الإسلامية والشعب الإيراني المجاهد نموذجاً وقدوةً، وضعوا حداً بكل قوة لممارسات حكوماتكم الجائرة إن هي رفضت الانصياع لمطالب الشعوب، وهي

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) م. س. ص٣٢٥.

مطالبُ شعب إيران، فالحكومات التابعة للشرق والغرب هي علة مسكنة المسلمين»[1].

إن الإمام الخميني (قده) حينما يدعو الشعوب الإسلامية والمستضعفة الى الإقتداء بالشعب الإيراني المسلم، واتخاذه نموذجاً يُحتذى، هو انما يدعو الى التطلع الى الأسباب والعوامل التي مكّنت هذا الشعب من تحقيق حريته واستقلاله، بحيث تتمكن هذه الشعوب في ضوء ما تتعرّف عليه من أسباب وعوامل وحقائق من ملاحظة أوضاعها الدينية والسياسية، فتنطلق من جديد في بناء نفسها، وإعادة الحيوية الى دورها وخطابها، باعتبار ان الحرية والاستقلال والعدالة ليست أهدافاً إسلامية أو مسيحية أو دينية وحسب، وإنما هي أهداف إنسانية متعلقة بكرامة الإنسان، وبناءً على ذلك فإن من شأن الاقتداء بالشعب الإيراني المسلم أن تتمكن الشعوبُ المظلومة والمسلمة من تحقيق هذه الأهداف، وإقامة الدولة العادلة والمستقلة فيما تلجأُ إليه من سياسات، وفيما تتخذه من قرارات على مستوى الدولة والمجتمع.

والحق يقال: إن الشعوب الإسلامية والمستضعفة اليوم في أكثر البلاد الإسلامية تعيش في ظل مفردات ومفاهيم دينية وسياسية لا تمتّ إلى الإسلام بصلة لا من حيث الجوهر ولا من حيث المضمون. وإذا كان هناك ثمة مفردات ومفاهيم لم يتمكن المتغربون والمتشرقون من إزالتها لاستبدالها بألفاظ أخرى، فلم يمنعهم ذلك من تحريفها وافراغها من مضمونها الإسلامي بحيث يكون لها معانٍ أخرى تتفق وما يحملونه من أفكار ومشاريع أجنبية، وقد نجحوا الى حد ما في تجريد الألفاظ

(١) الوصية الخالدة، م. س.

والمفردات الإسلامية من معناها بعدأن غزوا واقع المسلمين بكثير من المفاهيم والمفردات من قبيل الديمقراطية والدستورية والقومية والوطنية والاشتراكية والعلمانية وغيرها، وهذا كله أدى أن يكون الإسلام تارةً قومياً، وطوراً إشتراكياً وثالثةً علمانياً، وغالباً ما كانت المسوغات لذلك تصدر عن المتقدسين والمتزينين بلباس الدين بحجة أن الإسلام مع التطور، ولا بد أن يكون الإجتهاد خاضعاً لمقتضيات العصر ومواكباً لحركة التطور العلمية!!!

فالإمام رضوان الله عليه في خطابه الشامل، ودعوته العالمية لم ينتقِ مفردةً أو مفهوماً أو مصطلحاً معيناً ليبعث فيه روح الإسلام من جديد، بل نفى كل شيء لأجل إعادة الحياة لكل شيء، بمعنى آخر نقول: لم يكن الانتقاء سبيلاً الى إحياء الخطاب الديني وسائر المفاهيم والمفردات الدينية عند الإمام (قده)، بل كان الخطاب الديني مرتكزاً الى الإسلام المحمدي الأصيل، ومتميزاً بمفرداته ومفاهيمه دون اعتبارٍ لما إذا كان هناك من المفاهيم والمصطلحات ما يوافق المفهوم الإسلامي، لأن منشأ الإلتباس كان ولا يزال هو الانتقاء الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان الى تغليب المفاهيم والمفردات الأجنبية على المفاهيم والمفردات الإسلامية، وعلى فرض انها كانت موافقة للإسلام وغير مخالفة له، لكنها كانت مع مرور الوقت، ونتيجةً لولع الناس بكل ما هو غريب، تتحول عن موافقتها للإسلام لتصبح غريبةً عنه.

وقد حصل في التاريخ الإسلامي أن تلاعب الاستعمار الغربي والشرقي بالمفردات والمفاهيم التي يتوهم للوهلة الأولى أنها ملائمة للإسلام شكلاً ومضموناً وخاصةً في تاريخ إيران التي تأرجحت ولفترة طويلة من الزمن بين المشروطة والمستبدة، وكانت النتيجة خلافات

وصراعات بين الفقهاء من جهة، والسلاطين من جهة أخرى، وذلك حينما طُرحت مسألة الدستورية وما إذا كانت صالحة لتأسيس نظام غير مستبد، وكان من جملة من تصدى لتسويغ الدستورية عدد من فقهاء النجف الأشرف أبرزهم الإمام النائيني رضوان الله عليه. (في كتابه تنبيه الأمة وتنزيه الملة)، وقد تقابل هذا الدعم للمشروطة من قبل فقهاء النجف، مع رفض مطلق لها من قبل فقهاء في إيران دعوا الى أن يكون الإسلام بمفرداته ومضامينه هو البديل، ولا شك في أن هؤلاء كانوا يعون تماماً أن المشروطة (الدستورية) لن تكون هي الحل لما تنطوي عليه من تعقيدات ومجاهيل لا قدرة للشعب الإيران المسلم على فكها وفهم مدلولاتها، وفي نهاية المطاف لم يكن الحل إلا بالإسلام بعد مخاضات وتجاذبات وأحداث دموية تسبب بها الرأيُ والرأيُ المضادُ في المفاهيم والمصطلحات.

يقول الإمام رضوان الله عليه: «كلكم رأيتم، وسيسمع ذلك الجيل القادم أن أيدي محترفي الألاعيب السياسية الشرقيين والغربيين، قد أخرجوا من الساحة علماء الدين الذين وضعوا أساس المشروطية بجهودهم وأتعابهم، وعلماء الدين أيضاً انطلت عليهم أحيولة المتلاعبين بالسياسة واعتبروا التدخل في أمور البلاد والمسلمين لا يتناسب مع مقامهم وتركوا الساحة الى المهزومين أمام الغرب، وأنزلوا بالمشروطية والدستور والبلاد والإسلام ما يحتاج جُبرَانه الى زمن طويل»[1].

إن الحل، برأي الإمام، لا يكونُ إلا بالعودة الى الإسلام مفردة ومفهوماً ومصطلحاً، شكلاً ومضموناً، إذ أنه ليس من المدنية أو العصرية

(١) الوصية الخالدة، للإمام الخميني (رض) م. س.

في شيء أن تتبدل المفاهيم والمفردات، أو أن يحمّل الإسلام مفاهيم وأشكالاً لا تنسجم ومضمونه، فهو كتابٌ يدعو الى الحرية والإستقلال، والى إقامة العدل وتحقيق المساواة، وتبقى المدنية والعصريةُ رهنَ التفاعل معه والأخذ به في شتى حقول وميادين الحياة الإنسانية. وإذا كان لا بد من الدستورية لحكم العباد والبلاد، فلتكن هذه تعبيراً عن روح وجوهر الإسلام، لأن حكومة الإسلام، هي في الحقيقة حكومةً دستورية، ولكنها تختلف عن الدستورية المعنونة بالديمقراطية، التي تجترُّها الأنظمة السياسية في أكثر بلاد العالم اجتراراً، اختلافاً جوهرياً سواءً من حيثُ التشريعات القانونية، أو من حيثُ ملاحظة مصالح الناس وتحقيق العدالة الإجتماعية!؟ هكذا أراد الإمام الخميني أن يكون الإسلام عنواناً لكل شيء، وقد أفادته التجربة كثيراً فيما يعود الى الحياة الدستورية والديمقراطية تحت عناوين الغربية والشرقية، وأيقن أن الإسلام ما لم يكن أطروحة الحياة ومحور الخطاب الديني والسياسي، فإن الحياة الدستورية وغير ذلك مما جعله الإستعمار والتابعين له بديلاً للإسلام، قد تتحول الى الإستبداد وممارسة الظلم بحجة حماية القوانين والحريات العامة كما كان يحصل في تاريخ إيران السياسي حينما أوهم السلاطين كثيراً من علماء الدين من أن السياسة والعمل بها عمل منافٍ لجوهر الإسلام، ولا تليق بمقام العلماء كما أوضح الإمام (رض)، فكان الإسلام شعاراً للحياة الدستورية، ولكنه في الحياة العملية كان تطبيقاً لا يحمل خصائص النظرية الإسلامية من حيث هي نظرية كاملة وشاملة، حيث ان السلاطين، كما يقول الإمام (رض)، كانوا يستعيرون قوانين ومفاهيم ومفردات الغرب والشرق، ومن ثم يسدلون عليها ستار الإسلامية والدستورية والديمقراطية، وكانت النتيجة صراعات وحروباً وقوميات عنصرية

ووطنيات مشبوهة أتى بها المتغربون والمستشرقون من هنا وهناك ليحولوا دون حيوية الخطاب الإسلامي في حياة المسلمين، ولهذا يقول الإمام: «إني أوصي الشعوب الإسلامية أن لا تنتظر أحداً من الخارج ليعينها على الوصول الى الهدف وهو الإسلام وتطبيق أحكامه، يجب عليكم أن تنتفضوا من أجل هذا الهدف الذي يحقق الحرية والإستقلال، وعلى علماء الدين أن يدعوا الشعوب الى الوحدة وتجنُّب النعرات المخالفة لتعاليم الإسلام، وإلى أن يمدوا يد الأخوّة الى إخوتهم في الإيمان بمختلف بلدانهم وقومياتهم، فالإسلام العظيم سمّاهم أخوة، وإن تحققت هذه الأخوة الإسلامية، فسترون ان المسلمين يشكلون أكبر قدرة عالمية»[١].

لكن ما يؤسف له، هو أن عالمنا لا يزال حتى اليوم يتأرجح بين الديمقراطية والاستبداد، ويخضع لمفردات ومفاهيم شتّى، ويسمع لخطابات القومية والعلمانية التي كانت ولا تزال مسميات تحول دون حيوية الخطاب الديني والسياسي في حياة المسلمين، وما حققه الشعب الإيراني المسلم من حيوية في حياته الدينية والسياسية، وفي علاقاته مع العالم، يجدر بالشعوب الإسلامية والمستضعفة أن تنظر فيما أجاد به هذا الشعب على نفسه وعلى العالم من دروس في الحرية، وأن تقتدي به طالما أن هذا الشعب استطاع توفير المناخات الملائمة لمن أراد حرية واستقلالاً، وإذا كانت الشعوب لا تستوي في لغاتها واشكالها وألوانها، فذلك لا يعني أن قضاياها متباعدة، بل هناك قضية واحدة يمكن أن تتلخص بالسؤال الآتي: كيف تحيي الشعوب الإسلامية خطابها الديني والسياسي في مواجهة الاستكبار وعملائه في داخل البلاد الإسلامية وخارجها؟! فإذا كان الإسلام هو الحياة وهو النظام، وهو الخطاب، فلا

---

(١) م. س، الوصية الخالدة.

شك أن المسلمين لن يكون لهم أكثر من هدف واحد هو إعطاء الإسلام كافة أبعاده في الواقع، وقبله في القلوب والعقول والنفوس.

لكن للأسف الخطاب متعدد، والحياة لا تتجاوز التقليد، والنظام السياسي تابع في أكثر البلاد الإسلامية، وهذا يحتم أن يكون الفعل الإسلامي على مستوى الأمة لاحظاً لما أفرزته التجارب الإسلامية الحقيقية من نجاحات وانتصارات، وأهم تجربة يمكن الاستفادة منها في هذا الزمن هي تجربة الشعب الإيراني المسلم الذي تجاوز فعله وخطابه مكانه وزمانه الخاصين به، وواقعه، ليكون له الحضور المناسب والامتداد الفعّال في العالم كله. وهذا دليلٌ على ان الفعل الإسلامي في هذا العصرلم يعد ملكاً لمن قام به، وإنما أصبح ملكاً للشعوب الإسلامية والمستضعفة كافة، مما يوجب على هذه الشعوب أن تكون على مستوى هذا الفعل، لا أن تبحث عن فعل آخر لتقتدي به، فالقرآن هو اليوم وغداً أطروحة العالم مهما بلغت قوة فرعون هذا العصر، وأدنى تأمل فيما حققته الثورة الإسلامية في إيران من انتصارات، لا بد أن يكشف عما سيجود به المستقبل على الأمة الإسلامية ـ بفعل هذه الثورة ـ من حيوية تنفي عنها كل مظاهر الذل والتبعية والاستخفاف..

مما تقدم نخلص الى القول، بأن حيوية الخطاب الديني وشموليته لا تكون بالتبعية والتقليد، ولا باجترار ما ينتجه الغرب والشرق من مفاهيم ومفردات مخالفة لروح الإسلام، وإنما باستلهام تاريخ النبوة في صراعها مع المترفين والمستكبرين، واستحضار ما جاءت به النبوة من مفردات ومفاهيم، وهذا يقتضي أن يبادر علماء الدين المحترمون الى تقلد أمور الناس الدينية والسياسية، لأنهم أولى الناس بهذا الأمر، وبمعزل عن دور العلماء والفقهاء في الرعاية والهداية والتدبير يبقى الحديث عن الخطاب

الديني وحيويته حديثاً لا ينطوي على أي معنى، باعتبار أن العلماء هم عمدة هذا الخطاب، ومن الإسلام في كل شيء أن يحول العلماء بالله بين المتقدسين والمترفين وبين أن يكون لهم سلطان على الناس، وهنا يمكن أن نسأل:

هل من احياء الخطاب الديني في شيء أن يتخلى العلماء عن السياسة، وأن تعطى مقاليد الأمور للجاهلين بأمر الله ونهيه، ولمن يتربّص بالإسلام والمسلمين شراً تحت عنوان ان السياسة كذبٌ وخداعٌ ونفاق؟؟

لقد أجاب الإمام الخميني (رض) على هذا التساؤل بقوله: «إن ما قيل ويقال من ان اهتمام الأنبياء محدود بالأمور المعنوية، وإن شؤون الحكم والإدارة للأمور الدنيوية عمل منبوذ اجتنبه الأنبياء والأولياء والصالحون، وعلينا أن نجتنبه أيضاً، فهذا خطأٌ مؤسفٌ يؤدي الى تلاشي الشعوب الإسلامية وفتح الباب أمام الإستعمار وناهبي العالم..»[١].

كما أن ما تضمنته بعض النصوص الدينية لجهة الحديث عن اعتزال السياسة، فهو أيضاً مما بثته دوائر المعادين للأديان السماوية، لأنه يستحيل أن يكون الأنبياء قد تخلوا عن السياسة للمترفين، وانطلاقاً من هذه الحقيقة ونعني بها قيام الأنبياء بالمهام الدينية والسياسية، يمكن القول بأنه ليس من الحظوة في شيء أن يقبل المسلمون والمسيحيون وسائر المستضعفين في الأرض بحكم الجفاة الطباع في سبيل الفوز برحمة الله ورضوانه كما هو مضمون ومنطق رسالة القديس بولس في الكتاب المقدس لما بيّنا من أن المسيح لو كان اليوم موجوداً لما تساهل مع أعداء الدين، وكذلك ليس من الحظوة في شيء أن نعطي الخد الأيسر لمن يصفعُنا على

(١) الوصية الخالدة للإمام (رض).

الخد الأيمن باعتبار أن الأنبياء جميعاً كسروا الأصنام، ومنعوا من الاستبداد، وأصلحوا في الأرض، وكفروا بالطاغوت قولاً وفعلاً ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً.

إن ملاحظة تاريخ الصراع بين النبوة والمترفين، يؤكد أن الأنبياء لم يكونوا على تهاون مع المترفين، ومن يعتبر نفسه امتداداً للنبوة في الزمان، فلا يسعه إلا أن يقوم بالمهام الدينية والسياسية نفسها التي كان يقوم بها الأنبياء، إذ ان منطق الصراع وجوهره بين الحق والباطل يقتضي أن يستمر مشروع النبوة في الحياة مع الفقهاء، وبتعبير آخر نقول: إن منطق فرعون قد أفلح اليوم من استعلى، لا بد أن يقابله ويواجهه منطق الأنبياء والأئمة، منطق: «قد أفلح من تزكى»، فهذه سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلاً...

فالنبي موسى عليه السلام كما يقول الإمام الخميني (قده) ثار بوجه فرعون وحيداً، وكذلك نبي الإسلام لم يكن معه سوى الإمام علي وخديجة، وقد تمكن الأنبياء جميعاً من بعث الروح في المجتمع الإنساني بما توفروا عليه من عزيمة وصدق وإخلاص. وعليه، فإن الخطاب الديني الشامل والحي لا يمكن أن يتم بمعزل عن السيرة الجهادية لأنبياء الله وأوليائه، وما لم يقم العلماء المحترمون بمهام النبوة، فإن الخطاب الديني سيبقى رهين السياسات الشيطانية، وقد عبّر الإمام عن هذا بقوله: «إن عزل العلماء المحترمين هو مخطط شيطاني..»[1].

فالأنبياء والأئمة عليهم السلام لم يجعلوا أولياء للناس لمجرد ذلك فقط، أي أن يكون الجعل الاعتباري لمجرد التبرك، كما ان البعثة لم تكن بهدف تنصيب الأنبياء والأئمة ملوكاً، أو ليخففوا من عزيمة الإنسان في سعيه من

(١) الوصية الخالدة للإمام (رض).

أجل بناء حياة سليمة ومتوازنة، بل بعثوا للكشف عن هوية ومضمون كل الملوكيات العارية التي استبدّت وطغت وأترفت واستخفت بكل القيم والأهداف والمبادىء، حيث ان رحمة الله تعالى وعنايته وحكمته أبت أن يترك الناس هملاً تقذف بهم أهواء الترف وسياسات الغرور في كل اتجاه، فبعث اليهم بما يحييهم، بالرسول والرسالة لإخراجهم من الظلمات الى النور وهدايتهم الى سبيل الرشاد. . .

خلاصة القول: إن النبوة الخاتمة أسست لمنطق وفعل حضاري متكامل الأبعاد، وليس معنى إحياء الخطاب الديني أكثر من أن يستحضر المسلمون والمستضعفون فعل النبوة وقولها في حياتهم العملية. فالنبوة لم تدخل الزمن لأجل أن تغيب، بل لتبقى فاعلة وحية وحاضرة بأطروحتها الإيمانية والتوحيدية، بخطابها الكامل والشامل، وإن أهم فعل حضاري يمكن أن يقوم به الإنسان اليوم هو إخضاع حركته التاريخية وحيويته الزمانية، وحياته الواقعية الى منهج وفعل وحركة النبوة الخاتمة بكل ما جاءت به من مفاهيم ومفردات، باعتبارها نبوة خاتمة وكاملة وشاملة. كماقال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[1].

لقد عرف الإمام الخميني (قده) كيف يستحضر النبوة في حركته وثورته وخطابه الديني والسياسي، كما انه استطاع أن يعطي هذا الخطاب كثيراً من امتداداته في الواقع، فأقام الدولة، وطبّق الشريعة وحقق العدالة وأصلح في الأرض وكفر بالطاغوت ونادى بالولاية التي ما نودي بشيء مثلها. .

هكذا، عادت الأمة اليوم الى دورها الشاهد والوسطي مع

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

الإمام (رض) ومن خلال قيادته ورعايته، وقد رحل الإمام (رض) وكله أمل أن تمتد هذه الصحوة الإسلامية وروحية هذا الخطاب في العالم الإسلامي من خلال العلماء بالله كي تنقذ المسلمين والمستضعفين من أسر الاستعباد والاستغلال في أي أرض كانوا وإلى أي دين انتموا، وها هي الثورة والدولة والحكومة الإسلامية، كل ذلك هو اليوم معقد أمل ومبعث فخار للأمة جميعاً، وما دام الوعي الإسلامي اليوم قد ساهم بإحياء الخطاب الديني، فإن من شأن ترجمته وتفاعله أن يحفظ لهذه الثورة ديمومتها بكل ما تذخر به من مفردات ومفاهيم أصيلة، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: «إن سر ديمومة الثورة الإسلامية هو نفس سر انتصارها، والأمة تعلم ماهية هذا السر وأين يكمن، والأجيال القادمة ستقرأ في التاريخ ان دعامتي هذا السر تكمنان في الدافع الإلهي والغاية السامية للحكومة الإسلامية والتفاف الشعب حول هذا الدافع وتلك الغاية»[١].

ان دور الإمام (رض) في إحياء الخطاب الديني، وإشاعة المفردات والمفاهيم الدينية ساهم ولا يزال يساهم وسيبقى يساهم في تنوير ما أظلم من أفكار ومفاهيم ومفردات إسلامية أصيلة. وإذا كان لا بد من الاختصار فلنقل: إن الإمام (رض) أضاء شعلة الإيمان ووصل الزمان وحقق كما يقول الإمام الخامنئي حفظه الله، أعظم معجزة في هذا العصر. «إن الإمام (قده) هو محي التفكير الديني ومؤجج شعلة الإيمان وخالق أعظم ملحمة شعبية في عصرنا هذا»[٢].

---

(١) الوصية الخالدة للإمام (رض).

(٢) الإمام الخامنئي حفظه الله، حديث الشمس، م. س.، ص٨٧.

ثالثاً: دور علماء الدين والمراكز الدينية في إحياء الخطاب الديني

إذا كان الإمام الخميني (قده) قد أرسى بمجهوداته وتضحياته قواعد الخطاب الديني والسياسي، واستطاع أن يحقق المجتمع الاسلامي بالمفردات والمفاهيم الدينية التي كانت غائبة أو غريبة في مجتمعات المسلمين نتيجة لتخلي المسلمين عن القرآن ولحاقهم بالحضارة الغربية المادية، فإن الإمام في خطابه الإسلامي لم يغفل عن دور علماء الدين في إحياء الخطاب الديني بكل مفرداته ومفاهيمه، وعن قدرتهم على إصلاح ما فسد من أمور المسلمين، يقول الإمام (قده): «إن قيادة الأمة إلى الإصلاح ومعرفة الإسلام على وجهه الصحيح، تستلزم صلاح أهل العلم وحملة الشريعة، بمعنى ضرورة تكامل نشاطهم التعليمي والاعتماد على النفس والثقة بها واجتناب الكسل والوهن والنكول، ومحاولة محو آثار ما ينشر في الناس من أباطيل. . . وطرد فقهاء القصور الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم من صفوفنا، وابعادهم عن زيّنا وتعريتهم وفضح أعمالهم»[1].

(1) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، دروس فقهية في النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ.

وكما ورد في كثير من الأحاديث عن الأئمة عليهم السلام من أنه إذا صلح العالِمُ صلح العالَم، وما لم يقم علماء الدين بمسؤولياتهم الثقيلة والجسيمة، فإنهم بذلك يكونون قد تركوا أمور الناس وشؤونهم الدينية والسياسية للحكام الجائرين ومَن يقتدي بهم من فقهاء البلاط الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم كما يقول الإمام رضوان الله عليه، وهو يذكر انه ذات مرة ذهب الى بعض المدن في فصل الصيف، فرأى الناس مؤدبين مهذبين، والسبب في ذلك كما تبيّن هو أن عالم تلك المنطقة إنسان متّقٍ صالح[1]. وقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام: أنه قال: «كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية»[2]، يقول الإمام الخميني (قده): «إن مجرد وجود العالم المتقي في منطقة ما كافٍ في إرشاد الناس والتأثير عليهم حتى إذا لم يقم بالوعظ والإرشاد»[3].

وكيف كان، فإن إحياء الخطاب الديني يبقى في الدرجة الأولى مسؤولية علماء الدين الذين عقلوا عن الله وفهموا عن الإسلام والأئمة ما ينبغي القيام به لتحقيق العدالة الاجتماعية، وإزالة الظلم والحرمان عن الشعوب المسلمة والمظلومة في العالم؛ لأنه إذا لم يقم هؤلاء العلماء العدول بمهمة الإصلاح والقيادة فإن كل شيء في بلاد المسلمين وحياتهم يصبح عرضةً للمسخ والتشويه، وقد روّجت الأنظمة الجائرة على طول تاريخنا الإسلامي بأنه ليس من مسؤولية علماء الدين القيام بالمهمة

---

(١) الإمام الخميني، الجهاد الأكبر، ترجمة حسين كوراني، الدار الإسلامية، ص١٣.
(٢) م.ع، ص١٣.
(٣) م.ع، ص١٣.

السياسية لما يرافقها من خبثٍ ومكرٍ وخداع، وهذا كله يتنافى مع الإسلام، ومما يؤسف له ان كثيرين من علماء الدين وقعوا في التباس، واستجابوا لهذه المزاعم وقد دفعوا بأنفسهم الى الاعتزال والانزواء تاركين السياسة لمن يغدر ويفجر ويملك فنون الكذب والاحتيال والدهاء بحجة ان هذه الأعمال ليست من الإسلام في شيء، وكما يروي الإمام (قده): «إن أحد رجال الدولة في إيران خاطبه في السجن بالقول: ان السياسة خبثٌ وكذبٌ ونفاقٌ اتركوا ذلك لنا، يقول الإمام: هذا صحيح.. ولكن السياسة في الإسلام ولدى الأئمة الذين هم ساسةُ العباد لا تعني ما قاله لي ذلك الرجل..»[1].

لقد تأثر الخطاب الديني والسياسي عند كثير من علماء المسلمين بما روّج له السلاطين وفقهاء البلاط، على الرغم من أن فقهاء البلاط كانوا يقومون بمهام سياسية ودينية لتسويغ مشروع الحاكم الجائر، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخطبون في الملأ أن التدخل في السياسة عمل لا يتفق وجوهر الإسلام، وقد خدع الناس بهؤلاء ولم يلتفتوا الى ما كان يقوم به فقهاء البلاط من مهام سياسية ليسألوهم عن معنى الدين والسياسة في أجواء الترف والجور السلطاني!؟؟

إن الإمام (قده) في خطابه الديني يحثُّ علماء الدين المحترمين أن لا يعزلوا أنفسهم عن قضايا المجتمع، كما ان عليهم أن يكشفوا عن زيف وألاعيب محترفي السياسة التابعين للغرب والشرق في بلاد المسلمين، يقول الإمام (قده): إن العلماء قد خُدعوا بألاعيب محترفي السياسة فاعتبروا التدخل في شؤون البلد والمسلمين لا يناسب

(١) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س، ص١٣٦.

مقامهم فأودعوها بأيدي المتغربين»[1].

فالإسلام دين سياسته عبادة وعبادته سياسة كما يقول الإمام (قده). وإذا كان الإسلام كذلك، فكيف يمكن الفصل بين الدين والسياسة؟ بل ما يكون معنى الدين إذا كانت العباد والبلاد ستترك للفراعنة والمترفين؟ وهل ما قام به الرسول وأمير المؤمنين من مهام سياسية، قبل وبعد إقامة الدولة الإسلامية لم يكن عملاً سياسياً!؟

لا شك في ان السياسة هي عبادةً من عبادات الإسلام، وما لم يتصدَّ علماء الدين المحترمون لهذه المهمة، ويقوموا بمهمة الإصلاح، فإن المفردات والمفاهيم الدينية ستبقى دون تأثير في الحياة العملية للناس، باعتبار أن الاحياء لهذه المفاهيم ولكل ما ينطوي عليه الخطاب الإسلامي من مفردات انما يكون ممكناً وفاعلاً في ظل إقامة الحكومة الاسلامية، ومن خلال تصدي العلماء المحترمين لمهام الرعاية والهداية والتدبير بحيث يكون هناك صيرورة على مستوى الفعل السياسي، فلا يقتصر الأمر على خطاب ديني وسياسي مجرد عما يعيشه المسلمون ويتعرضون له من مصائب ومحن وبلاءات بسبب تصدي الجهلاء، وكل ما تسمى بالعلم وليس به، لأمورهم ورعاية مصالحهم!؟

إن الخطاب الإسلامي مع كل الذين حكموا باسم الاسلام لقرون من الزمن كان خطاباً إسلامياً بالشكل لا بالمضمون، وهو غالباً ما كان خطاباً بمفردات ومفاهيم الفرعونية الخفية التي رفعت شعار الإسلام والشورى والعدالة لإيهام الناس بأنها من الإسلام في شيء، لكنها في المضمون كانت فرعونية تحكم باسم التفويض الإلهي، وغير ذلك من مقولات من

(١) الإمام الخميني، الوصية الخالدة.

قبيل: أنا سلطان الله في الأرض كما قال المنصور، وإن الله أراد لي الملك وأنتم له كارهون كما قال معاوية بن أبي سفيان، ولو أردنا استعراض ما تنطوي عليه كتب التاريخ من النصوص الفرعونية الخفية لما اتسع لها هذا البحث.

والحق يقال: إن الترف العلني، بعد انتصار النبوة، لم تعد له قوة أن يملك فرصة الانقلاب على ما حققته النبوة على مستوى العقيدة والمشروع السياسي، فوجد المترفُ نفسه مضطراً لسلوك الطريق السري كي يحقق أهدافه، أي أن مقولة أنا ربكم الأعلى، ويا أيها الملأُ ما علمت لكم من إله غيري. هذه المقولات لم تختفِ من الفعل الديني أو السياسي نهائياً وهي لا تزال تقال حتى يومنا هذا، لكن منها ما يقال باللفظ ومنها ما يقال بالمعنى، وذلك يبقى خاضعاً لضعف أو قوة الإيمان في مجتمع إنساني ما، إذ انه حيث يكون الاستخفاف بالناس تكون الفرعونية، وحيث يكون الإيمان تكون النبوة أو أثرها، وما ينبغي قوله هنا، هو ان المترفين وإن تخلوا عن مشروعهم السياسي ومقولاتهم التقليدية والدهرية بسبب قوة وحضور الإسلام، فذلك لم يكن إذعاناً منهم أو تسليماً بما جاءت به النبوة، وإنما خوفاً منها وقناعةً منهم بعدم جدوى تأليه أنفسهم، مما اضطرهم الى التكلم باسم الدين ووسم أنفسهم بصفة القداسة والحكم باسم الله، وكما يقول الكواكبي: «انه ما من مستبد إلا ويتخذ لنفسه صفة قدسية يشارك بها الله»[1]. . لكن هذه الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه، كما فعل فرعون قديماً، «وقد تكون خافية مستترة وإن كان مضمونها ظاهراً في سلوكه فهو على أقل تقدير لا يُسأل عما يفعل وهم

(١) عبد الرحمن المواكبي، طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد، بيروت، دار النفائس، ص٦١.

يُسألون، وهذا ما فعله جميع الطغاة على مدار التاريخ»[1].

إن الإمام الخميني في خطابه الديني والسياسي، وفي وصيته السياسية الإلهية لشعوب العالم الإسلامية والمستضعفة حينما يدعو إلى اصلاحِ المتقدسين، وتطهيرِ المراكز الدينية، وطردِ فقهاء السلاطين[2]، هو انما يؤكد على البدء باحياء الخطاب الديني الصحيح من خلال القضاءِ على دور هؤلاء في حياة الناس وكشف ألاعيبهم لئلا يكونوا أعداءً للأمة من الداخل، يقول الإمام: «فهؤلاء يوجهون أكبر لطمةٍ للإسلام ويشكلون أكبر خطرٍ عليه، ويبرزون الإسلام بصورةٍ مشوّهة، ويوجدُ من هؤلاء كثير في الحوزات العلمية، ولهم تأثير على بسطاء الناس، كما انهم يعارضون أية صرخة لايقاظ الناس من السبات ويدعون إلى الكسل والتخاذل»[3]، وقد ورد في الحديث في شأن فقهاء السلطة: اخشَوْهُمْ على دينكم»[4].

إذن، الخطاب الديني الحي والفاعل انما يكون بتصدي الفقيه العادل لأمور الناس الدينية والسياسية، بحيث تكون له القدرة على احياء ما يحتاج إليه المجتمع من مفرداتٍ ومفاهيمَ تعززُ دورَه وتؤهلُه لأن يرتقي في كمالاته، أما أن ينزويَ علماءُ الدين المحترمون، وتتركُ الأمورُ للسلاطين وفقهاء البلاط فذلك ما ابتُليَ به المسلمون لفترةٍ طويلة من الزمن، وقد حذّرَ الإمام من ذلك، داعياً إلى أن تكونَ الأمورُ ومجاريها بأيدي العلماء والمراجع لكونهم من أقدرِ الناسِ على الرعايةِ والهداية والإصلاح.

(١) إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لنشوء الاستبداد، ١٩٩٤، ص٩.
(٢) الإمام الخميني، الحكومة الاسلامية، م.س. ص١٣٢، ١٣٣.
(٣) م.ع.ص.ن.
(٤) م.ع.ص١٣٥.

وكيف كان، فإن الاستبداد لا يزال يتحكم بكثير من الشعوب المظلومة والمستضعفة في العالم وإن اختلفت أشكاله وألوانه، ووسائلُهُ، فهو من حيث الطبيعة والأهداف والنتائج واحد، وقد شقَ طريقَهُ في تاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام من خلال ما يُسمى بالسلطة المطلقة القائمة أساساً على اعتبار الحاكم حاكماً بأمر الله وذي طبيعةٍ إلهيةٍ معصومةٍ ترتفعُ به عن كونه بشراً. إن هذا الشكل من أشكالِ الحكم كان دائماً يظهرُ على يد مجموعة تدعي اتباعَ هذا الدين أو ذاك، يدفعُ بها الترف وحب الدنيا والرياسةِ إلى أن تأولَ النصوصِ المقدسة وفق ما تراه ملائمة لمصالحها وأهدافها الخاصة، وتقدم اجتهادات شخصية وتأويلات ذاتية تمكنها من الوصول إلى الفقه باسم الدين فتكون لها مقاليد الأمور، وتستخدم في عملها أحطَّ الوسائل والدسائس والقتل والرشوة والمال والارهاب والكذب على الله ورسوله لتحقيق رغباتها!!

إن المترفين والمستكبرين الذين حذَّر منهم الإمام الخميني ودعا إلى نبذهم كانوا يحاربون الله والنبوة وكل من يؤمن بها ويخوضون حرباً ضروساً ضد ما جاء به الأنبياء من تعاليم ومبادىء وقوانين، وقد تحولوا بعد هزيمتهم في صراعهم مع النبوة إلى محاربين لها باسمها وباسم الدين، كما هو شأن كل السلطات المطلقة والحكومات الجائرة التي كانت تعتبر نفسها من طبيعة إلهية، وتحمل نظرية الحق الإلهي المباشر، وقد تطورت هذه النظرية مع ظهور المسيحية والإسلام، وهذا التطور السلبي للترف والإستكبار يمكن ملاحظته فيما انطوت عليه بعض الكتب والأحاديث حول تقديم الطاعة للحاكم مهما كان نوعه وصفاته باعتباره حاكماً اصطفاه الله وأودعه السلطة؛ ومن قبيل هذا ما نقرأه في رسالة القديس بطرس الأول في أولياء الأمر، وما نقرأه في تاريخ الخلفاء والأمراء الذين حكموا باسم

الإسلام ولا تزال هذه النصوص حية في القول والفعل حتى يومنا هذا.

فالترف الخفي الذي حاول الحكام الجائرون في تاريخ الأديان السماوية تدعيمه وتبريره لم يكن ترفاً وجوراً مشابهاً لما كان عليه الترف الفرعوني من صراحة ووضوح، وكما يقول الإمام الخميني: «لو أن المسلمين تساهلوا مع هؤلاء الجائرين والمترفين لما توانوا عن تنصيب أنفسهم آلهة للبشر»[1] ، وعن ادعاء الربوبية كما قال فرعون: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾. لكن هذا الترف يلتقي في كثير من الوسائل والأهداف، والحق يقال: إن الذي حال دون استمرار الترف الفرعوني بأسلوبه ومضمونه هو النبوةُ وما تركته من آثارٍ ايمانيةٍ وسياسية ومعرفية في حياة الناس، ولما كان هدفُ المتربصين بالنبوة وأتباعِها شراً، فلم يجدوا بداً من استخدام الدين الجديد، واظهار حرصهم الشديد عليه، وقد استطاعوا إلى حدٍ ما من تحقيق نجاحات كثيرة على مستوى التحريف للنص والتأويل له على النحو الذي يمكنهم من بسط سلطانهم الديني والسياسي على الناس، وكادت مشاريعهم أن تنجح في الدين والسياسة لو لم تكن هناك امتدادات للنبوة في الحياة البشرية. فالمقصود بالترف الديني هو ما قام به فقهاء السلطة في كل زمان من تبرير للسلطة المطلقة وللتفويض الإلهي لهؤلاء بأن يحكموا باسم الله!

ولا زلنا نشاهد في عصرنا هذا دورَ بعض رجالات الدين في دعم سلطان الحكم المطلق، والحكومات الجائرة من خلال تقديم الفتاوى اللازمة لذلك. انه ترفٌ ديني يستعمل اسم الله وفي سبيل الله قولاً، ولكنه في الجوهر والفعل يخدم السلطان الجائر، ويستعمل آلة الدين للدنيا، كما

---

(١) انظر: الإمام الخميني، حديث الشمس، منظمة الإعلام الإسلامي، ترجمة رعد جبارة، ١٩٩٢، ص٣٣.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: بلى أصبت لقناً غير مؤمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه»[1].

كان ولا يزال الترف الديني بعد انقضاء النبوة عمدة الاستبداد السياسي، وما لم يحكم اتباع النبوة والعارفون بما جاءت به من تعاليم وقوانين وأحكام في الدين والدولة، فإن الاستبداد السياسي سيبقى مدعماً بكثير من النظريات الدينية والفتاوى الشرعية، ومما يدلُ على هذا هو ان السلاطين في التاريخ الإسلامي قد أنشأوا الفرق أو على الأقل دعموها لتقوى وتنتشر لتساعدهم على تأليف الأفكار الدينية والسياسية التي تسهم في تقوية نظام الحكم القائم تحت شعار الحكم بما أنزل الله تارة، والقتالُ لأجل أن يعود الأمر شورى بين المسلمين طوراً، كما حصل في زمن بني أمية وبني العباس وغيرهم.

لسنا نقصد بالترف الديني المبرر للاستبداد السياسي غير ما تقدم ذكره من وجود رجال دين، تسموا بفقهاء السلطة، في خدمة المشروع السياسي للسلطان الجائر الذي دلت حياتُهُ وسيرتُهُ وأعماله على تمثلات حقيقية للفرعونية القديمة وتشبيهات أكيدة لها؟، وأدنى تأمل في تاريخ المسلمين يكشفُ عن أن العلماءَ الحقيقين بالكتاب والسنة وكل الذين شكلوا امتداداً حقيقياً للرسول وأهل بيته عليهم السلام كانت شكاياتُهُم ومعاناتُهُم من الترف الديني أكثر مما كانت من الاستبداد السياسي المتمثل بالسلطة الجائرة بدليل ما واجهه الإمام علي عليه السلام في حرب الجمل، وفي حرب صفين، وحرب النهروان وفي غيرها من المواقع العسكرية، وأكثر ما كانت هذه المعاناة في المواقع السياسية التي كان يحتدم الصراع فيها حول طبيعة

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، قصار الحكم ١٤٧.

الحكم ومن تكون له الأحقية به، أو حول الشورى وما إذا كانت بديلاً للنص وغير ذلك. . !؟

ولو أردنا إقامة البرهان على ما للترف الديني من أثر سلبي في حياة الناس في عصرنا الحاضر لما احتجنا إلى مزيد من التأمل والبحث فيما آلت إليه المدارس الفقهية والمذاهب الكلامية في ضوء تحكمات الاستعمار الجديد بالمنطقة العربية الإسلامية، وبروز مدارس ترفٍ جديدة ساعدت على ايجاد الكيان الصهيوني في فلسطين، وقتل روح الجهاد في أفراد وجماعات الأمة الاسلامية، وكيف لا تصلُ الأمةُ إلى هذا المستوى من الهزيمة على صعيد الروح والمادة معاً إذا كانَ كلُ شيءٍ مبرراً من قبل بعض المدارس الفقهية والكلامية، ومؤمناً له الغطاءُ الكامل من قبل القيمين على هذه المدارس، وقد شهدنا مؤخراً، وحصراً منذ سنة ١٩٩١ التي بدأت فيها مفاوضات مدريد بين العرب واسرائيل كثيراً من الفتاوى المبررة للصلح مع اسرائيل على قاعدة قوله تعالى: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾**[١]، **﴿والصلح خير﴾**[٢]!؟.

إضافةً إلى ما ادعاه بعض المترفين الدينيين من ان الجهاد ليس معناه قتال الكفار والمشركين، وانما معناه محاربة الجهل والفقر والمرض، وما إلى ذلك من مقولات واجتهادات ذاتية وتأويلات شخصية تبرر الصلح مع العدو الصهيوني، وتدعو إلى إطامة علاقات طبيعية معه. . !؟

إنا نزعم بأن بعض المتدينين والمتقدسين ممن يفترض فيهم أن يتحملوا مسؤولية الدفاع عن المشروع الإسلامي والعمل من أجل تطبيقه قد وصلوا إلى مرحلة من الترف سواءً في المال، أو في السلطة، قلما استطاع

(١) سورة الأنفال، الآية ٦١.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٨.

أن يصل إليها المترفُ السياسي المستبد. وبما أن الدين ليس ترفاً ولا حرصاً على الدنيا بما فيها من أموال ومتاع الغرور لما بينته النبوة والرسالات من أنه مسؤولية وأعباء ودفاع عن قضايا المستضعفين وحقوقهم، فإن ذلك يحتم اعادة النظر فيما انتهت إليه الحوزات العلمية والمدارس الفقهية والكلامية في العصر الحاضر من ترف ديني وسياسي لمعرفة الأسباب الكامنة وراء تصدع هذا البناء المقدس بسبب ما لحق به من غرور وكبرياء وترف وتهاون بالمسؤولية الشرعية التي ألقيت على عاتقه منذ القدم. إن الأمة لا تزال ترى في هذا الصرح العلمي المقدس الأمل والرجاء والعلم والتقوى، وما لم يتحرر هذا الصرح الذي يحتوي على كل العلوم التي تحتاجها الأمة لبناء نفسها وتحقيق مشروعها، وما لم يتحرر أهله من عقلية الترف التي تستبد بالأكثرية منهم، فإن المستقبل سيجود على الأمة بكثير من المصائب والبلاءات قد لا يكون أقلها تحكم اسرائيل بخيرات وثروات وقرارات هذه المنطقة الغنية من العالم. يقول الإمام الخميني: «إن الحوزة الدينية هي موطن الفقهاء العدول، ومعدن أُمناء الله وخلفاء الرسل، ومن يكون أمين الله في عباده وبلاده لا يطمع في شيء من فضول الحياة، ولا يطيع للظالمين أمراً، ولا يزكي لهم عملاً، ولا يعقد لهم عقدة، ولا يبني معهم بناءً. .»[(١)].

وهنا أراني مضطراً للقول: بأن انقسام العالم اليوم إلى مترفين وفقراء وأقوياء وضعفاء لم يكن ذلك بسبب رجالات السياسة فقط بل ساهم في هذا الانقسام والاستبداد فقهاءُ السلطة أيضاً، حيث انهم أعطوا رجال السياسة مقاليد الأمور بتكليف من دوائر الأمن والاستخبارات[(٢)]، ودخلوا

---

(١) الحكومة الاسلامية، م.س. ص١٤١.

(٢) انظر، الإمام الخميني، كتاب الحكومة الاسلامية، م. س. حيث أنه في كلامه =

معهم في أتون الترف والفساد حتى بلغ الأمر بهم درجة البطر بالنعم والتفريط بها، بدل أن يرشدوهم ويقدموا لهم النصيحة فيما ينبغي أن يعملوه من أجل حماية الأمة من شرور الفراعنة والطغاة.

لقد ساهم هذا الترف وما تسبب به من انقسامات على مستوى الأمة في خلق الظروف المناسبة لايجاد الكيان الصهيوني في فلسطين، وما كان ذلك ليتم لولا التهاون بكل المبادىء والقوانين والإرشادات، التي أتى بها الأنبياء لاحياء المجتمعات البشرية. وإذا كان التهاون يدل على شيء، فإنه يدل على عقلية الترف وسياسة الترف الحاكمة في المجتمع، وقد أثبتت التجارب التاريخية أن هذه العقلية لا بد أن يتولد عنها فقر مادي وروحي، هذا فضلاً عما يتولّد عنها من جهلٍ بأمور الدين والدنيا، وإذا ما استمرت هذه العقلية في حكم الدول والمجتمعات فإن النتيجة ستكون لا خسارة فلسطين وحسب، بل خسار شاملة على مستوى وجود الأمة وحضورها وفعلها.

لقد أرشد الإمام الخميني إلى حقيقة ما ينبغي القيامُ به من قبل علماء الدين والمراجع العظام، والإمام (قده) كما نعلم ـ قرأ بدقة لا متناهية تجارب الاستبداد الديني والسياسي وعرف مواطن الخطأ، ومقاتل الأمة؛ وأدرك أسباب المصائب التي وقعت على المسلمين تحت شعارات شتى في الدين والسياسة، وارتفع فوق أطروحات القومية والمشروطية والعلمانية وغيرها ليلامس حقيقة الإسلام المحمدي الإصيل، ومن موقعه هذا استطاع أن يرشد وينصح العلماء والفقهاء بأن يبتعدوا عن الترف في الحياة، لأنه يؤدي إلى أن يكون الدين مشروعاً مستثمراً في مشاريع الترف الدينية والسياسية، يقول الإمام الخميني: «اعرضوا عما ضمن لكم في هذه

= ما يفيد هذا المعنى.

الحياة الدنيا، وزكوا أنفسكم، واتقوا ربكم واتكلوا عليه، وإن كنتم ـ لا سمح الله ـ انما تدرسون علوم الدين لتترفوا في الحياة، فأنا أؤكد لكم أنكم لا تبلغون من الله شيئاً، ولا تنالون لديه مقاماً محموداً والله يحرمكُم من التوفيق إلى فضيلة الاجتهاد والفقه والبصر في أحكام الدين، ولستم بذلك أمناء الرسل ولا ورثة الأنبياء، ولا حصون الإسلام، اتركوا زخارف الحياة واكتفوا بعيش الكفاف ليقتدي الناس بكم في عفة نفوسكم»[1].

إن سلامة الدين على مستوى العقيدة والشريعة لم تكن بسبب السلطان ومن لاذَ به من فقهاء البلاط، ولا بسبب المترفين الذين اتخذوا الدين شعاراً ودثاراً، وانما استمر الدين حياً مع العلماء العدول الذين أسسوا للثورة ضد الظلم والظالمين، وقد تعرضَ هؤلاء العلماء إلى كثير من المحن والمصائب في سبيل ابقاءِ تعاليمِ الدين حيةً في المجتمع الإنساني، كما ان وجود هؤلاء العلماء قد حال دون افساد عقائد الناس بما تمكنوا من الحفاظ عليه في ظل حكم الاستبداد والترف. إن العلماء بالله وإن كانوا قلة، فقد استطاعوا توجيه النقد إلى كل الذين تزيوا بزي الدين زوراً ونفاقاً ودأبوا على تسويغ مشروع السلطان السياسي، وتشويه سيرة العلماء الحقيقيين ليحولوا بينهم وبين تسلم السلطة[2]. يقول الملا صدرا: «لقد اتهموهم وتوجهوا بالنقد إلى فقهاء البلاط لما رأوه من انكبابهم على تحصيل الجاه والرياسة وتمشية أغراض الملوك في ما لا يجوز. أُنظر إلى ما يقاسيه في نفسه ومجتمعه العالم بالله والمجاهد في سبيله»[3].

---

(١) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م.س. ص١٤٤.

(٢) م.ع. ص١٧٢.

(٣) الملا صدرا، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات، ايران، ص١٩٩.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ـ القرآن الكريم، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٩٩١م.

ـ نهج البلاغة، الإمام علي ٥، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦م.

ـ المصادر المطبوعة: للإمام الخميني (رض).

ـ الإمام الخميني، الإستقامة والثبات، ترجمة كاظم ياسين، بيروت، ١٩٩٢م.

ـ الخطاب التاريخي، هدية جريدة العهد اللبنانية، تاريخ ٢٢ شباط ١٩٨٩م.

ـ الحكومة والولاية، حديث الشمس، منظمة الإعلام الإسلامي، ١٩٩٢م.

ـ الوصية السياسية، النداء الأخير، مؤسسة الإمام الخميني الثقافية، ط١، إيران، ١٩٩٢م.

ـ الأربعون حديثاً، تعريب الغروي، دار التعارف، بيروت، ط٤، ١٩٩٢م.

ـ الجهاد الأكبر، ترجمة حسين كوراني، الدار الإسلامية، ١٩٩٢م.

ثانياً: المراجع

ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث، بيروت، (لا ـ ت).

ـ ابن رشد، فصل المقال فيما في الحكمة والشريعة من اتصال، ط٣، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
ـ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.
ـ ابن منظور، لسان العرب، دار التعارف، في القاهرة، (لا ـ ت).
ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط١، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٥م.
ـ أبو حسن الأشعري مقالات الاسلاميين، دار الحداثة، بيروت، (لا ـ ت).
ـ أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٨٣م.
ألبرت حوراني، الفكر العربي، عصر النهضة، دار النهار، ط٤، ١٩٨٦م.
ـ إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، عدد ١٨٣م.
ـ الأمير تشارلز، الاسلام والغرب، ط١، ١٩٩٣م.
ـ أنور الجندي، سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني، (لا ـ ت).
ـ جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٧٣.
ـ جعفر المهاجر، ستة فقهاء أبطال، ط١، ١٩٩٤م.
ـ جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، القاهرة.
ـ جيل كيبل، مستقبل الأصولية، جريدة السفير، المركز العربي للمعلومات، عدد ٣، ١٩٩٣م.
ـ الراغب الاصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ـ ت).
ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، منشورات الرضي، (لا ـ ت).

- صدر الدين الشيرازي، الملقب بالملا صدرا، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات، إيران، (لا ـ ت).

- صموئيل هانتغتون، صدام الحضارات، القاهرة، مطبعة مدبولي، ط١، ١٩٩٥م.

- عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م.

- عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٤م.

- علي شريعتي، الأمة والإمامة، دار الأمير، بيروت، ١٩٩٥م.

- علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، دراسة ونصوص، وجيه كوثراني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٦م.

- علي الخامنئي، الحكومة والولاية، حديث الشمس، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ترجمة رعد جبارة، ١٩٩٢م.

- فرح موسى، فقهاء السلطة، وسلطة الفقهاء عند الإمام الخميني، دار الوسيلة، بيروت، ١٩٩٥م.

- فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة، عند الإمام شمس الدين، دار الهادي، ١٩٩٥م.

- فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الاتحاد القومي، بيروت، ١٩٩٣م.

- فهمي هويدي إيران من الداخل، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٨٨م.

- كامل الشيبي، دائرة المعارف الإسلامية.

- محمد باقر الصدر، دروس إسلامية، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٩م.

- محمد حسنين هيكل، قصة إيران والثورة، دار الشروق، ط٣، ١٩٨٣م.

- محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٩م.

ـ محمد بن محمد بن النعمان العكبري، المعروف بالشيخ المفيد، أوائل المقالات، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.

ـ مالك بن نبي، شروط النهضة، دار دمشق، (لا ـ ت).

ـ محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠م.

ـ محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

ـ محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، نقد وتحليل، دار مجد، بيروت، ١٩٨٥م.

ـ محمد مهدي شمس الدين، في الاجتماع السياسي الإسلامي، المؤسسة الدولية، بيروت، ١٩٩٢م.

ـ مرتضى مطهري، الحركات الإسلامية في القرن العشرين، دار الهادي، بيروت، ١٩٨٤م.

ـ مرتضى مطهري، الإسلام وإيران، دار الحق، بيروت، ١٩٨٥م.

ـ موسى الصدر، منبر ومحراب، الدين والعلم، دار الحوراء، بيروت، ١٩٨٩م.

ـ موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة، دار الأفكار، بيروت، ١٩٩١م.

ـ هيغل، موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

ـ وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، دار الراشد، بيروت، ١٩٨٩م.

فهرس الموضوعات

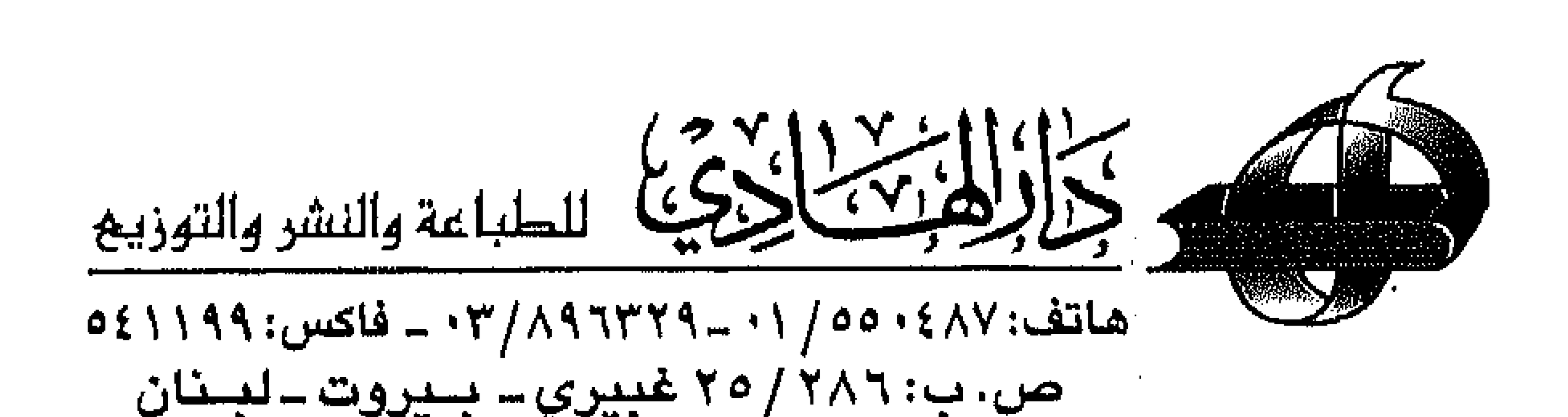
الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة : إيران الإسلام والغرب : حوار أم صدام	٧
ـ تمهيد البحث	٧
١ ـ إيران والانبعاث الديني	٩
٢ ـ الإسلام والعولمة الغربية	١١
٣ ـ إيران وقيادة الحوار الحضاري	١٩
الفصل الأول : الثورة الإسلامية : منطلقات وأهداف	٢٧
أولاً: ماهية الثورة وعوامل الإنتصار	٢٩
ثانياً: نهضة المجتمع الإيراني وتميّز أهدافه	٤٤
ثالثاً: الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه	٥٧
الفصل الثاني : المجتمع الإيراني وخيار الحل الديني	٧١
أولاً: معنى الدين في اللغة والاصطلاح	٧٣
ثانياً: الدين في الحياة الإيرانية القديمة	٧٧
ثالثاً: إيران الإسلام وخيار الحل الديني	٨٢

الفصل الثالث: الإمام الخميني وثقافة عاشوراء ٩٧
تمهيد: ٩٩
أولاً: دور الإمام الخميني في إحياء ثقافة عاشوراء ١٠٣
ثانياً: الإمام الخميني والموقف من الثقافة المضادة ١١١
ثالثاً: دور الأئمة(ع) وامتداد عاشوراء ١٢٣
الفصل الرابع: خصائص ومميزات الثورة الإسلامية في إيران ١٣٣
تمهيد: ١٣٥
أولاً: المرتكز الإستعماري في فهم الثورات الإسلامية ... ١٤٢
ثانياً: الإمام الخميني وحتمية الحل الإسلامي ١٥٣
ثالثاً: ديمومة الثورة وخسارة الرهان ١٦٠
الفصل الخامس: الإمام الخميني وإحياء الخطاب الديني ١٧٩
تمهيد: ١٨١
أولاً: حيوية الخطاب الديني وآثاره عند الإمام الخميني ... ١٩١
ثانياً: شمولية الخطاب الديني وعالميته عند الإمام الخميني ١٩٩
ثالثاً: دور علماء الدين والمراكز الدينية في إحياء الخطاب الديني ٢١٤
المصادر والمراجع ٢٢٧
فهرس الموضوعات ٢٣١

هـذا الكتـاب

يأتي في خضم مقولات العصر وتعقيداته، وفي اطار ما ترسمه حضارة الغرب من خطوط شاحبة، وتسعى إليه من عولمة وعالمية طاغية. وقد حاولنا في هذا الكتاب أن نطل على آفاق المستقبل، وهناك أمل يحدونا في أن تكون الإطلالة كاشفة عما يمكن أن تؤول إليه أوضاع الشعوب سواء في ظل حوار الحضارات، أو في ظل صدامها، كما يحدونا الأمل أيضاً في أن تكون الإطلالة مستشرفة لكل آفاق المستقبل، بحيث يمكن لنا التعرف إلى ما بثته الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الامام الخميني من إشعاعات روحية ومعنوية باتجاه الشعوب المسلمة والمستضعفة. إضافة إلى ما شكلته هذه الثورة من منعطفات تحفز الباحث في مجال الاستراتيجيا على تعميم ذاته ونظرته، لأجل أن يستكشف طبيعة هذه المنعطفات، التي كان لها أكبر الأثر في تحول العالم كله نحو الدينية.

لقد تضمن هذا الكتاب ابحاثاً ودراسات عن ايران والثورة والمستقبل، وذلك نظراً لما آل اليه وضع ايران من مركزية ومحورية في ضوء اطروحتها الإلهية، وتشكلاتها البنائية الجديدة، التي ميزتها عن سائر ما عرفه العالم من اطروحات ومنظومات.



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩
ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com
URL: http: //www. daralhadi.com